مقدمة فى الكتابة العربية والمخطوط العربى

النشأة والتطور



الدكتور

محمود شريف زكريا

مدرس بقسم المكتبات والمعلومات

كلية الاداب - جامعة عين شمس



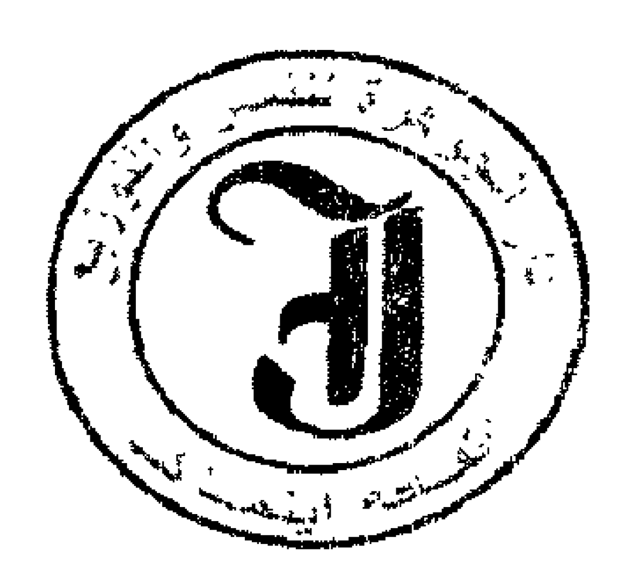
دار الجوهــرة

للنشر والتوزيع

مقدمة في
الكتابة العربية والمخطوط العربى
النشأة والتطور

فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
زكريا، محمود شريف
مقدمة في الكتابة العربية والمخطوط العربى النشأة والتطور/ محمود شريف زكريا
تدمك 978-977-6456-21-1
المخطوطات العربية
24×17

رقم الإيداع 2014/10280



دار الجوهرة للنشر والتوزيع

٩٣ شارع مصطفى النحاس - الدور التاسع - مدينة نصر - القاهرة - جمهورية مصر العربية
الهاتف: ٠٠٢٠٢ ٢٦٧٠٩٢١٥
فاكس: ٠٠٢٠٢ ٢٦٧١٨٢٨١

Dar.al-jawhrah.al-mutakdma@live.com
www.daraljawharh.com

مقدمة فى
الكتابة العربية والمخطوط العربى
النشأة والتطور

الدكتور
محمود شريف زكريا
مدرس علم المعلومات
كلية الآداب - جامعة عين شمس



المحتويات

ملاحق

مقدمة

بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد،،،

ربما حازت الكتابة العربية مكانةً بالغة الأهمية بين غيرها من الكتابات والخطوط التي انتشرت وتطورت في مناطق متفرقة من أنحاء العالم. وإنك أيها القارئ لتسمع عن تلك المدارس التعليمية التي أنشئت خصيصًا في بعض الدول العربية ـ ولم تزل بعد قائمةً تزاول أنشطتها التعليمية والفنية ـ من أجل العناية بتدريس الخط العربي وتحسين صناعة الكتابة وتجويدها، يوم أن كانت تلك الصناعة لها من المكانة والرفعة ما لها، فنبغ في صناعتها وفي تجويد الخط العربي خطاطون مبرزون، حفظ لنا التاريخُ العربي أخبارهم وإسهاماتهم وإبداعاتهم الفنية العديدة في هذا المنحى، بحيث لم يقتصر الاهتمام بالخط العربي وتجويده والعناية به وإتقانه على فئة معينة من الناس، وإنما قد أدلى السلاطينُ والأمراءُ والوزراءُ ورجالاتُ الدولة الإسلامية بدلوهم في هذا الأمر، وخاصةً في عصر الدولة العثمانية التي اشتهر عن سلاطينها أنهم يحرصون على تعلم الخط ولهم في هذا ذوق ملموس. هذا لمن قرأ التاريخ وتنقل بين أركانه وجنباته، مستبصرًا مستنيرًا.

ولم يزل الحال على هذا النحو حتى دخل الحاسب الآلي إلى دنيا الناس، وتدخل بدوره في كافة شؤون حياتهم؛ وكان من بينها الكتابة والخط، فأصبح

من الممكن إتاحة كافة أشكال الخطوط العربية واللاتينية ضمن برامج الحاسب المعنية بالكتابة والتحرير، الأمر الذي يوحي بتقلص وظيفة الخطاط العربي وتأخرها وإحجام الكثير عن مزاولة هذا الفن الأصيل أو اكتسابه هوايةً وشغفًا، إلا أن هذا الفن لا يعدل عنه في الأصل وجودُ مثل تلك البرامج الحاسوبية لمن تفكر، فهو يحمل ذوق الفنان العربي الذي تعجز تلك البرامج عن محاكاته وصفًا وكتابةً وتعبيرًا، كما أنه يعكس ثقافة فنية تناقلتها أجيال عن أجيال عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، وهو المجال الذي وجد فيه الخطاط العربي متنفسًا وسبيلًا للإبداع وبسط ذوقه الفني أو التعبير عنه بالضرورة. ويبقى في نهاية المطاف فن الخط العربي فنًا بديعًا، يحتفظ بهويته من حيث هو، عبر تاريخ الدولة الإسلامية زمانًا ومكانًا؛ ذلك أنه قد نشأ معها وكبر بين أحضانها، إلا أن قدره لم يلتقِ مع قدرها!، فقد أفل نجم هذه الحضارة يوم أفل، ولم يأفل نجم هذا الفن العربي، فتأمل حتى تدرك ما ترمي إليه عبارتي وكلامي.

ومن جهة أخرى، أردت أن أسلط الضوء على بعض القضايا العلمية المتصلة بالمخطوط العربي نشأةً وتطورًا ورفاهيةً، باعتباره مؤشرًا واضح الدلالة على تاريخ الحضارة الإسلامية وتقلبها في الزمان والمكان، منذ بداية عصر التدوين وحتى اختراع الطباعة. هذا باعتبار أن كلًا من علم الخطوط أو الباليوجرافيا وعلم المخطوطات أو الكوديكولوجيا من بين العلوم المساعدة لعلم الآثار أو الأركيولوجيا.

أما عن هذا العمل الذي أقدم له اليوم، فقد رأيتني بحاجة ملحة إلى عقد بعض الفصول النظرية والتطبيقية حول تاريخ الخط العربي نشأةً وتطورًا وما طرأ عليه من ترفٍ ورفاهيةٍ في آخر عهده حتى استقام أمره بين أيدينا الآن، فضلًا عن معالجة بعض القضايا الأساس المتعلقة بالمخطوط العربي، وذلك في إطار تدريس مقرري «علم الكتابة العربية» لطلاب الفرقة الثالثة بكلية الآداب جامعة عين شمس، و«المخطوط العربي» لطلاب الفرقة الرابعة بنفس الكلية.

وقد وقعت مادة هذا العمل في قسمين، اتسع كل قسم منهما ليشمل عددًا من الفصول الأساسية. فبالنسبة للقسم الأول فقد تناول علم الخطوط (الباليوجرافيا) موزعًا مادته العلمية على أربعة فصول؛ جاء الفصل الأول منها بعنوان: مدخل إلى الباليوجرافيا أو علم تطور الخطوط ليقدم أساسًا نظريًا حول المصطلح العلمي الدال على دراسة الخطوط، وموضوع الباليوجرافيا وأهمية دراسة هذا العلم ومصادره، ثم لمحة تاريخية حول مكانة الكاتب العربي والأرض التي نشأت فيها الكتابة العربية. أما الفصل الثاني: نشأة الكتابة العربية؛ القرائن النقلية؛ فخصص لمناقشة النظريات العلمية حول نشأة الكتابة العربية، مفندًا تلك النظريات بأدلتها الموضوعية. وتكتمل معالجة قضية نشأة الكتابة العربية في الفصل الثالث بعنوان: نشأة الكتابة العربية؛ القرائن المادية، استنادًا إلى التحليل الباليوجرافي لعددٍ من النقوش الكتابية القديمة. وفي الفصل الرابع: الإصلاحات الداخلة على الكتابة العربية: الشكل؛ الإعجام؛ الحركات الإعرابية؛ علامات الترقيم، ينصرف حديثنا إلى مناقشة أهم الإصلاحات التي دخلت إلى الكتابة العربية بعد اشتقاقها عن الأصل النبطي. وكذا أخذت الكتابة العربية في رحلتها نشأةً وتطورًا وترفًا ورفاهيةً.

وفي القسم الثاني تم معالجة بعض القضايا الأساسية المتصلة بعلم المخطوطات (الكوديكولوجيا)، وذلك في فصول خمسة متصلة الترقيم بفصول القسم السابق، حيث جاء الفصل الخامس بعنوان: مدخل إلى الكوديكولوجيا أو علم المخطوطات، ليقدم أساسًا نظريًا حول موضوع الدراسة وأهميته ومحاوره الفرعية ومحاور علم المخطوطات العربي، مع إشارةٍ إلى بعض المصطلحات الكوديكولوجية المتخصصة. أما الفصل السادس: المخطوط العربي عبر عصور الحضارة الإسلامية؛ فتتبع نشأة المخطوط العربي وتطوره بدايةً بالعصر الراشدي فالأموي ثم العصر العباسي فالعثماني.

وفي الفصل السابع بعنوان: مقومات صناعة المخطوط العربي وملامحه

الفيزيقية، تم التركيز على بعدين هما: مناقشة المقومات المادية الأساس لصناعة المخطوط العربي، ثم الدراسة التحليلية للملامح المادية المميزة للمخطوط العربي. وفي الفصل الثامن: خوارج النص في المخطوط العربي، ينصرف الحديث إلى مناقشة أنماط التوثيق المختلفة في المخطوط العربي؛ مثل تقييدات الوقف والتملك والسماع والإجازات، فضلًا عن دراسة معايير تقييم المخطوط العربي.

وفي الفصل التاسع والأخير: مخطوطة مرات وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة، يطرح المؤلف نموذجًا عمليًا حول إحدى المخطوطات الأدبية المهتمة بالشعر العربي، لتكون مثالًا على بعض التحليلات الكويكولوجية التي تم التسليط عليها ضمن محاور هذا الكتاب بالقسم الثاني منه، لعلها تكون نقطة بداية لكل طالب علمٍ مبتدئٍ أراد أن يسلك سبيله بحب وشغف في هذا الحقل التخصصي المانع، علمًا بأن هذه المخطوطة قد نشرت نشرًا علميًا بأحد أعداد مجلة «عالم المخطوطات النوادر» منذ سنة ٢٠٠٥، على يد الأستاذ الفاضل أحمد سليم عبد الوهاب غانم الذي تفضل بمراجعة المخطوطة وإبداء الملاحظات علميا.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

د. محمود شريف

القاهرة

أبريل ٢٠١٤

القسم الأول

مقدمة في

علم تطور الخطوط (الباليوجرافيا)

الفصل الأول

مدخل إلى الباليوجرافيا أو علم تطور الخطوط

١/٠ تمهيد

تعنى مادة هذا الفصل بطرح بعض الأسس العلمية ذات الصلة بموضوع الكتابة العربية؛ حيث تناقش المصطلح العلمي الدال على دراسة الخطوط وتعرفها ومحاولة فهم طبيعتها وسماتها فيما يعرف هذا بعلم تطور الخطوط أو الباليوجرافيا، من حيث موضوع هذا العلم وأهمية دراسته ومصادر الدراسة، ثم لمحةٌ سريعةٌ حول أهمية الكتابة ودورها في إقامة الحضارات الإنسانية، ثم لمحةٌ موجزةٌ حول مكانة الكاتب العربي والأرض التي نشأت وتقلبت فيها الكتابة العربية في الزمان والمكان.

١/١ المصطلح Paleography

يتكون المصطلح Paleography من مقطعين؛ هما:

ـ المقطع الأول Paleo أو Palaeo: وهي كلمة يونانية تعني: قديمًا، عتيقًا، باليًا، ولعلها مأخوذة من اللفظة الفينيقية: البلى؛ من بلي الشيء، فهو بالٍ.

ـ المقطع الثاني graphy: وهي كلمة يونانية تعني: الكتابة أو رسمها أو علم معرفتها.

يفهم من هذا التعريف أن المصطلح باليوجرافي يبحث في كل ما هو مكتوب أو منقوش أو مرسوم ودراسة تطور الخطوط القديمة المكتوبة على النقوش وورق البردى ورَقّ الغزال والمخطوطات؛ من حيث: مادتها وشكل كتابتها ومقارنة هذه الكتابة بغيرها وتحديد نسبتها ودراسة تطور الكتابة، حيث فرضت البيئة المحيطة نوعية مادة الكتابة؛ سواء أكانت حجرًا أم ورق بردي أم جلدًا أو رَقًّا. يُعنى هذا العلم بفك الخطوط القديمة ورموز الكتابات الأثرية والنقوش والمسكوكات وما يتعلق بدراسة أشكال النقود وتطورها عبر القرون المختلفة.

إن الباليوجرافيا تعد من بين العلوم المساعدة لعلم الآثار أو الأركيولوجيا A-cheology؛ ذلك أن هذا الأخير ينضوي على عدد من العلوم المساعدة، منها ما هو وثيق الصلة بالوسائط المادية التي تسجل عليها المعارف الإنسانية؛ مثل علم النقوش أو الكتابات المنقوشة (الإبيجرافيا) Epigraphy: وهو علم الكتابة القديمة المنقوشة في الحجر والطين والمعدن والخشب وغيرها. وهذا العلم يساعد الآثاري في معرفة سبب وجود الأثر ومعرفة صانعه وبيئة الأثر وأسرار اللغات المختلفة وتحديد زمن كتابة النصوص ومكانتها وترميم الناقص فيها. ومن هذه العلوم: علم تطور الكتابات القديمة (الباليوجرافيا) Paleography موضوع الفصل الراهن، ومنها أيضًا علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا Codicology وهو العلم الذي يهتم بدراسة الكتاب المخطوط وصناعته بما في ذلك من صناعة الأحبار وفن التوريق والتجليد والتذهيب وصناعة الرقوق والجلود والكاغد وما يتبع كل ذلك من فنون مختلفة، وسوف يأتي حديث مفصل عن هذا العلم بشكل خاص كما هو مقرر بالقسم الثاني من مادة هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى. ومن العلوم المساعدة في هذا المنحى أيضًا علم التقويم أو الكرونولوجياCrornology، وعلم البرديات أو البيرولوجيا papyruology. وكي لا يبارح هذا العمل الحالي الهدف المقصود منه، فيمكن للقارئ المستنير مراجعة المصادر الأساسية لعلم الآثار من أجل الوقوف على ماهية تلك العلوم جميعًا.

١/٢ موضوع علم الباليوجرافيا

هناك اختلاف حول صحة إطلاق كلمة (علم) على المباحث العلمية المتعلقة بالكتابة العربية، إلا أن الفارابي (٣٣٩هـ) قد ذكر في إحصاء العلوم مختلف المباحث التي يمكن أن يشتمل عليها (علم اللسان)، وأن من بينها (علم قوانين الكتابة)، كما ذكر طاش كبرى زاده صاحب كتاب (مفتاح السعادة) (ت ٩٦٢هـ) العلومَ الخطيةَ، وأشار من بينها إلى (علم إملاء الخط العربي). ويشير الدكتور أيمن فؤاد سيد في مقدمة كتابه المترجم حول «كوديكولوجيا المخطوط بالحرف العربي» لمؤلفه الفرنسي فرانسوا ديروش إلى أنه قد تركز الاهتمام الأول لدارسي المخطوطات منذ القرن السابع عشر الميلادي في البحث عن النصوص القديمة تمهيدًا لنشرها، وأن قيمة المخطوط كانت ترجع إلى قيمة النص الذي يحمله؛ أي محتواه العلمي أو الأدبي أو الفلسفي أو الديني...، ومن ثم نما علم تطور الخط أو الباليوجرافيا في القرن التاسع عشر الميلادي تباعًا، دون أن يتطور علم دراسة المخطوط في حد ذاته. ومن أجل تلك الرؤية، قامت مادة الكتاب الحالي بقسميه، ليكون بذلك محلًا لمعالجة علمين يبدو أنهما أكثر ارتباطًا ببعضهما من جملة العلوم المساعدة لعلم الآثار، كما تأسس من قبل.

إن لموضوع الكتابة مسائله التي تميزه عن علوم اللغة العربية الأخرى، الأمر الذي يجعله علمًا قائمًا بذاته، وقد عَرَّفه نصر الهوريني بأنه: (علم بأصول يُعْرَفُ بها تأدية الكتابة على الصحة)، أو هو (قانون تعصم مراعاته من الخطأ في الخط، كما تعصم مراعاة القوانين النحوية من الخطأ في اللفظ). وذكر بعض العلماء المتأخرين علوم العربية المسماة بـ(علم الأدب)، وجعل من بينها (علم الخط)، لكن الخط يمكن أن يراد به قواعد الإملاء، ويمكن أن يُستخدم في الدلالة على تجويد الكتابة وتحسين الخطوط وتنويعها، ولا دخل لعلم الخط بهذا المعنى في علوم العربية.

إذا كان عددٌ من علماء العربية قد ألحق مبحثًا في بيان قواعد الإملاء والكتابة في كتب النحو أو الصرف التي يؤلفونها، فلا يعني هذا أن علم الكتابة جزءٌ منهما، أي أن الإملاء لا يندرج تحت علم النحو أو علم الصرف إطلاقًا، وإنما يعد علمًا مستقلًا بالمفهوم الذي تؤسس له مادة هذا الكتاب؛ فقد نقل السيوطي عن أبي حيان أنه قال: (وعلم الخط، ويقال له الهجاء، ليس من علم النحو)، وإنما ذكره النحويون في كتبهم لضرورة ما يحتاج إليه المبتدئ في لَفْظِه وفي كتبه، ولأن كثيرًا من الكتابة مبنيٌ على أصول نحوية، ففي بيانها بيان لتلك الأصول. وقال نصر الهوريني معلقًا على قول أبي حيان (ليس من علم النحو)؛ يعني بل هو علم مستقل.

١/٣ مصادر دراسة الباليوجرافيا العربية

إن الكتابة العربية التي نستخدمها الآن ترجع في نشأتها الى عصر سابق للإسلام بقرنين أو ثلاثة، لكن النصوص المكتوبة الباقية من حقبة ما قبل الإسلام قليلة جدًا. وكان نزول القرآن بالعربية وتدوينه بها الانطلاقة الأولى إلى مجال واسع من الاستخدام للكتابة العربية؛ حيث ظهر التدوين المنظم للعلوم العربية والشرعية في القرن الثاني الهجري، وكان للكتابة نصيب أكبر في ذلك التدوين، فقد ألفت كتب مستقلة في بيان قواعدها.

ويمكن تقسيم مصادر دراسة باليوجرافيا الكتابة العربية إلى فئتين، هما:

١. المصادر الأولية: وهي مصادر المعلومات المؤلفة في بيان قواعد الكتابة العربية (الإملاء)؛ ومن أمثلتها:

١) كتاب الهجاء، لعلي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩ هـ).

٢) حد الهجاء، ليحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ).

٣) كتاب أدب الكاتب، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

٤) كتاب الخط والهجاء، لأبـي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ).

٥) كتاب الهجاء، لأبـي العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب (ت٢٩١هـ).

٦) كتاب الخط، لأبي بكر محمد بن السري بن السراج (ت٣١٦هـ).

٧) كتاب أدب الكتاب، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٦هـ).

٨) كتاب الهجاء، لأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت٣٤٧هـ).

٩) المطالع النصرية في الأصـول الخطية، لنصر الوفائي الهوريني (ت١٢٩١هـ).

٢. المصادر الثانوية: وهي مصادر المعلومات المباشرة التي لم تتحدث عن قواعد الإملاء، وإنما بحثت في موضوعات تتصل بتاريخ الكتابة العربية؛ مثل:

١) النصوص الخطية القديمة: مثل النقوش الحجرية، والمخطوطات القديمة للكتب العربية، ومخطوطات المصاحف، لا سيما القديمة منها.

٢) كتب رسم المصحف: وهي الكتب الخاصة بطريقة رسم المصاحف القديمة وطريقة رسم الكلمات في المصاحف التي كتبها الصحابة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهي تمثل صورة الكتابة العربية في تلك الفترة.

٣) كتب النقط والشكل: وهي كتب تهتم بدراسة تأريخ العلامات في الكتابة العربية من نقاط وحركات ونحوها.

٤) البحوث والكتب المؤلفة حديثًا في أصل الكتابة العربية ونشأتها وتطورها.

١/٤ أهمية الكتابة

لا ريب أن الفكرة التي تطرأ في خلد المرء قد سبقت التعبير عنها كلامًا، كما أن الكلام نفسه أو اللغة قد سبقا التعبير عن تلك الفكرة تصويرًا ورمزًا وكتابةً وخطًا. والخط أو الكتابة تعد ضرورةً إنسانيةً حضاريةً، لجأ إليها الإنسان للتعبير عن الكلام الذي يعكس ما يدور بخلده من أفكار وتصورات ورؤى وتأملات، وكذا صار الخط أو الكتابة وسيلة للتعبير عن الكلام بالرمز أو الحرف المكتوب، وإن تفاوتت السبل المتبعة في كتابة هذا الكلام وتسجيله وربما تدوينه عبر العصور المختلفة، وما توافر فيها بصور متفاوتة من أدوات تُيسر عملية الكتابة وتحفظ المعلومات والثقافات والخبرات البشرية.

ولا ريب أن الكتابة بوجه عام تمثل السبيل الأنجع لتسجيل المعرفة، ذلك أن تقييد العلم بالكتابة يعد مطلبًا أساسيًا للمحافظة على هذا العلم من الضياع أو النسيان أو موت العلماء وافتقادهم، فلا بد للعلم من كتابة تُقيده وتحفظه وتُعد شاهدًا على نبوغ فرد من أبناء البشر فيه، بحيث ينسب هذا الفضل إليهم جميعًا عبر العصور. ومن الثابت عمليًا أن الكتب بوجه عام لا توجد في أمة من الأمم إلا إذا توافرت لها ثلاثة عناصر هي:

١. وجود كتابة وكُتَّاب.

٢. وجود مواد أو أدوات صالحة للكتابة بها وعليها.

٣. وجود تراث يحرص الناس على تسجيله وتدوينه.

فالكتابة، إذن، حاجة إنسانية ملحة، لا تنتهي ولا يعني أن دخولنا إلى عصر تكنولوجيا المعلومات أن هذا النشاط الراقي سوف يتوقف، بل إنه يزداد ويتطور

ويأخذ بكل ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة من إمكانات وامتيازات تعزز من هذا النشاط وتميزه بالضرورة.

١/٥ مكانة الكاتب عند العرب

بلغت الكتابة في مصر القديمة مبلغًا عظيمًا حتى صارت وظيفة الكاتب وقتها واحدةً من بين الوظائف المرموقة في الدولة مع قلة من يعرف الكتابة ويتقنها وقتها. فقد كانت الهيروغليفية[١] في مصر القديمة ـ وهي كتابة تصويرية معقدة ـ تحمل رموزًا مختلفة تعبر عن الإنسان والحيوان والأدوات المختلفة والمواقف المعبرة عن الحياة اليومية فيما عرف بالكتابة بالرموز أو الكتابة الرمزية *Logographic*.

وقد عرف العرب الكتابة والكُتّاب في العصر الجاهلي، واستخدموها في توثيق عقود التجارة وعهود التحالف. كما أشار القرآن الكريم إلى الكتابة وبعض أدواتها وإلى صفة الكاتب في غير موضع من آياته الكريمة، كما اتخذ رسول الله ﷺ كُتّابًا للوحي ولمراسلاته الكتابية إلى ملوك الأرض حينما دعاهم إلى الدخول في الإسلام، واتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون (١١هـ ـ ٤٠هـ)، رضوان الله عليهم. وزاد أمر الكتابة أهمية في عهد الدولة الأموية (٤٠هـ ـ ١٣٢هـ) تلبية لحاجة الدولة التي أقامت الدواوين المختلفة، فكثر الكُتّاب عند الخلفاء الأمويين وولاتهم، ودخل الموالي في عمل الكتابة.

تعد الكتابة صناعة حضارية تميز بني الإنسان عن الحيوان، وهي من الصناعات

---

(١) كانت الهيروغليفية تستخدم للكتابة والنقش على الآثار وعلى الجدران بطريقة الحفر على الأحجار (الجرانيت والبازلت)، وسرعان ما تم ابتكار صورة أخرى من الكتابة تصلح للاستخدام على ورق البردي أو الفخار؛ وهي الكتابة الهيراطيقية الخاصة بالنواحي الدينية، حيث كان يستخدمها الرهبان في المقام الأول، ثم طرأ تطورٌ آخر على هذه الكتابة بحلول القرن الثامن قبل الميلاد، حيث حلت الكتابة الديموطيقية (الكتابة الشعبية أو الدارجة أو العامية) مكان الهيراطيقية في كافة شئون الحياة، نظرًا لبساطتها وسهولة تعلمها وانتشارها بين عامة أفراد الشعب.

المدنية الشريفة التي تنشأ وتقوى أو تزول وتضعف بقوة الحضارات أو ضعفها، وتكون في حالة العمران والتمدن، ولا تكون في حالة البداوة، لذلك نجد أن أكثر البدو لا يكتبون ولا يقرأون، كما كان هذا هو حال عرب الحجاز قبل الإسلام، إذ كانوا جاهليين لا يملكون ثقافة مكتوبة ومدونة.

وصارت الكتابة صناعةً لها حدودها وسماتها، وحرص أهل الكتابة على إيضاح مفهومها وبيان لوازمها، فوضعوا الرسائل والكتب الخاصة بذلك، حيث بدأها عبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ)[1] ـ وهو من أهم الكُتّاب في القرن الثاني الهجري ـ برسالته إلى الكُتّاب التي ضمنها وصايا كثيرة لهم، فتحدث عن صنعة الكتابة وآدابها ومؤهلات الكاتب وما يحتاجه لإتقانها، ثم توالت بعد ذلك الرسائلُ والكتابات العلمية المؤلفة في شأن صنعة الكتابة وصفات الكاتب، كما ضُمّنت أسس فنون ومؤهلات الكاتب نفسه في كتب جامعة شاملة؛ كتلك التي ذكرناها في المصادر الأولية أعلاه.

وقد أوضحت هذه الرسائل والكتب جوانب صناعة الكتابة وكيفيتها، وعدة الكاتب وثقافته اللازمة لصنعة الكتابة، فأظهرت أن الكاتب يجب أن:

ـ يمتلك موهبة الكتابة.

ـ يتحلى بالذكاء.

ـ يكتسب الخبرة والدربة من خلال الالتحاق بدواوين الكتابة وملازمة الكُتّاب الكبار.

ـ يحصّل ثقافة كبيرة تساعده على إجادة الكتابة.

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي، من أعلام الكتاب في القرن الثاني الهجري، فارسي الأصل عربي الولاء. نشأ في الأنبار أو الشام على خلاف بين المؤرخين. وظهر في بداية أمره مساعدًا لصهره سالم صاحب ديوان الرسائل في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم عمل بعد ذلك كاتبًا لمروان بن محمد والي أرمينيا وأذربيجان، ثم عمل أخيرًا كاتبًا أول للدولة الأموية في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولكنه قتل مع خليفته على يد العباسيين عندما تولوا الحكم.

ـ يتقن علوم اللغة والأدب.

ـ يعرف أنواع الخطوط وقوانينها وأدوات الكتابة وأنواعها.

ـ يُحيط بعلوم الدين والتاريخ، ويعرف نظام الدول وألقاب أهلها.

ـ يحفظ نصوصًا كثيرةً من القرآن الكريم والحديث الشريف والأشعار والأمثال والأقوال المأثورة وخطب البلغاء.

وكذا ارتفع مفهوم الكتابة، وعلت مكانة الكاتب، فلم يستحق صفة الكاتب إلا الأديب الموهوب المثقف؛ لذلك قل عدد الكتّاب المرموقين قياسًا إلى عدد الشعراء؛ لأن الكاتب عندهم هو الذي يتصرف في ألوان الكتابة، ويكتب في كل موضوع يُعرض عليه.

١/٦ الأرض التي نشأت فيها الكتابة العربية

تعد كلمة «عربي» كلمةً آرامية الأصل (آرابي) بمعنى ساكن الصحراء. وينقسم العرب إلى ثلاثة أقسام، تعود كلها إلى سام بن نوح عليه السلام:

١) العرب البائدة: العرب الذين بادوا أو هلكوا مثل: عاد وثمود ومدين وقوط لوط، كما يقول النسَّابون والمؤرخون في هذا المنحى.

٢) العرب العاربة (عرب الجنوب): العرب الأصليون، وينتهي نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان. وهم العرب القحطانيون (من أشهر قبائلهم: حمير وكهلان)، حيث لازموا الديار اليمانية فترةً من الزمن، ثم تفرقت قبائلهم في الجزيرة العربية (كقبيلة جرهم) والشام. وعرف هؤلاء خطًا يكتبون به، هو الخط المسند الحميري أو (الخط العربي الجنوبي) أو (الكتابة العربية الجنوبية).

٣) العرب المستعربة (عرب الشمال): ينسب هؤلاء العرب إلى سيدنا إسماعيل

بن إبراهيم عليه السلام، وقيل لهم: العرب المستعربة؛ ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من أولاد يعرب بن قحطان، وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت لغته السريانية، ولم يتعلم العربية. أما ولده إسماعيل عليه السلام، فبحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمانية القحطانية تعلم العربية وصار فصيحًا، بل تفوق على أهل جرهم بيانًا ولغةً، كما تعلمها أولاده من بعده. لذا، عرف أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام الذين سكنوا الجزيرة العربية بالعرب المستعربة؛ لأن جدهم الأكبر إبراهيم عليه السلام لم يكن عربيًا وأن ولده إسماعيل عليه السلام استعرب هو وأبناؤه. وإلى عرب الشمال وإلى سيدنا إسماعيل عليه السلام يؤول نسب النبي ﷺ (٥٧٠م - ٦٣٢م). عرف هؤلاء العرب المستعربة نوعًا هامًا من الخط هو الخط العربي الشمالي، أو (الكتابة العربية الشمالية).

هذا، ويحظى الخط العربي الشمالي بمكانة هامة بين غيره من الكتابات أو الخطوط. ويعود السبب وراء ذلك من الناحية التاريخية إلى انتشار الإسلام في مختلف البلدان والأقطار، فكان لزامًا على الدول الإسلامية أن تعرف الكتابة العربية حتى تُحسن قراءة القرآن الكريم، فانتشرت الكتابة العربية بقدر انتشار الإسلام في البلدان والأراضي المفتوحة شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا. كذا كانت الكتابة العربية واحدةً من أهم دعائم نشر الإسلام وحفظ مبادئه، كما كان الإسلام نفسه من أخطر دعائم نشر الكتابة واللغة العربية داخل جزيرة العرب وخارجها، ولولاه لاندثرت الكتابة العربية مثلما اندثرت لغات وخطوط سامية كثيرة.

١/٧ اللغات التي تكتب بالخط العربي

لقد أدى انتشار الإسلام في البلدان المفتوحة حول أرجاء العالم إلى اتساع دائرة انتشار الكتابة العربية ذاتها بين الناس، وتعلمها وتبنيها من قبل بعض اللغات المنتشرة حول العالم؛ وإن من أهم اللغات التي تبنت الخط العربي ما يلي:

١ ـ اللغات التركية؛ مثل التركية العثمانية القديمة والقازانية....

٢ ـ اللغات الهندية؛ مثل اللغة الأردية والكشميرية... وغيرهما.

٣ ـ اللغات الفارسية؛ مثل اللغة الفارسية والأفغانية والكردية...

٤ ـ اللغات الأفريقية؛ مثل اللغة البربرية والنوبية والحبشية...

الفصل الثاني

نشأة الكتابة العربية

القرائن النقلية

٢/٠ تمهيد

تنصب المادة العلمية بهذا الفصل على معالجة ما يتعلق بأهمية الكتابة بوجه عام ودورها في تدوين المعرفة البشرية، وأنها تعد لونًا ضروريًا من ألوان الحضارة الإنسانية، كما تعنى مادة هذا الفصل بمناقشة النظريات العلمية التي قيلت في شأن الكتابة العربية ونشأتها، مفندًا تلك النظريات بأدلتها، مع التعريج على أقرب هذه النظريات إلى الواقع الذي يرتضيه العقل ويقبله في شأن هذه المسألة التاريخية.

٢/١ مقدمة حول نشأة الكتابة

من الممكن قراءة تاريخ نشأة الكتابة بوجه عام في ضوء مجموعة من المراحل التاريخية غير المقصودة، وذلك من باب تسهيل الطرح العلمي لهذه المساءلة التاريخية. وعلى هذا، يمكن التماس تلك المراحل على النحو التالي:

١. المرحلة الرمزية:

لم يكن الإنسان البدائي يعرف الكتابة، وكان إذا أراد أن يبعث برسالة فكرية، عبَّر عن تلك الرسالة بأشياء مادية من واقع البيئة التي يعيش فيها، وإن كانت تقليدية

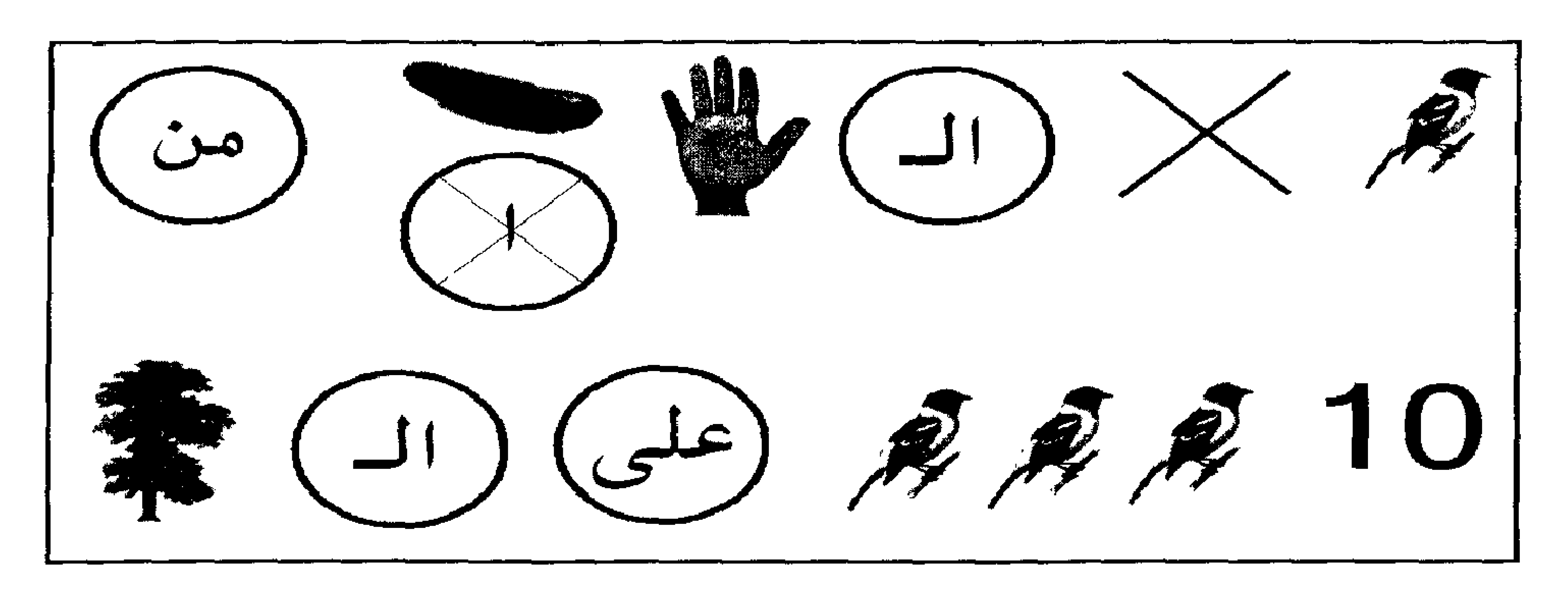
بسيطة، فضلًا عن اتخاذ الألوان الطبيعية المختلفة للدلالة على بعض المعاني المجردة؛ فالأبيض مثلًا يدل على السعادة والسلام، والأسود يدل على الخطر، والأحمر يعنى الحرب، وإن كان ذلك يمثل عرفًا سائدًا بين الناس، يتعارفون عليه ويؤمنون به، وذلك باعتبار أن هذا الشيء المادي هو رمزٌ يمكن به التعبير عن الأفكار التي أراد الإنسان إيصالها إلى الغير في هذه المرحلة.

مثال ذلك: يقال أن أحد الأسرى قديمًا قد بعث إلى زوجته برسالة عبارة عن أشياء مادية من جنس بيئته التي أسر بها، وهي: ثياب بالية، وضع داخلها حجرًا وقطعة فحم وفلفل وبعض حبات الذرة. وهكذا تفهم المرأة المسكينة ـ وقتها ـ أن زوجها قد نحل جسمُهُ وتصلب كالحجر، وأسود كالفحم، وأن عقله قد اضطرب واختل كالفلفل!، وأن عينيه صارت مثل حبات الذرة!، وثيابه قد بليت لتضم جميع تلك الأشياء المادية المعبرة عن هلاك الزوج بوجه عام، فتأمل في تلك الثقافة البدائية لدى الإنسان.

٢. المرحلة التصويرية:

إذا كان الإنسان البدائي في تلك المرحلة الموغلة في البدائية استخدم الأشياء المادية للتعبير عن رسائله الفكرية، فإن المرحلة الثانية كانت تصوير أو رسم تلك الأشياء على وسيط خارجي عوضًا عن الشيء نفسه، ومن ثم تبلغ الرسالة بطريقة مختصرة وأكثر سهولةً. ومن هنا انتقل الإنسان إلى مرحلة الكتابة بالفعل وهي الكتابة التصويرية Ideography، وذلك بمحاكاة الطبيعة وإن لم تكن تلك المحاكاة دقيقة تمامًا في بداية الأمر، ولكنها كانت معبرة على كل حال. عمد الإنسان في هذه المرحلة إلى رسم الصورة كاملةً، فإذا أراد أن يرمز إلى رجل رسمه كاملًا، ثم تطور الرسم بعد ذلك اختصارًا، كأن يكتفي برسم رأس الرجل عوضًا عن رسم الرجل كاملًا، بل وأكثر من هذا؛ فقد تطور أمر التصوير للتعبير عن المعاني المجردة والأحاسيس بشيء مادي ملموس؛ مثل التعبير عن الحزن برسم عين تدمع، أو عن

الأكل برجل يمد يده إلى فمه، وعن الخطر برسم جمجمة، إلى غير ذلك مما نجده محفوظًا على الكهوف والآثار القديمة التي خلفها لنا قدماء المصريين، ومنها ما يعبر بالكتابة التصويرية تلك عن أحداث معارك حربية كاملة. وتعد الهيروغليفية أقدم أنموذج للكتابة التصويرية، إذ كانت تستخدم علامات صورية معينة (نحو ٦٠٠ علامة)، قام برسمها كهنة قديرون على الرسم. وكانت تكتب غالبًا من اليسار إلى اليمين وبالعكس أو من الأعلى إلى الأسفل.



شكل (١) بعض الرموز المعبرة عن الكتابة التصويرية

٣. مرحلة التعبير المقطعي:

رغم نجاح الأسلوب التصويري نسبيًا في توصيل المعلومات، إلا أنه فشل في التعبير عن ألفاظ مجردة، لتأتي المرحلة الثالثة بعد ذلك، حيث يحاول الإنسان هنا التغلب على تلك المشكلة بتقريب اللفظ المجرد من شيء مادي، ومن ثمَّ التعبير عن هذا اللفظ المجرد بنفس صورة الشيء المادي المتفق معه لفظًا فقط، على أن يفهم اللفظ من السياق. مثال ذلك: التعبير عن لفظ الذهب برجل يمشي ويعطينا ظهره لمجرد الاتفاق في النطق اللفظي بين المعدن (ذهبٌ) والفعل (ذَهَبَ). ومثال آخر: التعبير عن المال برجل يميل لمجرد الاتفاق بين اللفظ (مالٌ) والفعل (مَالَ) في الصوت.

لقد اعتمدت هذه الطريقة على الصوت في التصوير والتعبير، ومن ثم انبعثت

فكرة التعبير المقطعي؛ أي التعبير عن كل كلمة على حدة بصورة أو برمز، بدلًا من التعبير الكلي عن المعنى أو الفكرة بصورة واحدة. وهكذا ولدت مرحلة جديدة من مراحل الكتابة وهي مرحلة تصوير اللفظ Word Sign، كما كان يحدث في الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة. وقد مهدت هذه الطريقة السبيل إلى الكتابة الحقيقية، فكانت الخطوة الأولى لها تقطيع الكلمة الواحدة إلى مقاطع صوتية حسب النطق، وقد قادت هذه الفكرة بدورها إلى فكرة الحرف، بصورتيه الصائت والصامت.

٤. مرحلة اختراع الأبجدية:

وعلى مر الأيام، دخلت تحويرات وتغييرات على أشكال الحروف وأصبح كل حرف يصور صوتًا من أصوات الكلمة الواحدة ويدل عليه وحده دون سواه. وبضم مجموعة الحروف الممثلة للأصوات تكونت الكلمات المكتوبة، وأصبح بالإمكان ترجمة اللغة والتعبير عنها بالكتابة. وكانت هذه المرحلة هي المحطة النهائية في رحلة الكتابة، وانصرف جهد البشرية بعد ذلك إلى تجويد الخط وتحسينه واستخدامه عنصرًا جماليًا في الحياة. وكانت تلك المحطة هي أول ثورة في مجال المعلومات، ما فتح الباب على مصراعيه من أجل حفظ المعلومات كتابةً وتدوينًا.

وحيث إن هذه المرحلة تمثل المحطة النهائية في رحلة الكتابة، فقد أفردت لها فقرةً مستقلة تتناولها وتعالجها على نحوٍ أكثر تركيزًا.

٢/٢ اختراع الكتابة

هناك اتفاق علمي على أن الأبجدية الفينيقية Phoenician Alphabet هي الأصل الذي تفرعت عنه كل الأبجديات الموجودة في العالم اليوم. وإن وقع هناك خلاف بين العلماء حول هذه الحلقة المفقودة بين الكتابة التصويرية والكتابة الأبجدية،

إلا أن الكتابة الفينيقية تمثل حلقة الوصل المفقودة بين الكتابتين. ويعود السبب وراء ذلك القول إلى اكتشاف عالم الآثار الشهير بتري Petrie (١٨٥٣ ـ ١٩٤٢م) مجموعةٍ من النقوش الأثرية في سيناء الجنوبية بمصر، معتقدًا أنها كانت تمثل كتابةً هجائيةً وليست تصويريةً، كما اعتقد أنها تطورت عن الكتابة الهيروغليفية.

ولم تكن تلك الكتابات المنقوشة مجرد خربشات عفوية، وإنما كانت تخضع لنظام متقدم من الكتابة الهجائية، حيث بدت كلُ علامة تعبر عن صوت واحد أو حرف معين. وقد وصل عدد الرموز في هذه الكتابة إلى ٢٢ رمزًا. وانعقد رأي العلماء على أن من كتب هذه الكتابات: فينيقيون كانوا يعملون كرؤساء عمال في مناجم الفيروز بجنوب سيناء. وكذا، اشتق هؤلاء الفينيقيون كتابتهم من الرسوم التصويرية المصرية القديمة بكيفية معينة. وقد انتشرت هذه الأبجدية انتشارًا واسعًا نظرًا لامتداد سلطان الفينيقيين على معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط، فانتشرت الكتابة الفينيقية وتأثرت بها اللغاتُ المختلفة، فأخذت تلك الكتابة لتعبر بها عن أفكارها ومعانيها بصورة غير مسبوقة.

وقد خرجت الألفبائية الفينيقية في ثلاث موجات حول الكرة الأرضية:

١) الموجة الأولى: بلاد اليونان، حيث الكتابة اليونانية.

٢) الموجة الثانية: الهند وجنوب شرق آسيا، حيث الكتابات الهندية والأسيوية.

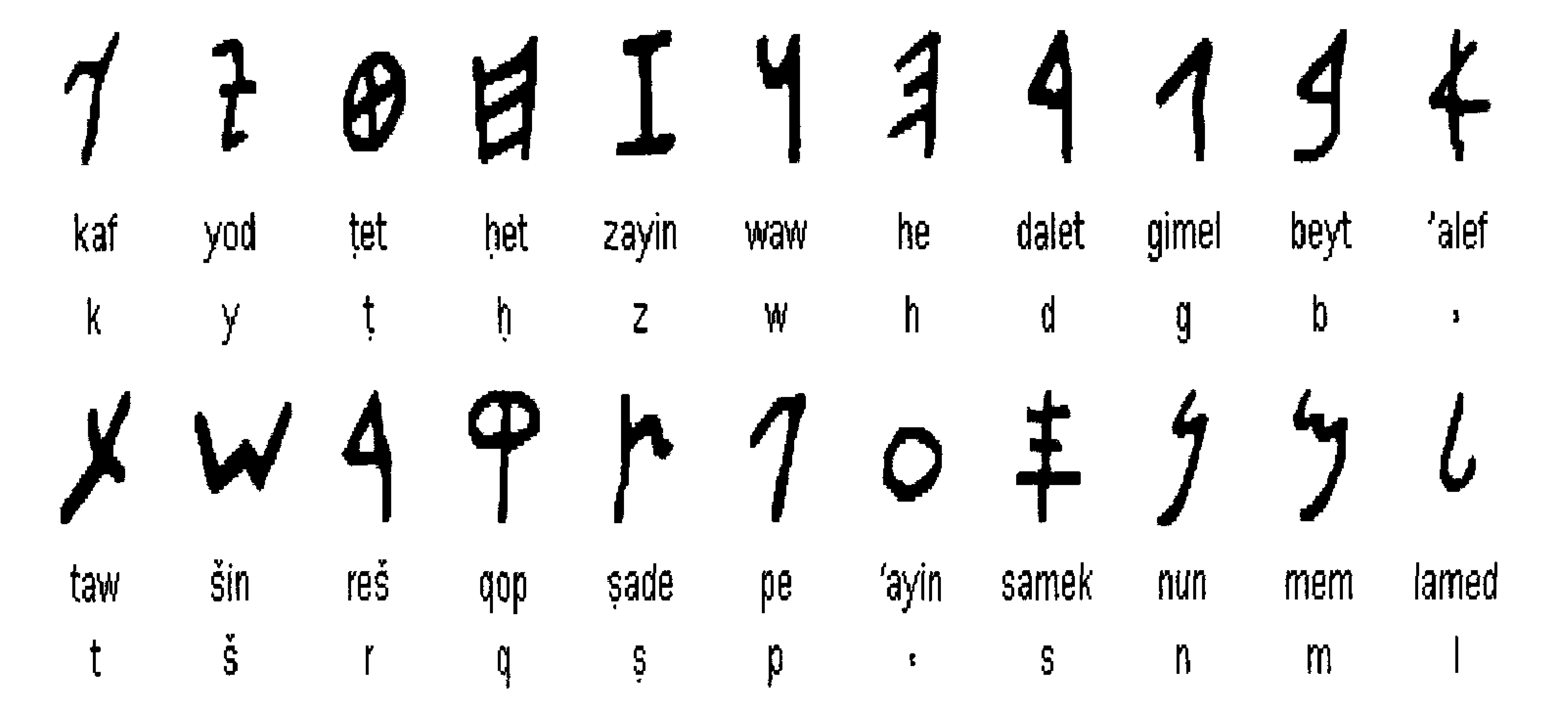
٣) الموجة الثالثة: آسيا الوسطى وبلاد الشام والجزيرة العربية، حيث الكتابة الآرامية، ثم النبطية فالعربية الشمالية.

Early Aramaic, Imperial Aramaic and Modern Aramaic

Modern	Name	Transliteration	Pronunciation
א	ālaph	ʾ	[ʔ/aː/eː]
ב	bēth	b	[b/v]
ג	gāmal	g	[g/ɣ]
ד	dālath	d	[d/ð]
ה	hē	h	[h]
ו	waw	v	[w/oː/uː]
ז	zain	z	[z]
ח	ḥēth	ḥ	[ħ]
ט	ṭēth	ṭ	[tˤ]
י	yudh	y	[j/iː/eː]
כ/ך	kāph	k	[k/x]
ל	lāmadh	l	[l]
מ/ם	mim	m	[m]
נ/ן	nun	n	[n]
ס	semkath	s	[s]
ע	ʿē	ʿ	[ʕ]
פ/ף	pē	p	[p/f]
צ/ץ	ṣādhē	ṣ	[sˤ]
ק	qoph	q	[q]
ר	rēsh	r	[r]
ש	shin	sh	[ʃ]
ת	tau	t	[t/θ]

Created by Simon Ager, Omniglot.com – the guide to writing systems and languages

شكل (٢) يوضح الأشكال المختلفة للحروف الآرامية



شكل (٣) يوضح رسم الحروف الألفبائية

٢/٣ أصل الكتابة العربية

إن الوقوف بصورة يقينية قاطعة على نشأة الكتابة بوجه عام ومبدأ أمرها منذ تلك العصور الغابرة المبهمة أمرٌ لا يمكن التحقق منه بحال، حيث يتعذر البحث العلمي عن معرفة ذلك يقينًا، بل يجده مستحيلًا، لأن الفترة الزمنية المنصرمة غير محددة المعالم وغير معروفة على وجه التحديد، ومن ثمَّ تضاربت أقوال المؤرخين والباليوجرافيين (علماء الخط) حول أصل الكتابة ومنشأها ابتداءً. أما بالنسبة للكتابة العربية، فإن الباحث في قصة نشأتها وانتشارها عبر تاريخ سكان منطقة الشرق الأوسط من بلاد الشام شمالًا، إلى اليمن جنوبًا، ومن أطراف الخليج العربي والعراق شرقًا، إلى أرض سيناء ومصر غربًا، ليجد أن هذه الكتابة قد مرت بمراحل تاريخية عبر حضارات متعددة، تداولت على هذه المناطق تباعًا، حتى جاء الإسلامُ وهذه الكتابة على تلك الحال من البدائية، فعمل المسلمون الأوائل على تطوير أبجديتها وإعادة ترتيبها والمنافسة في تزويقها وتهذيب حروفها إلى أن انتهت إلى الصورة الهجائية في الرسم والنقط والإعجام التي هي عليه الآن.

وإن مدار السؤال الذي شغل الباحثين من قبل: أن الكتابة العربية قد نشأت وتطورت في سياق تاريخي ما، ولكن:

- كيف نشأت هذه الكتابة؟
- وكيف تطورت؟
- ومن أصحاب الفضل في ذلك؟
- وما الأقلام العربية التي كُتب بها؟
- وهل أثَّر هذا التطور الحاصل للكتابة أو الخط العربي على إخراج الكتاب العربي الإسلامي في صدر الإسلام والعصور الوسطى بشكل ما؟

وعلى أي حال، فبين يدي الباحث العلمي هنا نوعان من الأدلة أو القرائن الأساسية:

١ ـ الأدلة النقلية (النظرية): ويقصد بها الكتابات التراثية حول نشأة الخط العربي وتطوره وأشكاله وأنواعه. وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة تعتمد في الأعم الأغلب على الافتراضات والاجتهادات والآراء المتوارثة من غير تحقيق علمي. وإذا كانت هذه الأخبار تحمل قدرًا كبيرًا من الصحة من حيث النقل!، فإنها تحتمل قدرًا أكبر من الرفض من جهة إعمال العقل؛ فقد يُقبل الخبر والرواية نقلًا ويُرفض ويُستبعد ويُقوض عقلًا، حيث تبدو هذه الفئة من الأدلة النقلية المعتمدة على الدلائل النظرية غير مقبولة عقلًا؛ لأنها تستند إلى أسس دينية غيبية أو أسطورية تنسب اختراع الكتابة إلى شخص أو مجموعة أشخاص، رغم أنها صناعةٌ حضارية.

٢ ـ الأدلة العقلية (المادية): ويقصد بها الأصول المادية الأثرية التي عُثر عليها، مما كتب عليه من حجر أو نحاس أو نسيج أو رَقٍّ أو ورق بردي أو شواهد قبور وغيرها. وهذه الأدلة العقلية تمثل لنا الضابط الذي سوف نعتد به في سياق رحلة الكشف عن قصة الكتابة العربية نشأةً وتطورًا.

٢/٤ نظريات نشأة الكتابة العربية

في واقع الأمر هناك من الباحثين وعلماء الآثار والباليوجرافيا من يُقسم نظريات نشأة الكتابة العربية إلى أربع نظريات هي: نظرية التوقيف، النظرية الجنوبية، النظرية الشمالية، النظرية النبطية. ولكني رأيت طرح ذلك التقسيم جانبًا، وإقرار التقسيم المذكور بالصفحات التالية وفقًا لاجتهادات بعض العلماء المتخصصين؛ ذلك أنه يبدو أكثر وجاهةً ودلالةً وأقوى من الناحية العلمية، وأسهل في التلقي والاستيعاب.

٢/٤/١ نظرية التوقيف

١) منطوق النظرية:

تعد نظرية التوقيف نظرية عربية قديمة. ومنطوقها أن: الكتابة العربية توقيفية؛ يعني أن الله تعالى أوقف الإنسان على معرفتها وتعلمها، وأنها ليست من صنع البشر على الإطلاق.

٢) أدلة النظرية:

جاء في صبح الأعشى للقلقشندي ما يلي:

ـ أن أول من وضع الخطوط والكتب كلها هو آدمُ عليه السلام، كتبها في طين وطبخه قبل موته بنحو ٣٠٠ سنة، فلما أظل الأرضَ الغرقُ أو الطوفان على عهد نوح عليه السلام أصاب كلُ قوم كتابتهم، وبالتالي أصاب العربُ خطهم العربي.

ـ أن الكتابة أنزلت على آدم عليه السلام في ٢١ صحيفة.

ـ أن أول من خط بالقلم بعد آدم إدريس عليه السلام.

ـ أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من وضع الكتابة العربية.

٣) مدى صحة النظرية:

يفهم من هذه النظرية المستندة إلى النقل المتواتر أن الكتابة بصفة عامة والكتابة العربية بصفة خاصة توقيفية الوضع، لا دخل للبشر فيها، وأن نفرًا من الأنبياء والمرسلين قد أوقفوا عليها من قبل الله تعالى. ولكن هذا الرأي لا تؤيده القرائن العقلية وإن صح النقل، ولا يتعارض هذا الأمر مع ما هو ثابت من أن الله تعالى قد علم آدم عليه السلام الأسماء كلها عندما خلقه وبث فيه روحه؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، ولكن الملائكة لم تستطع أن تنبأ بأسماء الأشياء، أما آدم عليه السلام فقد أوقفه الله على تعلم أسماء الأشياء المختلفة، فأنبأ بها تباعًا، كما ذكرت الآيات القرآنية الكريمة في هذا المعنى. وعلى هذا، فقد اتفق جمعٌ غفيرٌ من أهل العلم على أن الأسماء (أسماء الأشياء) كلها توقيفية؛ بمعنى أن الله تعالى خلق لآدم علمًا ضروريًا بمعرفة الألفاظ والمعاني وأن هذه الألفاظ موضوعة لتلك المعاني.

من يتأمل النصوص التي وردت في الكتب العربية القديمة، سيجد أن نظرية التوقيف قد جاءت عند الحديث عن جل الكتابات القديمة، ولم تستأثر بها الكتابة العربية وحدها دون غيرها، ما يكشف عن أنها كانت تراثًا شائعًا في ذلك الوقت، وخاصة في زمن الدولة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ).

رغم شيوع هذه النظرية بين المسلمين في القرون الأولى للهجرة، إلا أن هناك من العلماء من رفضها لتعارضها مع العقل والمنطق، كابن خلدون (٨٠٨ هـ) حين ذكر أن الخط من جملة الصنائع المدنية وأنه يعد ضرورةً اجتماعيةً، اصطنعها الإنسان ورمز بها للكلمات المسموعة، حيث تأتي الكتابة في المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية، وشأنها في ذلك شأن الصناعات المعيشية في التقدم والرقي، ولهذا فإن الكتابة تنعدم مع البداوة وتكتسب بالتحضر.

إذن: يثبت ضعف هذه النظرية، لعدم استنادها إلى أساس علمي مقبول. وعلى هذا، فالكتابة العربية ليست بتوقيفية الأصل.

٢/٤/٢ نظرية الوضع أو الاصطلاح

١) منطوق النظرية:

تعد نظرية الوضع النظرية الثانية التي قال بها العرب القدماء في تفسير نشأة الكتابة العربية. ويعتمد أصل هذه النظرية على أن الكتابة تعد اختراعًا أو إبداعًا إنسانيًا احتاج إليه الإنسان في ظل التطورات الطارئة على أمور حياته، فهي إذن متطلب حضاري بالدرجة الأولى، قام حينما قامت الحاجة إليه، وإن تعذرت أسبابه من أدوات يكتب بها أو عليها في بادىء الأمر، إلا أنها صارت ميسورةً فيما بعد. وكذا تؤكد هذه النظرية أن شخصًا ما أو عددًا من الأشخاص قاموا باختراع الكتابة أو بوضع الحروف أو الرموز المعبرة عن الألفاظ.

٢) أدلة النظرية:

استندت هذه النظرية إلى عددٍ من الروايات المختلفة:

• الرواية الأولى: تقول أن الخط نشأ في الحجاز، وأن نفرًا من أبناء سام بن نوح عليه السلام نزلوا الطائف، حيث كانوا أول من كتب بالعربية ووضعوا حروف المعجم (أ ب ت)، وهي ٢٩ حرفًا. ولكن هذه الرواية لا تستند إلى حقيقة يقبلها العقل ويؤيدها الدليل المادي الملموس؛ فهي مجرد أخبار منقولة.

• الرواية الثانية: تقول أن أول من كتب بالخط العربي هم ستة أشخاص من ملوك اليمن، هم: أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت، حيث وضعوا الكتب على أسمائهم، فلما وجدوا حروفًا في الألفاظ ليست من أسمائهم، ألحقوها بها وسموها الروادف، وهي حروف كلمتي: ثخذ ـ ضظغ. وقد قيل أن هؤلاء ملوكٌ في الحجاز حيث كان (أبجد) ملكًا على مكة وما جاورها و(هوز) كان ملكًا على

الطائف وأما (كلمن وسعفص وقرشت) فكانوا ملوكًا في مدين. ويبدو أن هذه الرواية تمثل ضربًا من الأساطير؛ إذ أن حروف (أبجد هوز) هي الترتيب القديم عند الأمم السامية[1] وليست بأسماء ملوك، وقد أريد بهذه الألفاظ جمع الحروف في كلمات، وكان هذا الترتيب الأبجدي معروفًا في صدر الإسلام كذلك.

• الرواية الثالثة: تقول أن ثلاثة أشخاص من العرب من طيء (قبيلة عربية قحطانية يمانية الأصل)، وضعوا الخط وقاسوه على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قومٌ من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار. وهؤلاء النفر هم: مرارة بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة. وكذا، تؤكد تلك الرواية أن أصل الخط العربي ينسب إلى الحيرة أو إلى الأنبار.

٣) مدى صحة النظرية:

تشير الروايات السابقة إلى الكتابة العربية باعتبارها صناعة بشرية أو ابتكار احتاج إليه الإنسان في حياته، إذ جاء هذا الابتكار في سياق التطور الحضاري الذي تقلب فيه بنو البشر عبر العصور المختلفة، وأنه متطلب ضروري لإقامة الحياة الإنسانية، في حين أن تلك الروايات تنفي أن تكون الكتابة العربية مجرد توقيف إلهي منحه الله تعالى للإنسان. ورغم كل ذلك، فإن هذه الروايات يعتريها قدرٌ كبيرٌ من المصداقية والصحة، كما يشوبها قدرٌ أكبر من الجهل والتلفيق، يدخلها في إطار الأساطير والقصص التاريخية، ما يجعلنا نقطع بسقوط هذه النظرية وعدم قبولها على المستوى العقلي. إذن: الكتابة العربية ليست بوضعية أو اصطلاحية الأصل.

(١) السامية: مصطلح علمي اقترحه عالم اللاهوت الألماني النمساوي شلوتزر Scholzer عام ١٧٨١م، لتكون عَلَمًا على عدد من الشعوب التي أنشأت في هذا الجزء من غرب آسيا حضاراتٍ ترتبط لغويًا وتاريخيًا، كما ترتبط من حيث الأنساب، والتي زعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، بعدما نجا من حادثة الطوفان هو وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافث. وقد شاعت هذه التسمية وأصبحت عَلَمًا لهذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من علماء الغرب والعرب كذلك.

٢/٤/٣ نظرية الاشتقاق والتطور

١) منطوق النظرية:

من الممكن القول أن منطوق هذه النظرية يفهم من خلال إطارين أحدهما عام والآخر خاص. وهما:

الإطار العام: تؤكد النظرية أن الكتابة بصفة عامة ليست توقيفًا أو ابتكارًا، بل هي اشتقاق أو تطويرٌ عن كتابات أخرى سابقة عليها في الزمان.

الإطار الخاص: تؤكد النظرية أن الكتابة العربية ليست توقيفًا أو ابتكارًا، بل هي اشتقاق أو تطويرٌ عن كتابات أخرى سابقة عليها في الزمان، بحيث اختفت هذه الكتابات الأخرى، وربما انقرضت وبقيت الكتابة العربية قائمةً بذاتها. ومن ثم، فإن حركة تطور الكتابة العربية واشتقاقها لا يمكن أن تُعزى مجردًا إلى فرد بعينه، وإنما هى حركة حضارية واسعة مرت عبر أجيال متعاقبة.

٢) أدلة النظرية:

مجموعة من النقوش الكتابية القديمة التي عثر عليها في مناطق متفرقة من بلاد العرب، لتحكي لنا قصة الكتابة العربية. وسوف يخصص فصل كامل للحديث عن هذه القرائن المادية بمشيئة الله تعالى.

٣) مدى صحة النظرية:

لقد ثبتت صحة هذه النظرية منذ مطلع القرن العشرين استنادًا إلى عددٍ من القرائن المادية الملموسة التي يقبلها العقل، دون الاكتفاء بمجرد النظر في القرائن النقلية التي حوتها الروايات والأخبار والتراثيات المنقولة. ولكن وجه الاختلاف الحقيقي بين أهل النظر وعلماء الكتابة أو الباليوجرافيين يتمثل في الأصل الذي تعود إليه الكتابة العربية، على نحو ما سيأتي طرحه في الصفحات التالية بشيء من التفصيل.

٢/٥ النظريات المنبثقة عن نظرية الاشتقاق والتطور

من الطريف أنه قد دار حول هذه النظرية عددٌ من التصورات المختلفة لعلماء العرب قديمًا، اعتمادًا على الروايات المتوافرة بين أيديهم (القرائن النقلية) ولعلماء العرب المعاصرين والمستشرقين كذلك، اعتمادًا على النقوش الكتابية القديمة التي تم العثور عليها (القرائن العينية المادية)، حيث برزت الحاجة العلمية إلى التحليل الباليوجرافي الدقيق لتلك النقوش الكتابية، من أجل محاولة قراءتها وتفسيرها والكشف عن علاقتها أو نسبتها إلى الكتابة العربية، ومحاولة الوقوف على وجه الشبه بين تلك الكتابات القديمة وبين الكتابة العربية موضوع هذا القسم من الكتاب، وكيف أن الكتابة العربية قد اشتقت من كتابة سابقة عليها. وسوف أتناول هذه النظريات بشكل موجز ومركز على النحو التالي:

٢/٥/١ النظرية الحميرية الجنوبية

من الروايات العربية القديمة حول اشتقاق الخط العربي وأصله أنه اشتق من الخط المسند الحميرى، وقد أطلق عليه اسم خط الجزم لأنه جزم أو اقتطع من المسند الحميرى. ويقول ابن خلدون في مقدمته في صفة الخط الجنوبي المسند هذا أنه كان «بالغًا مبلغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التتابعة، لِمَا بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة، ولقنه أهل الطائف وقريش».

ويُرد هذا الرأي إلى أن بلاد اليمن قد فرضت سلطانها السياسي على بعض البلاد العربية الشمالية في حكم دولتي سبأ وحمير خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، ما جعل البعض يرى أنها فرضت سلطانها الثقافي أيضًا، ومن بينه: اللغة أو الكتابة الحميرية، إذ كانت هذه اللغة تعتمد في الكتابة على قلمين في تدوين المعاملات التجارية، هما: القلم المسند والقلم المشتق من المسند، واللذان

دونت بهما النصوص الثمودية والصفوية واللحينية، وقد وجدت نصوص بهذه الخطوط في منطقة شبه الجزيرة العربية، نتيجةً للعلاقات السياسية والتجارية بين العرب في الجنوب والشمال.

ولكن هذا الرأي مرفوضٌ، لا تعززه الدراسات الباليوجرافية التحليلية في العصر الحديث. ومن الأدلة التي يقدمها الباحثون ردًا على هذا الرأي وتقويضًا له ما يلي:

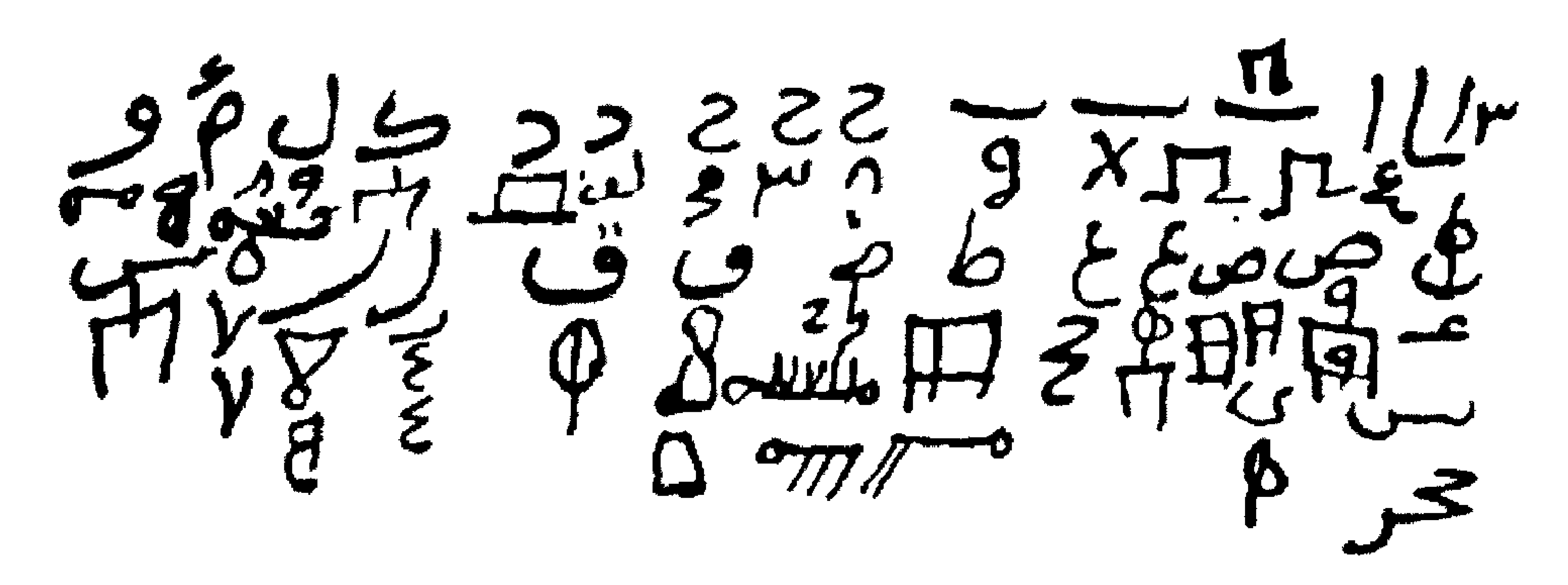
- أن حروف الخط الحميري تكتب منفصلة غير متصلة.
- تختلف الحروف الحميرية في أشكالها عن أشكال الحروف العربية؛ فليس هناك حروف متشابهة معًا إلا حرف الراء.
- أن اتجاه الكتابة في المسند لم يلتزم اتجاهًا واحدًا كما هو الحال في العربية (من اليمين إلى اليسار)، بل قد يكون الأمر، في كثير من الأحيان، عكس ذلك أو قد يمزج بين الطريقتين؛ كأن يبدأ الكلام من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين، وهكذا. ولكن، في حقيقة الأمر، لم يتم الاتفاق على اتجاه معين للكتابة، إلا بعد أن بلغت مرحلةً متقدمةً من الرقي والنظام، ولذلك كان الأولون يكتبون أنى اتفق، ولا يسيرون وفق نظام معين لاتجاه السطور، فكان قدماء اليونان يكتبون تارةً من اليسار إلى اليمين، وتارةً من اليمين إلى اليسار، وربما جمعوا بين الأسلوبين، ولكن لما علا شأن الكتابة واستقر أمرها وأخذت في التطور والرقي عند الأمم، اتخذ كل أمة طريقًا مخصوصًا في كيفية سيرها أو اتجاهها؛ فبالنسبة للشعوب الصينية، فتكتب من الأعلى إلى الأسفل، ومن اليمين إلى اليسار على السطر الرأسي. أما الشعوب الأوربية، فتكتب من اليسار إلى اليمين. أما العرب والشعوب السامية، فيكتبون من اليمين إلى اليسار على السطر الأفقي. ومن الطريف أن هناك من حاول التعليق على التوجهات المختلفة لتلك الأمم والشعوب نحو الكتابة من أية جهة، مستبصرًا الفلسفة الكامنة وراء ذلك.

ولم يكن هذا المقام محلًا لعرض تلك التصورات والرؤى الفلسفية المختلفة، إلا أن خلاصة القول هنا: أن العبرة بالتماس السهولة والسرعة في الكتابة سواء كان الاتجاه أفقيًا من اليمين إلى اليسار، أو العكس، أو رأسيًا من أعلى لأسفل.

• أن النقوش الحميرية الجنوبية لم تتجاوز بلاد مدين، حيث امتداد سلطان اليمن السياسي نحو الشمال، وإن ظهور هذه الكتابات كان واحدًا من آثار الاستعمار اليمنى لديار الثموديين والصفويين واللحينيين في الشمال، وزال هذا الاستعمار بانتهاء حضارة اليمن.

شكل (٤) خطوط ثمودية

شكل (٥) أبجدية المسند العربية (بن النديم. في كتابه الفهرست)



شكل (٦) أبجدية المسند العربية (الهمذاني. في كتابه الإكليل، ٩٤٥م)

جدول (١) أشكال حروف المسند والحروف النبطية

الحرف	نبطي	عربي جزم	عربي مسند: صفوي	عربي مسند: ثمودي	عربي مسند: لحياني	عربي مسند: سبأي	متصل
ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ث	N/A	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
خ	N/A	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ذ	N/A	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ض	N/A	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ظ	N/A	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
غ	N/A	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ه	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

٢/٥/٢ النظرية السريانية الشمالية

تنسب هذه النظرية الحديثة إلى الأبوين ميليك وستاركي (١٩٦٣م)، استنادًا إلى عددٍ من النصوص التاريخية القديمة التي ذكرها هشام بن محمد السائب الكلبي والبلاذري وابن النديم وياقوت الحموي، ومن نقل عنهم؛ مثل ابن خلدون

والقلقشندي والمقريزي، فضلًا عن الأدلة المادية التي عرضها ستاركي، لتؤكد وجه الشبه بين الخط السرياني الأسطرنجيلي والخط العربي القديم. وكان دليله أن هذه الخطوط العربية القديمة وجدت في بلاد الشام بعد انقراض الدولة النبطية بعدة قرون، واستدل ـ من أجل تأييد وجهة نظره ـ على الشبه الظاهري بين الخطين السرياني والعربي القديم. وكذا، يدور الرأي في هذه النظرية حول أن الخط العربي قد اشتق من الكتابة السريانية، فقد أكد عددٌ من المستشرقين هذا الرأي، إذ يرون:

• أن المسيحية قد انتشرت في تلك المنطقة العربية في القرن الثالث الميلادي، وساعدت بدورها على انتشار الكتابة.

• وأن الكنيسة فسحت المجال لأتباعها من الشعوب المختلفة في استعمال لغتهم الأصلية في الطقوس الكنسية.

• وأن هناك تشابهًا قائمًا بين القلم العربي والقلم السطرنجيلي (وهو أحد ضروب القلم السرياني، يتميز بالتضليع والميل نحو اليبوسة).

وبناءً على هذا، ذهب البعض جملةً إلى أن الكتابة العربية اشتقت من الكتابة السريانية، ولكن هذا الزعم قد باء بالرفض والترك لدى عدد كبير من المستشرقين الذين يرون أن الخط العربي لم يشتق من الكتابة السريانية، وإنما اشتق من خط آخر.

وثمَّ تفنيدٌ موجزٌ حول تلك المسألة؛ إذ لا شك أن هناك علاقةً أو تشابهًا واضحًا وملحوظًا بين القلمين العربي والسرياني، والسبب في هذا هو انحدار كلا القلمين من أصل واحد؛ وهو الخط الآرامي، الذي تحدر منه الخطان: السرياني والنبطي، ومن النبطي تحدر الخط العربي، وفقًا للتحليلات الباليوجرافية في العصر الحديث. وعلى هذا، فكلا القلمين العربي والسرياني يلتقيان معًا في الخط الآرامي. ورغم ذلك الشبه الكبير، إلا أن هذا لا ينفى الاختلافات بين القلمين؛ فإن معظم الحروف العربية تختلف في أشكالها عن الحروف السريانية والسطرنجيلية، وبمقارنة الخط

العربي بنظيره السرياني توصل الباحثون إلى عدم الصلة بين الخطين بالجملة. أما بالنسبة للخط الآرامي، والذي يمثل أصلًا للخطين العربي والسرياني، فيقال أنه تولدت منه ستة خطوط هي:

١ ـ الخط الهندي بأنواعه.

٢ ـ الخط الفارسي القديم (الفهلوي)[١].

٣ ـ الخط العبري المربع.

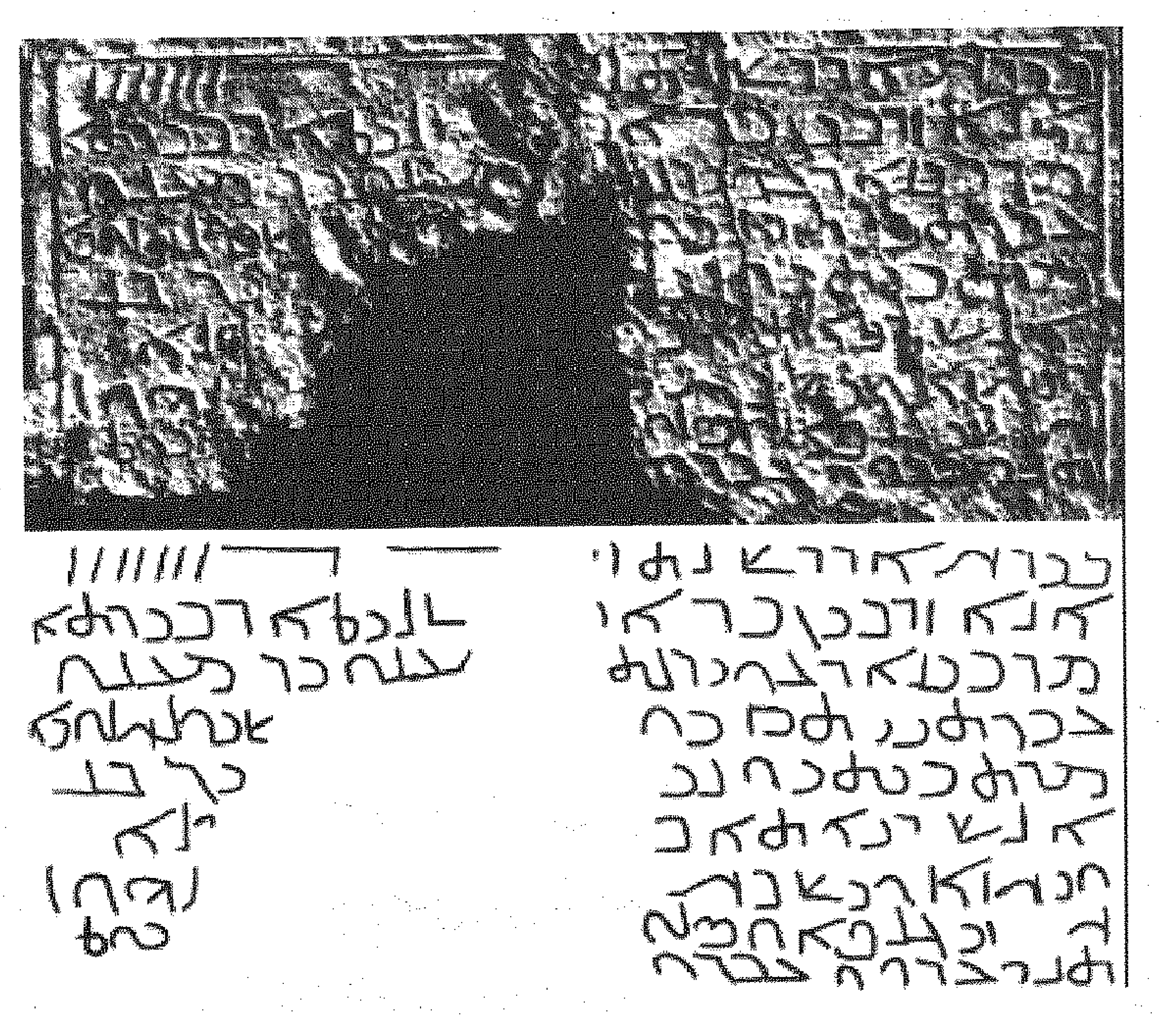
٤ ـ الخط التدمري.

٥ ـ الخط السرياني.

٦ ـ الخط النبطي (ومنه اشتق الخط العربي).

---

(١) نسبةً إلى (فهلا) وهي المنطقة التي توجد فيها أصفهان وهمدان وأذربيجان والري من بلاد فارس القديمة.



شكل (٧) أقدم نقش سرياني مكتشف (سنة ٦ م)

٢/٥/٣ النظرية النبطية الحديثة

يذهب أصحاب هذا الرأي ـ وهو أرجح الآراء العلمية الثابتة حتى الآن ـ إلى اشتقاق الخط العربي مباشرةً من الخط النبطي. ويتفق على هذا الرأي عددٌ كبير من الباليوجرافيين العرب المعاصرين والمستشرقين، بل إن ابن النديم نفسه يذكر في كتابه الفهرست أن الله تعالى خاطب آدم باللسان النبطي! ـ والله أعلم. ورغم ما تحتمله تلك الرواية المنقولة من ريبة وشك لمن يقرأها أو يسمعها، فإن الدراسات التحليلية لعلماء الخط قد أفصحت، وبدرجة قوية، عن وجود صلة بين الخط العربي والخط النبطي، حيث اشتق عرب الشمال خطهم من آخر صورة انتهى إليها الخط النبطي.

إذا تأسس هذا لدينا، فإننا نكون قد وقفنا إلى حدٍ ما على حقيقة علمية حول أصل نشأة الكتابة العربية، وكيف أنها أخذت سبيلها في الاشتقاق، لا التوقيف

الإلهي حسب النظرية الأولى، ولا الاختراع البشري حسب النظرية الثانية، وإنما الاشتقاق والتطور حسب النظرية الثالثة، حيث اشتُقت من الكتابة النبطية بكيفية معينة، وأخذت في التطور والرقي إلى حيث نبصرها نحن في حياتنا اليومية قراءةً وكتابةً.

٢/٦ مناقشة النظرية النبطية الحديثة

تؤكد الدراسات الحديثة أن هناك عددًا من النقوش المكتوبة بالخط النبطي، توضح لنا كيفية تطوره إلى مرحلة من المراحل الأولى للخط العربي ذاته. ويبدو أن الخط العربي كان يستخدم بصورته الأولى في الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية (الحيرة والأنبار)، ثم وصل إلى الحجاز وقبيلة قريش أثناء القرن السادس الميلادي. ولم يتحرر الخط العربي من الخط النبطي وخصائصه إلا بعد قرنين من الزمان، ومن المرجح أن تكون الكتابة المشتقة من النبطية قد وجدت سبيلها إلى بلاد العرب؛ إما عن الطريق الدائري من حوران ـ إحدى مناطق الأنباط ـ إلى وادي الفرات، حيث بلاد الحيرة والأنبار، ثم إلى دومة الجندل فالمدينة ومكة والطائف، أو عن طريق ديار النبط في البطراء (البتراء) فشمال الحجاز ثم المدينة ثم مكة.

وسواء كانت رحلة الخط العربي والكتابة العربية على هذا الطريق أو ذاك، فالثابت أنها تمت بين منتصف القرن الثالث الميلادي إلى نهاية القرن السادس الميلادي، وهو الوقت الذى تم فيه تحول الخط العربي من صورته النبطية الخالصة إلى صورته العربية التي نراها الآن.

والذى يؤكد نظرية اشتقاق العرب خطهم من الكتابة النبطية وجود العلاقات التجارية الهامة التى كانت بين بلاد النبط والحجاز، وبالتالي ليس بعيدًا أن تكون الكتابة قد وصلت إلى عرب الحجاز مع قوافل التجارة التى كان يمارسها أهل قريش واليهود مع الأنباط، وقد تكون رحلات الشتاء والصيف قد أفادت العرب

فائدة ثقافية كبرى إلى جانب إفادتهم من الناحية المادية. فعند قيام العرب برحلاتهم إلى بلاد الشام كان عليهم المرار بالديار النبطية، فساعد ذلك على وجود احتكاك بين العرب والنبط في كثير من الأمور كاللغة والخط.

وهكذا نصل إلى أن الخط العربي قد اشتق من الخط النبطي وتطور عن الآرامية وتطورت عن الفينيقية وتطورت عن السينائية وتطورت عن الهيروغليفية، عن ذلك التطور نجد أن الأنباط قد اشتقوا خطهم من الشعب الآرامي الذي استقر في مناطق واسعة من سورية والعراق، واشتق الآراميون لغتهم نتيجة للصلات مع الفينيقيين الذين استقروا على ساحل البحر المتوسط، ثم نجد أن الكتابة الفينيقية قد تأثرت بدورها بالرسوم التصويرية المصرية التي وجدت في سيناء، وأن الكتابة السينائية هي حلقة الوصل بين الفينيقية والمصرية القديمة، والكتابة السينائية تعتبر آخر شكل من أشكال الكتابة المصرية القديمة وهي الكتابة الديموطيقية. وبذلك نكون قد وصلنا إلى نهاية رحلة نشأة الكتابة العربية والخط العربي. والمخطط المذكور بالصفحة التالية يعبر عن الرأي القائل باشتقاق الكتابة العربية من الكتابة النبطية، والتي تطورت بدورها عن الكتابة الآرامية على مدى ثلاثة قرون من الزمان.

ʾ b g d h w z ḥ ṭ y k

l m n s ʿ p ṣ q r š t

شكل (٨) الحروف الآرامية



شكل (٩) يوضح مواقع الكتابات العربية قبل الإسلام

الكتابة الهيروغليفية (٤٠٠ ق.م) ← كتابة تصويرية

↓ ↓

الكتابة السينائية (٢٥٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م) ← حلقة الوصل

↓ ↓

الكتابة الفينيقية (١٥٠٠ ق.م) ← كتابة أبجدية

↓

الكتابة الآرامية (١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م)

↓

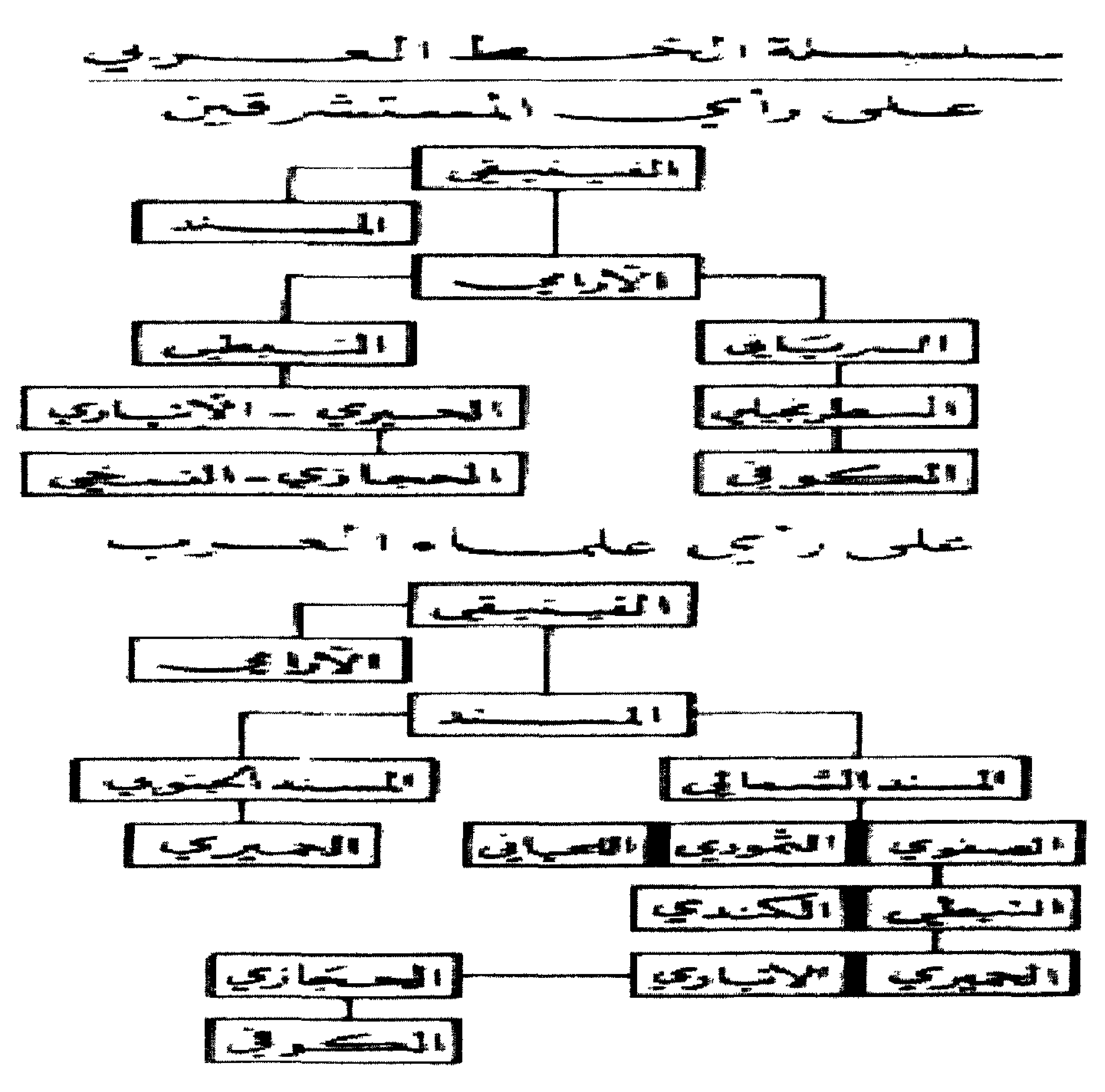
الكتابة النبطية (٥٠٠ ـ ٢٠٠ ق.م)

↓

الكتابة العربية (٢٠٠ م ـ ٦٠٠ م)

عربي جزم	
عربي مسند	
فينيقي	
آرامي	
اغريقي قديم	

شكل (١٠) بعض الأبجديات القديمة



شكل (١١) اشتقاق الخط العربي عند رأي المستشرقين والعرب

٢/٧ موجز تاريخ الأنباط

النبط أو الأنباط قبائل عربية نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية، حيث عاشوا في الحافة الجنوبية الشرقية من منطقة الهلال الخصيب[١] (وهي المنطقة المعروفة اليوم بالأردن وجنوب سورية وشرق فلسطين وشمال غرب الجزيرة العربية).

حكم الأنباط تلك المنطقة لمدة ثلاثة قرون، منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وحتى القرن الثاني الميلادي، وتحديدًا في سنة ١٠٥ أو سنة ١٠٦م، على خلاف بين المؤرخين حول هذا التاريخ، إذ هزمهم الرومان واستولوا على قسم من مملكتهم.

تميز موقع دولة الأنباط بأنه كان في ملتقى الطرق التجارية، ما مكنهم من السيطرة على تلك الطرق فازدهرت دولتهم، وكانت لهم حاضرتان أو عاصمتان:

١. سُلع (أو البتراء) في الشمال[٢].

٢. مدائن صالح (أو الحجر) في الجنوب.

وكان الآراميون من أقرب الشعوب المتحضرة مكانًا إلى الأنباط، فتأثر النبط بالحضارة الآرامية وأخذوا عنهم الكتابة، وطوروا لأنفسهم حضارة جديدة عرفوا بها.

لقد قامت دولة الأنباط على أساس السيطرة على طرق القوافل التجارية، كما

---

(١) الهلال الخصيب: مصطلح جغرافي أطلقه عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد على المنطقة الواقعة على ضفاف نهري دجلة والفرات والجزء الساحلي من بلاد الشام، حيث كانت هذه المنطقة محط العديد من الحضارات القديمة ومحلًا لنشأة الكتابة العربية. المصطلح يعرّف الآن بمناطق بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين؛ العراق وسورية القديمة. وقد سميت هذه المنطقة بالهلال لأنها تشبه الهلال الذي يبدأ في سهول جنوبي العراق ويمتد باتجاه الشمال الغربي نحو شمال سورية ثم نحو الجنوب والجنوب الغربي ليشمل فلسطين وشمال غربي الأردن.

(٢) تقع في وادي موسى (مدينة بالأردن). وكان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم: بترا Betra.

قامت حضارتهم على التجارة والزراعة، فدعت الحاجة إلى الكتابة إذن، فكتبوا بالحروف الآرامية، ثم طوروا الخط الآرامي وولدوا منه الخط النبطي.

وما زال الخط النبطي آخذ في التطور حتى ابتعد عن الخط الآرامي، وصار يشبه إلى حد كبير الكتابة العربية الجاهلية كما تصوره النقوش المادية القديمة.

واستمر الخط النبطي حتى القرن الخامس الميلادي، حيث بدأ يأخذ في الانحسار والتقلص ليبرز على الساحة الثقافية دور الكتابة العربية والخط العربي، كما تصوره النقوش الكتابية التي سوف نتناولها لاحقًا؛ إذ تشبه صورة الكتابة العربية الجاهلية إلى حد كبير صورة الكتابة النبطية في آخر مراحلها.

ولما كان عرب الأنباط أكثر تحضرًا من عرب الحجاز، فقد أخذوا منهم ثقافتهم وطريقتهم في الكتابة، وذلك بسبب الاتصال المباشر ببعضهم أثناء رحلات أهل الحجاز المستمرة إلى بلاد الشام مرورًا بأرض النبط.

الفصــل الثالث

نشأة الكتابة العربية

القرائن المادية

٣/٠ تمهيد

يبحث هذا الفصل بحثًا باليوجرافيًا متأنيًا مركزًا في بعض القرائن المادية العينية المتمثلة في النقوش الكتابية القديمة Ancient Inscriptions التي عثر عليها علماء الخط في العصر الحديث في أماكن جغرافية متفرقة من أنحاء بلاد العرب، وترجع إلى الفترة الزمنية ما بين القرنين الميلاديين الثالث والسادس، لتؤكد لنا بدورها طبيعة العلاقات الباليوجرافية القائمة بين كلٍ من الخطين النبطي والعربي، وكيف أن هذا الأخير قد أخذ صورته من ذاك الأول.

٣/١ منهجية قراءة النقوش الكتابية محل الدراسة

تتلخص منهجية قراءة النقوش الكتابية محل الدراسة فيما يلي:

١. معلومات عن النقش: تحوي هذه الفقرة بعض المعلومات الخاصة بالنقش، من حيث: مسماه، ومن عثر عليه، ومتى وأين عثر عليه، وطبيعة الكتابة المدونة على النقش وبأي خط كتبت.

٢. القراءة الباليوجرافية للنص: يتم قراءة النص قراءةً باليوجرافيةً، مصحوبًا

بالنقط الإعجامية المميزة للحروف عن بعضها البعض، كي تتضح دلالة النص، من غير تدخل في عباراته القديمة.

٣. تفسير النص: يتم هنا تفسير النص وتقريبه إلى الأذهان بلغة عربية فصيحة، حتى تفهم دلالات الكلمات القديمة التي باتت تشكل صعوبةً في فهم ما تشير إليه من معان.

٤. الضبط اللغوي للنص: تُعنى هذه الفقرة بإضافة بعض الحركات الإعرابية إلى النص محل القراءة، حتى يمكننا قراءته على وجه أفضل، إذ يفتقد النص القديم حظه من الشكل (بمعنى التشكيل) والإعجام (بمعنى إضافة النقط إلى الحروف).

٥. وجه أهمية النقش: هنا يتم مناقشة أهمية هذا النقش من مختلف النواحي؛ سواءٌ من الناحية العلمية أو التاريخية أو الباليوجرافية أو اللغوية أو الاجتماعية.

٢/٢ نقش أم الجمال الأول (٢٧٠م)

١ ـ معلومات عن النقش:

هذا النقش عبارة عن شاهد قبر، عثر عليه المستشرق ليتمان في قرية أم الجمال الواقعة بجنوب حوران، على طريق القوافل إلى دمشق. وقد كتب النص العربي بهذا النقش بالخط النبطي المتأخر، والذي تبدو فيه ملامح الخط العربي القديم، كما أن فيه كلمات عربية. ويرجع هذا النقش إلى منتصف القرن الثالث الميلادي (سنة ٢٥٠م)، وهناك من أرخه في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي (وتحديدًا في سنة ٢٧٠م)، لأن النقش نفسه غير مؤرخ، ذلك أن جذيمة المذكور في النص المضمن بالنقش هو حتمًا جذيمة الأبرش، أحد ملوك الحيرة التنوخيين الذي حارب زنوبيا، ملكة تدمر، كما سيأتي بيانه فيما بعد عند الحديث عن النواحي التاريخية المرتبطة بمحتوى النقش.

شكل (١٢) (نقش أم الجمال الأول المؤرخ سنة ٢٧٠م)

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

ـ السطر الأول: (دنه نفشو فهرو).

ـ السطر الثاني: (بر سلي ربو جديمة).

ـ السطر الثالث: (ملك تنوخ).

٣ـ تفسير النص:

ـ دنـــه: هذا، اسم إشارة للقريب مفرد ومذكر.

ـ نفشو: قبر أو نفس، وألحق بالكلمة حرف الواو، كما جرت به العادة في الكتابة الآرامية، وخاصةً عند كتابة أسماء الأعلام.

ـ بـر: ابن، وهي لغة عربية شمالية، ولهجة من لهجات اليمن.

ـ سلي: اسم من الأسماء الشائعة في الكتابة النبطية، ويشير أحد الباليوجرافيين إلى أن هذا الاسم مشتق من (سُليم).

ـ ربـــو: ربى أو مربي، بزيادة الواو.

ـ جذيمة: اسم علم، دال على أحد ملوك العرب.

٤ ـ الضبط اللغوي للنص:

ـ هذا نفسُ (قبرُ) فِهرُ.

ـ بن سُليم مُربي جُذيمة.

ـ مَلِكُ تَنوخَ.

٥ ـ وجه أهمية النقش:

من الناحية التاريخية، يحدد هذا النقش تاريخ بدأ استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب، كما أن هذه الكتابة تدل على الصلة التاريخية بين الأسر الحاكمة لعرب العراق وعرب الشام. إن وجود كلمة (جديمة) لملك تنوخ في النقش يدل، كما اعتقد ليتمان، على أن العرب علموا بوجود ملوك من قبائل تنوخ، ويدل على أنهم احتفظوا ببعض أسماء عظمائهم في الجاهلية.

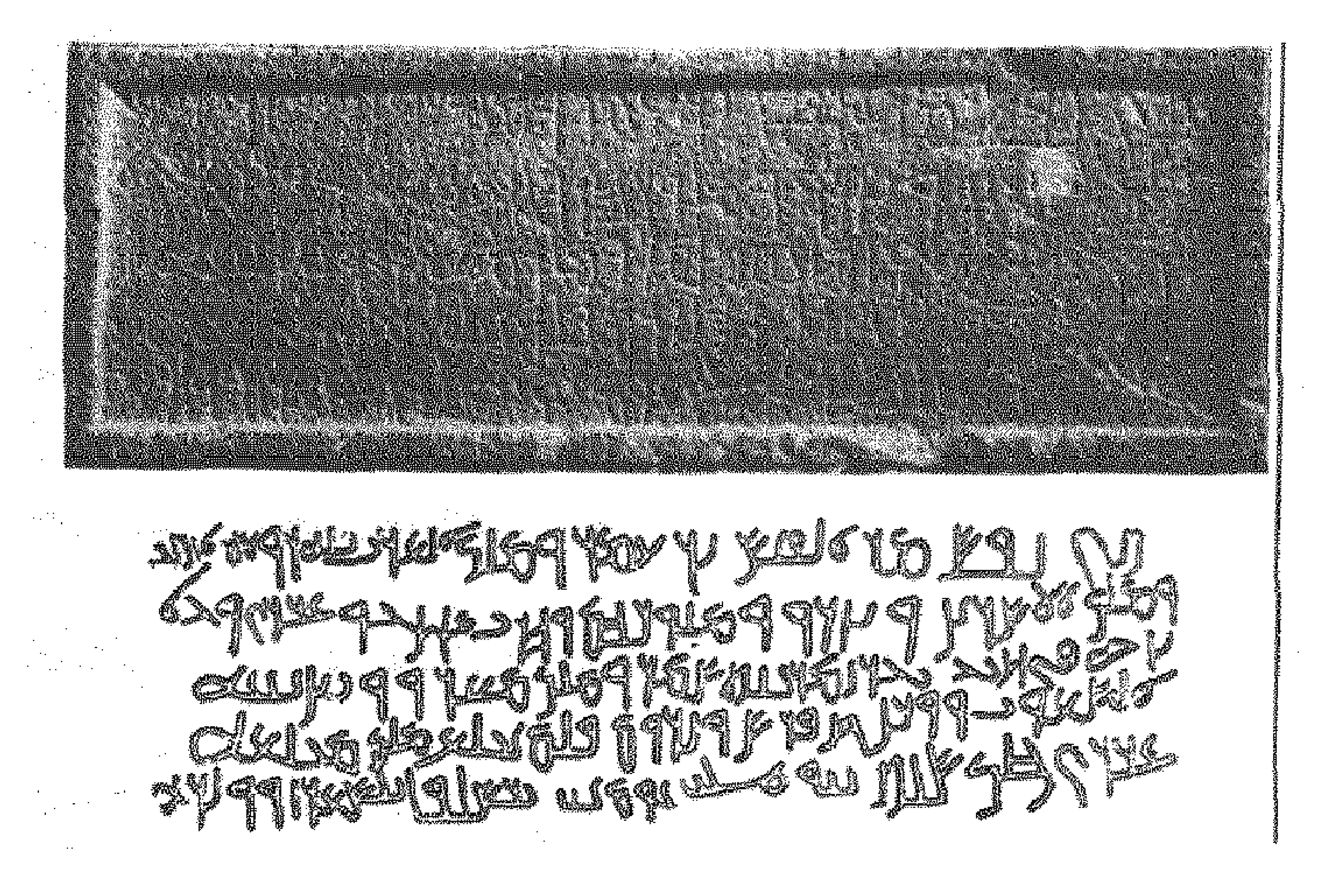
هناك دراسة جديدة للباحث العراقي الأمريكي سعد الدين أبو الحب تصحح قراءة المستشرقين للحروف النبطية لنقشي النمارة وأم الجمال الأول وتقدم عبر الأدلة الملموسة ترجمة حرفية جديدة وقراءة عربية فصحى واضحة ومتماسكة لغويا لكلا النقشين، بما يدلل بشكل قاطع على استخدام العربية الفصحى لقرون طويلة قبل الاسلام ويدحض كليًا طروحات المستشرقين من أن اللغة العربية الفصحى أو الكلاسيكية لغة مستحدثة جلبها القرآن الكريم أو إدعاء بعضهم بأنها كانت قد لفقت من قبل اللغويين العرب في عهد الخلافة العباسية.

أما بالنسبة لحجر نقش أم الجمال والذي قال المستشرقون إنه شاهد قبر لشخص اسمه «فهر بن سالي» فقد كان، حسب قراءة الباحث التصحيحية الموثقة بالصور التفصيلية لنقش الحجر، شاهد قبر «فرء بن سالي» أحد القادة العسكريين للملك جديمة الأبرش، وهو خال الملك امرؤ القيس. وحسب هذه القراءة الجديدة أيضا سجل هذا النقش أن الملك جذيمة تحديدا كان مؤسس مملكة تنوخ، تماما كما كتبت المصادر التأريخية لعلماء الحضارة العربية الاسلامية.

٣/٣ نقش النمارة (٣٢٨م)

١ ـ معلومات عن النقش:

هذا النقش عبارة عن شاهد قبر امرىء القيس بن عمرو بن عدي ثاني ملوك الحيرة (فترة حكمه: ٢٩٥ ـ ٣٢٨م)، حيث يذكر التاريخ ـ توافقًا مع ما جاء في النقش محل الدراسة ـ أن هذا الملك كانت له إنجازات، وأنه لقب نفسه بلقب «ملك العرب كلهم»، بعد أن أخضع قبائل «معد ونزار وأسد» وحكمها، ووصل بغزواته حتى مدينة نجران التي كان يحكمها الملك الحميري شمر يرعش (فترة حكمه: ٢٧٠-٣٠٠ م). ويرجع النقش إلى أوائل القرن الرابع الميلادي (سنة ٣٢٨ م)، حيث عثر عليه في قصر النمارة في جبل الدروز جنوب سورية. وقد اكتشفته بعثة فرنسية في أوائل القرن العشرين. ويعد هذا النقش أطول النقوش الكتابية وأغزرها ألفاظًا، وكتب بالخط النبطي المتأخر، وبلغة عربية مشوبة بشيء من رواسب الآرامية، وهذا واضح من وضع حرف (الواو) في آخر المفردات، وخاصة أسماء الأعلام، كما جرت العادة، ويلاحظ أن حرف (الألف) يحذف من قلب الأسماء، وخاصة أسماء الأعلام كما جرت به العادة كذلك.



شكل (١٣) نقش النمارة

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

السطر الأول: (تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج).

السطر الثاني: (وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجأ).

السطر الثالث: (يزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه).

السطر الرابع: (الشعوب ووكلهن فرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه).

السطر الخامس: (عكدي هلك سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده).

٣ ـ تفسير النص:

السطر الأول:

• تي: «هذه» اسم إشارة للمفرد المؤنث، وهي عربية صحيحة، ويؤكد التأنيث هنا على أن المشار إليه ليس القبر بعينه، وإنما نفس صاحبه أو روحه؛ يعني: هذه نفس أو روح فلان.

• نفس: «نفس» بمعنى ضريح أو قبر أو روح.

• مر القيس: امرؤ القيس بن عمرو اللخمي، أحد ملوك الحيرة.

• بـر: ابن.

• كلـه: بمعنى كلها أو كلهم.

• ذو: اسم موصول بمعنى «الذي» وهي لغة طيئ.

• أَسَرَ: «أخذ» و«عصب» و«عقد» و«نال» و«تقلد».

• التج: «التاج» وهي فارسية الأصل.

السطر الثاني:

• وملك: فعل ماضي، وربما قرىء بمعنى: أخضع.

• الأسديين: بنو أسد (قبيلة).

• ونزرو: نزار (قبيلة)، والواو زائدة.

• هَرَّبَ: بتشديد الراء؛ جعلهم يهربون ويفرّون، أو «هزم».

• مذحجو: مذحج (قبيلة عربية قحطانية)، والواو زائدة، كالعادة. والمعنى أن قبيلة مذحج هذه هربت بالقوة، منذ هزيمتها حتى ساعة كتابة هذا النقش.

• عكدي: «عكدًا» أي «قوةً»، والعُكدة أصل القوّة.

• وجا: أي الفعل الماضي: «جاء»، أو «قاد». وحذف الهمزة كان أمرًا مألوفًا في الكتابة العربية في القرون الأولى للهجرة.

السطر الثالث:

• يزجي: «يدفع» أو «يسوق». أو تأتي بمعنى المصدر: النصر.

• حبج: قد يكون لها معنيان:

√ المعنى الأول: «ضَـرَبَ»، مثل أن تقول: حبجَه بالعصا يحبجُه حَبْجًا أي: ضربَه ضربًا.

√ المعنى الآخر: تعني كلمة «حَـبَـجَ» في معاجم اللغة أشرف واقترب، وربما استعملت في النص على صورة المصدر لتعني مشارف أو حدود أو أسوار.

• نجران: مدينة في جنوب غرب السعودية في الحدود مع اليمن.

• شمر: هو الملك الحميري «شمر يرعش».

والمعنى: أن امرؤ القيس، ملكُ الحيرة، امتد سلطانه حتى مدينة نجران.

• وملك معدو ونزل بنيه: هذا الجزء من السطر الثالث على خلاف كبير في قرائته وترجمته بين علماء الكتابة؛ ويمكن تلخيص ذلك في الأوجه التالية:

√ الوجه الأول: قراءة (مَلَكَ) كفعل ماضي ينصب مفعولًا واحدًا؛ أي: ملك قبيلة معد بالقوة بعد الانتصار عليها.

√ الوجه الثاني: قراءة (مَلَّكَ) بتشديد (اللام) كفعل ماضي ينصب مفعولين؛ هما: (معد): الابن الأول لأمرئ القيس، و(بيان): الابن الثاني لأمرئ القيس. والمعنى أن امرؤ القيس قد نصب ولديه على ولاية الأراضي المفتوحة.

√ الوجه الثالث: قراءة (نزَّلَ) بتشديد (الزاي) كفعل ماضي ينصب مفعولين؛ هما: بنيه (أي أولاده) والشعوب (الأراضي المفتوحة). والمعنى أيضًا أن امرؤ القيس قد نصب أولاده على ولاية الأراضي المفتوحة.

السطر الرابع:

• الشعوب: انظر التعليق عليه في السطر الثالث أعلاه.

• ووكلهن فرس ولروم: قد يكون هناك خلافٌ في قراءة كلمة (ووكلهن) بين جمهور الباليوجرافيين، وليس هناك أي حدٍ من الاتفاق على تفسيرها فيما بينهم. وقد تحسن الإشارة هنا إلى رأي الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة في قراءة هذه الجملة؛ حيث قال: «والرأي عندي أنه ليست هناك نون في كلمة (ووكلهن)، وإلا لاتخذت الهاء شكلًا آخر على النحو الموجود في كلمة (ملوكهم) في السطر الثاني. كذلك، فإن كلمة (فرس) في رأينا تخلو من الواو، وأن الواو تتبع الكلمة الأخرى (الروم) وتكون إذن واوًا للعطف. وبالتالي تقرأ الجملة هكذا (ووكله الفرسُ والرومُ)، مما يجعل المعنى مستقيمًا ومقبولًا عند القراءة؛ فمن المحتمل جدًا أن يكون امرؤ القيس هذا عاملًا للفرس والروم، وفي نفس الوقت استخدمه كلٌ منهم لإخضاع القبائل العربية التي كانت تقوم بالإغارة على حدود كلٍ من

الدولتين. وهذه العمالة كانت من الأمور الطبيعية في تلك الفترة، ويشهد بها التاريخ العربي قبل الإسلام. ويؤكد عمالة امرئ القيس للروم وجود هذا النقش في النمارة التي كانت تحت لواء الروم».

• فلم يبلغ ملك مبلغه: هذه جملة عربية سليمة المعنى والمبنى واللفظ، ولا خلاف عليها إطلاقًا بين جمهور الباليوجرافيين. ومعناها: أنه لم يبلغ ملك مثل ما بلغه امرؤ القيس من قوة وسمعة وسلطان!، إلا أن الحق يؤكد أن نبي الله سليمان بن داوود عليهما السلام هو ذاك الملك الذي لم يبلغ ملكٌ مبلغه، حسبما ورد بالقرآن الكريم، فقد قال الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

السطر الخامس:

• عكدي: وردت هذه الكلمة في السطر الثاني من النقش، وتترجم بمعنى: عكدًا، أي: القوة، وتعود هذه الكلمة إلى آخر جملة في السطر الرابع، كأنها تكملةٌ لها، فيصبح المعنى حينئذٍ (فلم يبلغ ملك مبلغه قوةً). ويميل البعض إلى اعتبار هذه الكلمة آرامية نبطية بمعنى: حتى الآن أو حتى اليوم، فيصبح المعنى (فلم يبلغ ملك مبلغه حتى الآن)؛ أي: حتى لحظة كتابة النقش.

• هلك: مات، وافته المنية.

• سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول: سنة ٢٢٣ من سقوط الدولة النبطية على أيدي الروم سنة ١٠٦م، ومن ثم يكون تاريخ الوفاة هو سنة ٣٢٨م، وهو تاريخ هذا النقش.

• بكسلول: هو شهر كسلو، ويقابله كانون الأول «ديسمبر».

• بلسعد ذو ولده: لا خلاف على قراءة هذه الجملة؛ فهي تحمل معنى الدعاء في نهاية النقش، ومعناها: ليسعد أو يا سَعدُ أولاده أو الذي من ولده أو وفق بنوه للسعادة.

٤ ـ الضبط اللغوي للنص:

ـ تي نفسُ امْرئ القَيس بن عَمرو ملك العرب كُلّها الذي أسرَ التاجَ

ـ ومَلَكَ الأَسْدِيِّين ونزارَ وملوكَـهم، وهرَّبَ مذحجَ عكدًا. وجاء

ـ يزجي في حَبَج نجران. ومَلَك مَعَدَّ ونزَّلَ بنِيهِ

ـ الشعوبَ، ووكَّله الفرسُ والرومُ. فلم يبلُغ ملِكٌ مبلغَه

ـ عكدًا. هلكَ سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول. فليسعد الذي ولدَه.

٥ ـ وجه أهمية النقش:

ـ يعد هذا النقش حلقة مهمة من حلقات تطور الكتابة من النبطية إلى العربية؛ ففيه عناصر أو كلمات وجمل عربية غالبة، ولا يمكن القول أنه عربي كامل، بل فيه كثير من العناصر النبطية الآرامية، سواء من حيث الألفاظ أو التراكيب اللغوية.

ويبدو النقش مهمًا من الناحية الباليوجرافية التي تركز على كيفية رسم الحروف وتطورها.

ـ من الناحية اللغوية؛ فقد رأينا كيف يختزل النص الكلمات والحروف، وفيه تقديم وتأخير، وفيه مفردات ميتة، وفيه مفردات أعجمية فارسية؛ مثل: كلمة التاج، وفيه جملة سليمة لغويًا: فلم يبلغ ملكٌ مبلغَه.

ـ من الناحية التاريخية: يتناول النقش قصة انتصار امرئ القيس ملك الحيرة على بني أسد في نجد، ونفوذه الذي امتد إلى نجران جنوبًا، وتغلبه على ملك نجران في الجنوب.

ملاحظة:

وفي ضوء دراسة الباحث سعد الدين أبو الحب المشار إليها سابقًا، فإن نقش النمارة المحفوظ اليوم في متحف اللوفر بباريس لم يكن شاخص قبر الملك امرؤ

القيس بن عمرو، ولم يتحدث عنه أو عن إنجازاته، وأن الفقرة الأولى لهذا النص كانت مجرد جملة افتتاحية للقسم بروح هذا الملك قبل الدخول في تفاصيل فقرة الموضوع الأساس للنقش والتي أعلنت الهزيمة المريرة لقبائل مذحج اليمنية المعروفة في معركة طاحنة قرب نجران في بدايات القرن الرابع الميلادي.

٣/٤ نقش أسيس (٥٢٨م)

١ ـ معلومات عن النقش:

عثر على هذا النقش في جبل أسيس الذي يقع على مسافة ١٠٥ كم جنوب شرق دمشق، وقد عثرت عليه بعثة ألمانية سنة ١٩٦٥م. ويقع النقش في أربعة سطور بلغة عربية خالصة. ويلاحظ على هذا النص أن الكتابة العربية فيه قد استقام أمرها عن ذي قبل، كما تخلصت من أي عناصر تمت بصلة بالكتابة النبطية أو الآرامية.

شكل (١٤) نقش جبل أسيس

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

ـ السطر الأول: (ابراهيم بن مغيرة الأوس).

ـ السطر الثاني: (ارسلني الحرث الملك على).

ـ السطر الثالث: (سليمان مسلحه سنت).

ـ السطر الرابع: (٤٢٣).

٣ ـ تفسير النص:

السطر الأول:

• إبراهيم بن مغيرة الأوس: اسم علم. وقد تقرأ الأوسي نسبًا.

السطر الثاني:

• الحرث: الحارث بن جبلة؛ أحد ملوك الغساسنة ٥٢٩-٥٦٩ م، انتصر على المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة سنة ٥٢٨ م.

• على: بمعنى: إلى.

السطر الثالث:

• مُسَلِّحِه: بمعنى: أي حاملًا إليه السلاح.

السطر الرابع:

• ٤٢٣: كتب التاريخ المذكور في هذا السطر بطريقة حساب الجمل[1] بالتقويم النبطي، وهو يوافق سنة ٥٢٨ م بالتقويم الميلادي.

• والمعنى: أن صاحب النقش الحارث الملك أرسل إبراهيم بن مغيرة الأوسي إلى قائده سليمان المذكور، حاملًا إليه السلاح سنة ٥٢٨م. ويذكر التاريخ أن الحارث بن جبلة قد أصبح منذ سنة ٥٢٩ م رئيسًا على كل العشائر العربية

(١) عُرف حساب الجمل عند العرب قبل الإسلام، حيث يتم إعطاء كل حرف من الحروف الأبجدية قيمة عددية معينة (رقم)، انظر هذا الجدول:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠
ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠		

الموجودة في سورية من قبل الإمبراطور البيزنطي وقتها جوستنيان الأول (٥٢٧-٥٣٢ م)، وذلك بعد أن سمت مرتبة الحارث لدى الدولة البيزنطية، فكوفئ ولقب بـ (فيلارك) حاكم جميع العرب.

• كما تتضح ظاهرة العمالة لدى الدولة البيزنطية من قبل ملوك العرب في هذا الزمان البعيد. ويبدو واضحًا أنه كان هناك قدرٌ من التوتر والخلاف بين الحارث الغساني والمنذر الثالث ملك الحيرة وقتها، لذا أرسل الحارث السلاح إلى قائده سليمان سنة ٥٢٨ م، فوقعت الحرب بين الدولتين اللخمية والغسانية سنة ٥٢٩ م، ثم انتصر الحارث. ويلفت النظر هنا نسبة إبراهيم بن مغيرة إلى الأوس، وهو من أهل يثرب، ما يدل ضمنًا على التعاون القائم بين أهل يثرب والملك الغساني ضد ملوك الحيرة قديمًا.

٤ ـ الضبط اللغوي للنص:

ـ إبراهيمُ بن مغيرة الأوس.

ـ أرسلني الحارثُ الملكُ إلى.

ـ سليمانَ مُسَلِّحِه سنة ٤٢٣.

٥ ـ وجه أهمية النقش:

يعد النقش مصدرًا تاريخيًا أوليًا، حيث يقدم للمؤرخ معلومات تاريخية عن الأحوال السياسية للعرب في الجاهلية، وكيف كانت علاقاتهم بالدولة البيزنطية وقتها. كما يعتبر هذا النص أهم وثيقة تبين مدى تكامل الخط العربي سنة ٥٢٨ م، ويبدو أكثر وضوحًا وقربًا من الخط العربي في فجر الإسلام مقارنةً بنقش حران ٥٦٨ م التالي ذكره.

٣/٥ نقش حران (٥٦٨ م)

١ ـ معلومات عـن النقـش:

عثر على النقش في خرائب إحدى الكنائس الكائنة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جيل الدروز جنوب دمشق، حيث كان مكتوبًا على حجر يعلو باب الكنيسة، بمناسبة افتتاحها باسم القديس يوحنا المعمدان، كما يرى بعض المستشرقين. وكتب النقش باللغتين اليونانية والعربية، وأُرخ بطريقة حساب الجمل بالحروف النبطية. وقد وفُق المستشرق الألماني ليتمان (١٨٧٥-١٩٥٨م) إلى قراءة النقش قراءةً صحيحةً، بينما عجز المستشرقون عن ذلك.

ويقع النقش في أربعة سطور، يتخللها صليبٌ مرسومٌ في شكل دائرة. وسوف أعرض الجزء الخاص بالكتابة العربية من النقش، مستبعدًا الجزء الآخر المتعلق بالكتابة اليونانية. ومن الجدير بالذكر أن مادة هذا النقش تحوي كتابةً عربيةً سليمةً، باستثناء كلمة المرطول اليونانية الأصل.

شكل (١٥) نقش مران

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

ـ السطر الأول: (أنا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول).

ـ السطر الثاني: (سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر).

ـ السطر الثالث: (بعم).

٣ ـ تـفسير النص:

ـ شُرَحيل: اسم علم على رجل يدعى شرحيل أو شراحيل أو شريح.

ـ بر: ابن.

ـ ظلمو: اسم علم يقابله في العربية ظالم.

ـ ذا: اسم إشارة بمعنى هذا.

ـ المرطول: كلمة يونانية بمعنى الكنيسة في اللغة العربية.

ـ ٤٦٣ بالتقويم النبطي (= سنة ٥٦٨ م).

ـ بعد مفسد: تخريب وإفساد.

ـ خيبر: موطن اليهود.

ـ بعم: أي بعام كامل، وقد حذفت الألف الدالة على المد.

والمعنى: أن هذا البناء كان بعد مفسد أو تخريب خيبر بسنة واحدة، وقد حددها المؤرخون بالتقويم الميلادي في نحو سنة ٥٦٨ أو ٥٦٩م.

٤ ـ الضبـط اللغـوي للنـص:

ـ أنا شُرَحيلُ بنُ ظالمٍ بَنَيتُ هذه الكنيسةَ.

ـ سَنةَ ٤٦٣، بعدَ مفسَدِ خَيبرَ بِعَامٍ.

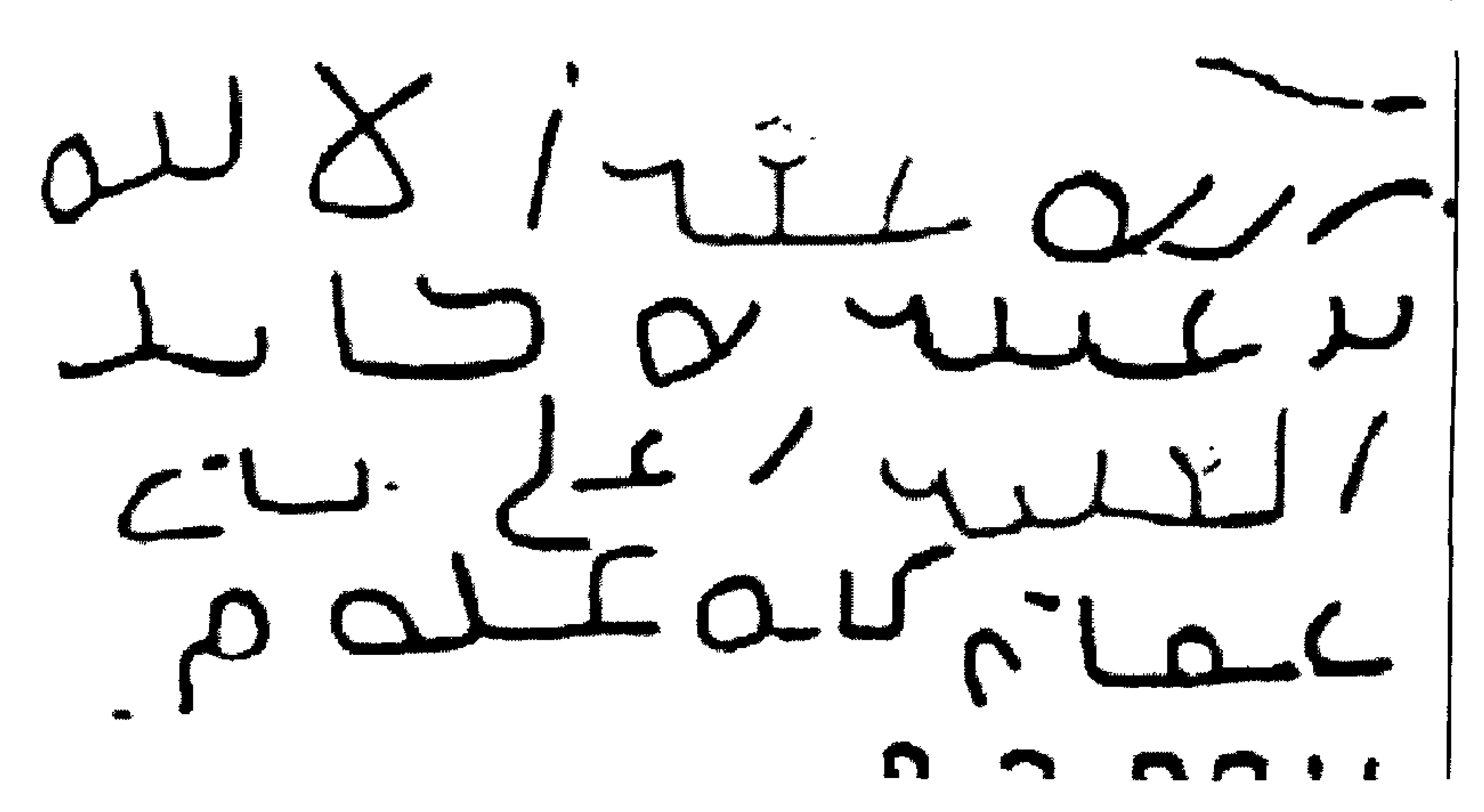
٥ ـ وجه أهمية النقـش:

يدل النص على أن اليهود في جزيرة العرب قوم غير مرغوب فيهم، يركزون قوتهم في مستعمرة خيبر، ويسببون المشاكل والقلق، ما دعا الملك الغساني الحارث بن جبلة (٥٢٩-٥٦٩ م)، صاحب نقش أسيس، إلى محاربتهم انتصارًا لبني قومه، وقد أشار ابن قتيبة إلى تلك الحرب فقال: «... وغزا [الحارث] خيبر فسبى من أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام».

٣/٦ نقش أم الجمال الثاني (٥٢٨ م)

١ ـ معلـومـات عـن النقـش:

عثر على النقش في منطقة أم الجمال من أعمال حوران في بلاد الشام، ويرجع إلى القرن السادس الميلادي، وذلك في خرائب كنيسة تعرف بالكنيسة المزدوجة، واكتشفته بعثة برنستون إلى سورية بين سنتي ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م، ويحوي نصًا مسيحيًا نصرانيًا، على غرار نص حران السابق. وربما كتبه بعض نصارى العرب، في رأي المستشرق ليتمان.



شكل (١٦) نقش أم الجمال الثاني

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

ـ السطر الأول: (الله غفر لاليه).

ـ السطر الثاني: (بر عبيده كاتب).

ـ السطر الثالث: (العبيد اعلى بنى).

ـ السطر الرابع: (عمرى كتبه عنه من).

ـ السطر الخامس: [يقرؤه].

٣ ـ تـفسيـر النص:

السطر الأول:

• الله: لفظ الجلالة، ولا خلاف في قرائتها على هذا النحو.

• غفرا: هناك إجماع على قرائتها بالألف في نهايتها، وربما جاءت الكلمة بمعنى (اغفر)، حتى تستقيم الدلالة.

• لاليه: اسم علم مسبوق بحرف جر، وهو تصغير للفظة (آل).

السطر الثاني:

• بر عبيده: ابن عبيدة. وهذا الاسم تتمة لاسم العلم في السطر الأول؛ وكأن المعنى: اللهم اغفر لآل بن عبيدة.

• كاتب: قُرأت هكذا، على أنها كاتب، ولكن الخلاف دائرٌ على دلالة هذه الكلمة من حيث معناها؛ أهي وظيفة أم لقب أم مجرد اسم علم؟.

السطر الثالث:

• العبيد: اتفق كثيرٌ من الباليوجرافيين على قرائتها هكذا، ورأى آخرون قراءتها هكذا (الخليد)؛ فلم يلحظوا الشرطة اليمنى المائلة من حرف العين في الكلمة، فاعتبروها خاءً. وأيًا كانت القراءة، فإن الكلمة اسم علم على قبيلةٍ ما!.

• اعلى بنى: لا خلاف على قرائتها (أعلى بني).

السطر الرابع:

يعد هذا السطر أكثر سطور النص استعصاءً على القراءة؛ نظرًا لشذوذ بعض حروفه وعدم استقامة معناه.

• عمرى: اسم علم، وجاء تكملةً للسطر الثالث عند لفظة (بني).

• كتبه: تقرأ هكذا، ولكن ليتمان يقرأها: تنبه، وقد لا تتماشى هذه القراءة مع رسم الحروف بالنقش نظرًا لتآكلها. وقد تقرأ على أنها (كله) بدلًا من (كتبه)، فتعود على الكلمة التي قبلها (عمرى) في الدلالة!. ولنا أن نتوقف في قراءتها رأسًا.

• عنه: تقرأ كما بالنقش؛ عنه.

• من: لا خلاف على قراءتها وهي اسم موصول بمعنى الذي (للعاقل).

السطر الخامس:

• [يقرؤه]: لا يظهر من النص إلا أطراف الحروف العلوية، ومن ثمَّ فإن أية قراءة له هي مجرد تخمين يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب. وعلى العموم يقرأ الباليوجرافيون هذا السطر على أنه كلمة واحدة هي: [يقرؤه]، لتتماشى في معناها مع السطر السابق، لتصبح الجملة حينئذٍ (كتبه عنه من يقرؤه). ويرى الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة أن النص يقول: «اللهم اغفر لاليه بن عبيدة». وبن عبيدة هذا كان كاتبًا، وظيفته تتلخص في تسجيل الاتفاقات بين العبيد وأسيادهم (كاتب العبيد)، حيث كانت تقضي تلك الاتفاقات بأن يدفع العبد أقساطًا من المال مقابل حريته، والسيد في هذا الاتفاق هو (المكاتب) والعبد (مكاتب)، ومن يسجل الاتفاق هو الكاتب. ومن ثمَّ، فإن كلمة العبيد الواردة في السطر الثالث ليست اسم علم دال على قبيلة، وبالتالي يكون اسمه الكامل هو أليه بن عبيدة قائد أو زعيم بني عمري. وقد كتب النقش الشخص المذكور اسمه في نهاية السطر الرابع والسطر الخامس.

٤ ـ الضبط اللغوي للنص:

ـ السطر الأول: (اللهُ اغفِر لاليه).

ـ السطر الثاني: (بر عُبيده كاتب).

ـ السطر الثالث: (العبيد اعلى بنى).

ـ السطر الرابع: (عمرى كتبه عنه من).

ـ السطر الخامس: [يقرؤه].

٥ ـ وجـه أهـمية النقـش:

ربما حمل هذا النقش إشارة تاريخية إلى فئة من المكاتبات التي كانت منتشرة بين العرب في العصر الجاهلي؛ ألا وهي مكاتبات العبيد، غير أن هذه الفئة لا تشكل إنتاجًا علميًا او معرفةً ثقافيةً قد دونت خلال هذه الفترة من الزمن، وإنما المشهور بين علماء الكوديكولوجيا أو علماء المخطوطات أن أول مخطوط (وليس نقش) مدون عند العرب هو القرآن الكريم. وهذه مسألة ليست محلًا للنقاش هنا على كل حال، بل سيأتي ذكرها مفصلًا بالقسم الثاني من هذا الكتاب، عند الحديث عن أول مخطوط عربي مدون.

٣/٧ نقش القاهرة الإسلامي (٣١ هـ)

١ ـ معلـومـات عـن النقـش:

اكتشف هذا النقش الأستاذ محمد حسن الهواري، من بين عددٍ كبيرٍ من قطع الحجر أو الرخام المكتوبة بالخط الكوفي، والتي كانت محفوظة بدار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامي حاليًا) بالقاهرة، وهي مجلوبة من أقدم المقابر الإسلامية في القاهرة وأسوان، وذلك في سنة ١٩٢٩ م، ويبلغ حجم قطعة الحجر المكتوب عليها النقش: ٣٨ سم × ٧١ سم.

من الطريف أن بعض المصادر تطلق على هذا النقش مسمى نقش أسوان، باعتبار أنه عثر عليه في مقابر أسوان جنوبي مصر. ولكن الذي نص عليه الأستاذ حسن الهواري بمقالته المنشورة في مجلة الهلال المصرية تحت عنوان: «أقدم أثر

إسلامي» أن النقش كان لرجل دفن بالقرافة بظاهر الفسطاط، ومن ثم وصف بنقش القاهرة.

وهذا النقش الإسلامي قديمٌ، يرجع إلى صدر الإسلام، ويتضح لنا من دراسة خواص الحروف أنها قديمة بالفعل؛ مثل: حروف السين والميم والعين والقاف، كما نلاحظ أن أشكال الحروف متعددة، ما يؤكد براعة الخطاط العربي المسلم عمومًا في ذلك الوقت.

شكل (١٧) نقش القاهرة إسلامي

٢ ـ القراءة الباليوجرافية للنص:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر.

ـ لعبد الرحمن بن (خير) (الحجري) اللهم اغفر له.

ـ وادخله في رحمه منك واتنا معه.

ـ استغفر له اذا قرا هذا الكتب.

ـ وقل امين وكتب هذا ا

ـ لكتب في جمدى الآ

ـ خر من سنت احدى و

ـ ثلثين.

٣ ـ تفسير النص:

يبدو معنى هذا النص واضحًا لا حاجة إلى تفسيره؛ حيث يفهم جملةً أنه مكتوبٌ على قبر أحد المسلمين ممن مات ودفن في صدر الإسلام زمان الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣-٣٥ هـ).

وقد افتتح النقش بالبسملة، كما هو معتاد في الكتابات المنسوبة إلى العصر الإسلامي، وأثبت فيه اسم هذا الرجل المدفون (عبد الرحمن بن خير الحِجري)، ذلك أن بعض العلماء قرأه «الحجاري» أو «الحجزي» أو «الحاجري»، غير أن أفضل قراءة كانت (الحِجري)؛ نسبةً إلى الحِجر، وهي بلدة في شمال الحجاز. ولا ريب أن هذه الاختلافات سببها عدم وجود نقط الشكل والإعجام في الكتابات العربية في ذلك الوقت. وقد أثبت في هذا النص تاريخ كتابته؛ فهو مؤرخ في شهر جمادى الآخر من سنة ٣١ من الهجرة النبوية. وتضمنت مادة النص دعاءً للرجل (المدفون) ممن وقف على قبره من عامة المسلمين عند قراءة النص، وقول آمين تابعًا للاستغفار.

٤ ـ الضبط اللغوي للنص:

ـ بِسمِ اللهِ الرَحمَنِ الرَحِيمِ. هذا القبرُ.

ـ لعبدِ الرَحمَنِ بنِ (خيرٍ) (الحِجري)، اللهم اغفِر له.

ـ وادخله في رحمةٍ منك وأتنا معه.

ـ استَغفِر له إذا قَرأ (تَ) هذا الكِتابَ،

ـ وقل آمين. وكُتِبَ هذا ا

ـ لكِتابُ في جَمَادى الآ

ـ خر من سنت إحدى وثلاثين.

٥ ـ وجــه أهــميــة النقــش:

لهذا النقش شأنٌ عظيمٌ بالنسبة للدراسات الباليوجرافية المرتبطة بتاريخ تطور الكتابة العربية؛ ذلك أنه يكاد يكون أقدم نص إسلامي مدون على حجر؛ فهو مؤرخ بسنة ٣١ هـ، وهو بذلك يرجع إلى الفترة التي كتبت فيها المصاحف في المدينة المنورة على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

٣/٨ خلاصة التحليل الباليوجرافي للنقوش العربية

رغم قلة النقوش السابقة وتباعد تواريخها من الناحية الزمنية، إلا إنها كافية في الكشف عن اشتقاق الحرف العربي من الحرف النبطي وإثبات نظرية الاشتقاق والتطور الذي شكلت بؤرة اهتمامنا في الصفحات السابقة.

لقد ضمت النقوش السابقة جميع الحروف العربية باستثناء حرف الصاد، كما أن معظم هذه الحروف قد تكرر كثيرًا، ما أتاح الفرصة أمام الباحث الباليوجرافي للتأمل في الحرف العربي ودراسة كيفية اشتقاقه وتطوره عن الأصل النبطي، حتى وصل إلى الشكل الذي بدا عليه في صدر الإسلام، متمثلًا في نقش القاهرة الإسلامي المؤرخ ٣١ هـ، حيث أن معالم هذا الخط العربي تلوح بنفسها كثيرًا، معبرةً عن وحدتها ونقائها وسماتها الباليوجرافية الخاصة.

وتكشف النقوش السابقة عن استمرار استعمال الشكل النبطي لبعض الحروف؛

مثل حروف: الباء والجيم والحاء والنون والطاء واللام ألف، فيما طرأ على بعض الحروف الأخرى شيءٌ من التطور الملحوظ، أفقدها الصلة الدالة بأصلها النبطي؛ مثل حروف: الهاء والألف والسين والراء والدال.

Modern Roman	A	B	G	D	E	F	Z	H		I	K	L	M	N		O	P		Q	R	S	T
Early Latin	A	B	<	D	E	F	Z	H		I	K	L	M	N		O	Γ		Q	P	S	T
Greek ↑	Α	Β	Γ	Δ	Ε	Ϝ	Ζ	Η		Ι	Κ	Λ	Μ	Ν		Ο	Π		Φ	Ρ	Σ	Τ
Phoenician	𐤀	𐤁	𐤂	𐤃	𐤄	𐤅	𐤆	𐤇	𐤈	𐤉	𐤊	𐤋	𐤌	𐤍	𐤎	𐤏	𐤐	𐤑	𐤒	𐤓	𐤔	𐤕
Early Aramaic	𐡀	𐡁	𐡂	𐡃	𐡄	𐡅	𐡆	𐡇	𐡈	𐡉	𐡊	𐡋	𐡌	𐡍	𐡎	𐡏	𐡐	𐡑	𐡒	𐡓	𐡔	𐡕
Nabatian	𐢁	𐢃	𐢄	𐢅	𐢇	𐢈	𐢉	𐢊	𐢋	𐢍	𐢏	𐢑	𐢓	𐢕	𐢖	𐢗	𐢘	𐢙	𐢚	𐢛	𐢝	𐢞
Arabic	ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت

شكل (١٨) العلاقات بين الحروف الرومانية واللاتينية واليونانية والفينيقية والآرامية والنبطية والعربية

٣/٩ السمات الباليوجرافية للكتابة النبطية

من واقع النقوش الأثرية السابقة، وغيرها استطاع الباحثون تعيين السمات الباليوجرافية المميزة للخط النبطي، وهي على النحو التالي:

١. الكتابة تبدأ من اليمين إلى اليسار.

٢. عدد الحروف: ٢٢ حرفًا.

٣. تتصف حروفها بإمكانية الفصل والوصل.

٤. سقوط حرف الألف من بعض الأسماء مثل (حرثت) أي حارث.

٥. تاء التأنيث لا تكتب بالهاء بل بالتاء المبسوطة؛ مثل (أمت): أمة، و(حبت): حبة.

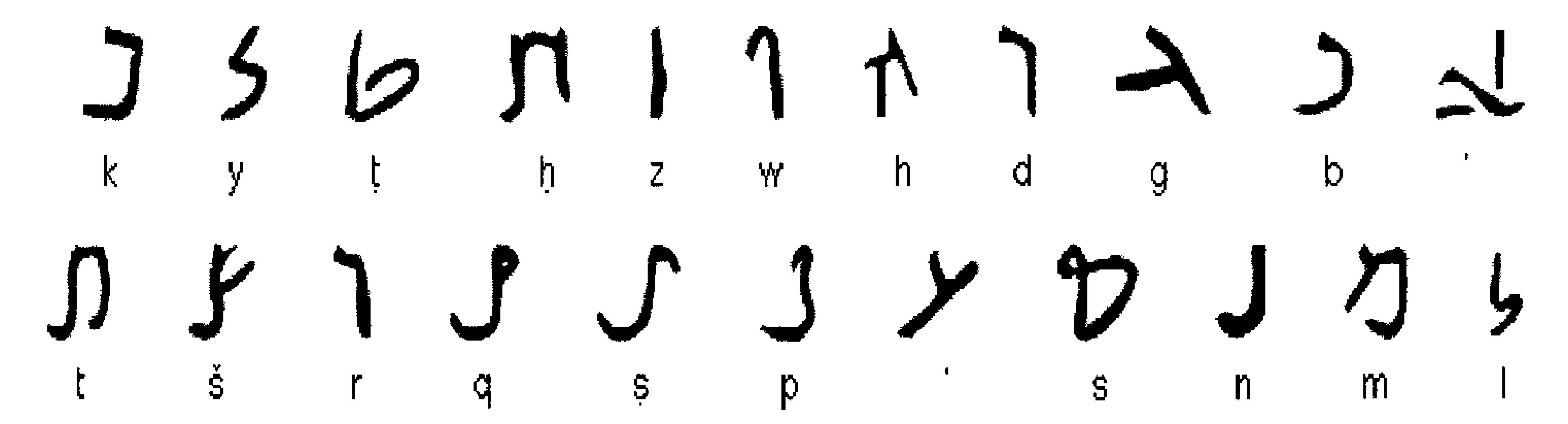
٦. خلو الخط النبطي من الإعجام.

٧. بعض الحروف تؤدي أو تعبر عن أكثر من حرف، كما في الجدول التالي:

ب	بمعنى الباء والنون.	ع	بمعنى العين والغين.
د	بمعنى الدال والذال والراء.	ص	بمعنى الصاد والضاد.
ح	بمعنى الحاء والخاء.	س	بمعنى السين والشين.
ط	بمعنى الطاء والظاء.	ت	بمعنى التاء والثاء.

٣/١٠ أمثلة التغييرات التي طرأت على الحرف العربي

عادةً ما ينصب التحليلي الباليوجرافي على معالجة طبيعة الحروف التي كتب بها النص محل التحليل، من حيث: أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين الحروف العربية، ومن حيث: مواضع الوصل (الحروف المتصلة) والفصل (الحروف المنفصلة) في الكلمات المتضمنة بالنص، مع التعليق على طبيعة رسم بعض الحروف في الكلمات محل التحليل. وعلى هذا، فقد أفردت الفقرات التالية لمناقشة أبرز الحروف النبطية الواردة بالنقوش السابقة مناقشة تحليلية باليوجرافية في سياق علاقاتها بالحروف العربية التي اتضح لنا أنها أصل تلك الأخيرة، كما تبين من قبل.



شكل (١٩) يوضح رسم الحروف النبطية

١. حرف الألف النبطي:

كان هذا الحرف يرسم بنهاية دائرية على هيئة رقم (٦) بصيغة الأرقام العربية المعروفة (كما في نقش النمارة)، ثم أخذ يتحرر من تلك الدائرة في نهايته ليرسم على هيئة خط مائل إلى اليمين (كما في نقشي حران وأم الجمال ٢)، ثم على هيئة خط رأسي مستقيم بالصورة التي انتهى إليها قبل الإسلام مباشرةً.

٢. حرف الواو النبطي:

كان يرسم في النقوش النبطية المتأخرة والعربية الباكرة على هيئة رقم (٩) ذات عراقة مستقيمة إلى أسفل (كما في نقشي أم الجمال ١ والنمارة)، ثم أخذت العراقة في التدوير إلى الأمام قليلًا (على شكل الحرف (و) بهذه الصورة (كما في نقشي حران والقاهرة)، وأصبحت تكتب تحت مستوى السطر.

٣. حرف الهاء النبطي:

تغير رسمه من النبطية إلى العربية تمامًا، فكان يرسم في النبطية هكذا في أول الكلمة ، وهكذا في وسطها ، وهكذا في آخرها (كما في نقش أم الجمال ١)، ثم حل محله في العربية شكل آخر، ثم تطور بعد ذلك إلى صورة أكثر استقرارًا وقبولًا (ـه) (كما في نقش القاهرة). وقد جرت عادة الكتابة العربية في القرن الأول الهجري على تحويل الهاء (ه) أو التاء المغلقة (ة) إلى تاء مفتوحة (ت) مثل كلمات: سنت، رحمت، بينما لا تظهر التاء المقفولة (ة) هذه إلا في القرن الثاني الهجري وما تلاه.

٤. حرف الكاف النبطي:

ظهر هذا الحرف بثلاثة أشكال في النقوش العربية محل التحليل على هذا النحو ، ، ، وقد ظهر الرسمان الأوليان في النقوش النبطية المتأخرة (كما

في نقشي أم الجمال الأول والنمارة)، أما الرسم الثالث فيمثل تحويرًا طفيفًا في الرسم الأول (كما في نقشي أسيس والقاهرة).

٥. حرف الميم النبطي:

كان هذا الحرف يتحلى بعراقة علوية (كما في نقشي أم الجمال الأول والنمارة) هكذا ، ثم أخذ بعد ذلك في رسمه بصورة بسيطة على نحو ما نرسمه في كتابتنا العربية اليوم (كما في نقشي أسيس والقاهرة).

٦. حرف العين النبطي:

كان يرسم في بداية الكلام على هيئته المعروفة اليوم (عـ) ولكن بغير استدارة، نظرًا لطبيعة المادة المستخدمة في الكتابة بها (مثل القلم أو نحوه) أو عليها (مثل الحجر أو نحوه)، وفي حالة وقوعه وسط الكلمة فكان يرسم مفتوحًا لأعلى هكذا (كما في نقشي النمارة وحران)، ولكنه أخذ مظهره الطبيعي رسمًا وكتابةً فيما بعد.

٧. حرف الفاء/ القاف النبطي:

لم يشهد هذا الحرف تغييرًا كثيرًا عند تحوله من النبطية إلى العربية، وإن جرت عادة كتابته نبطيًا برأس طويلة ممتدة لأعلى هكذا ، كما تلاحظه في نقشي أم الجمال الأول والنمارة، حتى بدأت هذه الرأس تأخذ في القصر وتلتصق بالقاعدة هكذا (ف/ قـ)، كما يمكنك ملاحظته في نقوش حران وأسيس وأم الجمال الثاني والقاهرة.

٨. حرف السين/ الشين النبطي:

رسمت السين النبطية بصورة عمودية على القاعدة، بحيث تتجه أسنانها إلى اليمين هكذا (كما في نقشي أم الجمال الأول والنمارة). ومع مرور الوقت، اتحدت السين مع القاعدة والتصقت بها مثل حالة حرفي الفاء والقاف في الفقرة

السابقة، كما قد برزت أسنانها بصورة عمودية على القاعدة، هكذا (سـ/ شـ) (كما في نقشي حران وأسيس). والطريف أن العرب جعلوا السين ذات أسنانٍ ثلاثة، بدلًا من اثنتين.

٩. حرف الدال/ الذال/ الراء/ الزاي النبطي:

كان يرسم في الكتابة النبطية منتصبًا على القاعدة، ويشبه في رسمه الرقم (٦) (كما في نقش أم الجمال الأول)، ثم بدأ يأخذ شكلًا من رسمه الطبيعي في الكتابة العربية مع احتفاظه بانتصابه مع القاعدة على هذا النحو ، (كما في نقش النمارة)، ثم أخذ في الاتحاد مع القاعدة ليرسم هكذا (د) معبرًا عن بقية الأحرف (ذ/ ر/ ز).

الفصل الرابع
الإصلاحات الداخلة على الكتابة العربية

٤/٠ تمهيد

ينصرف حديثنا في هذا الفصل إلى مناقشة الإصلاحات التي دخلت إلى الكتابة العربية[(١)]، إذ لم تكن تلك الكتابة تعرف شيئًا من التطوير أو الإصلاح في بداية اشتقاقها عن الأصل النبطي، كما أنها خلت من النقط والشكل وعلامات الترقيم، ما حمل على التفكر في مثل تلك الإصلاحات ومعالجتها وتطويرها منذ القرون الأولى للهجرة، على أيدي عددٍ من علماء اللغة الذين أوقفوا أنفسهم لخدمة الكتابة العربية وتحسين الخط العربي وتجويده.

٤/١ عناية المسلمين بإصلاح الكتابة العربية

اشتقت الكتابة العربية من كتابة نبطية لا إعجام فيها أصلًا، ولم يدخل عليها شيء من الإصلاح، فكان من الطبيعي أن تأتي هي الأخرى خلوًا أو غفلًا من

(١) بالنسبة للشكل والإعجام في الحروف غير العربية: في واقع الأمر، لا يوجد ما يوجب صناعة الشكل والإعجام في الحروف غير العربية، أما الإعجام: فلا يوجد تشابه في صورة الحروف غير العربية، بل لكل حرفٍ من الحروف الأجنبية صورة تميزه عن نظيره (مثل حروف اللغة الإنجليزية)، بحيث لا يقع الاختلاط بينها بخلاف حروف العربية. وأما الشكل (التشكيل): فلا يوجد عندهم علامات مستقلة قائمة بذاتها ومنفصلة عن الحروف، كما هو الحال في الحروف العربية.

الإعجام. ورغم ذلك، لم يحدث للعرب الأوائل شيءٌ من الاضطراب عند قراءة النص العربي خاليًا من أي إصلاح؛ كالشكل والإعجام والحركات الإعرابية أو حتى علامات الترقيم، حيث كان النص يفتقد مثل تلك الإصلاحات وقتها. ويكمن السبب وراء ذلك في أن فصاحة العرب وبلاغتهم كانت موهبةً إلهيةً وفطرةً غريزيةً، فطرها الله سبحانه وتعالى عليهم، بحيث لم تكن مكتسبة بالتعليم والكسب، لذا كانوا يكتبون ويقرأون قراءةً صحيحةً فصيحةً، بخلاف أحوال من جاء بعدهم من الخلف بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، واختلاطهم بالعجم الأجانب على نحو غير مسبوق، كما كانت لديهم ملكة قوية، لا تُحوجهم إلى وضع علامات معينة لتمييز الحروف العربية المتشابهة في الصورة معًا؛ مثل حروف (الجيم والحاء والخاء/ الفاء والقاف/ السين والشين...) وغيرها من أشكال الحروف المتفقة في قوالبها، المختلفة في دلالاتها، بل كانوا يدركون وجه الاختلاف فيما بينها، من خلال متابعة وفهم السياق المكتوب، من غير ما صعوبة.

ومن أجل ذلك، لم تكن فكرة الشكل والإعجام معروفة عندهم. ولكن، لما ظهر فيهم الشكلُ والإعجامُ كانوا يكرهونهما ابتداءً!؛ لما في ذلك من تشويه للمكتوب! وتحصيل لحاصل! وأنهما يمثلان قدحًا ظاهرًا في ثقافتهم اللغوية والبلاغية!. كيف لا وهم أهل الفصاحة واللغة الأصيلة؟!. وإن كان الشكل والإعجام يمثلان الآن بالنسبة لنا ضرورة حقيقة في فهم ما نقرأ، أو على الأقل في حسن قرائته وصحتها.

ولما ظهر الإسلام واختلط العرب بالعجم اختلاطًا لم يكن له مثيل من قبل، بفضل الفتوحات الإسلامية وانتشارها في المكان والزمان واتساع رقعة الدولة، بدأ اللحن يظهر في لغتهم بصورة غير مألوفة قبل ذلك، وخشي العرب حينئذٍ أن يتدرج الخطأ إلى القرآن الكريم، فقد حدثت عدة حوادث أو مواقف ألزمتهم التوقف قليلًا، ثم التفكر من أجل صيانة القرآن وحفظه، فتنبهوا إلى الوسيلة التي

يمكنهم بها حفظ لغتهم وألسنتهم من الخطأ واللحن، ومن هنا جاء ابتكار الشكل والإعجام في الكتابة العربية، حفظًا لها وتقديسًا لكتاب الله الكريم.

وقد كان حرص المسلمين على تَعَلُّم الكتابة العربية وتطوير الخط وتجويده مرتبطًا بحرصهم الأساس على قراءة القرآن الكريم وتدبره وحفظه والعناية بكتابته ونشره وتداوله. وما قام به أبو الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) وتلاميذه من بعده من نَقْطٍ للمصحف الشريف عملٌ مفيدٌ، من شأنه أن حَفِظَ القرآن من اللحن والتحريف. ومثل ذلك ما قام به نصر بن عاصم (٨٩ هـ) ويحيى بن يَعْمَر (١٢٩ هـ) من وضع الإعجام، عندما كثر اللحن وتفشَّت العجمة في حديث الناس، فكان عملهما عظيمًا، حفظا به القرآن من العبث والتصحيف، حيث فرَّقا بين الحروف المتفقة رسمًا والمختلفة نطقًا، وهو ما يعرف بنقْط الإعجام.

وفي العصر العباسي، قام إمام اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٣هـ) وتلاميذه من بعده بتطوير نقْط الشكل (الحركات الإعرابية)، على هيئة تميزت بالوضوح وسهولة الفهم، ثم تفنن المسلمون في العصور اللاحقة في تجويد كتابة مصاحفهم وزخرفتها وتذهيبها والعناية بها، حتى برز، في كل عصر ومصر، خطاطون بلغوا الكمال في حسن الخط وتجويده، فجاؤوا بما يُبْهر من الخطوط التي خلَّدت ذكرهم على مرّ العصور، وعلى رأس هؤلاء ابن مقلة (٣٢٨ هـ)، وابن البواب (٤١٣ هـ)، وياقوت المستعصمي (٦٩٨ هـ).

ولم يؤثر ظهور المطابع الحديثة في اهتمام المسلمين بجودة الخط والتفنن في كتابة مصاحفهم، بل استمروا على ذلك حتى وقتنا الحاضر، رغم ما يشهده من زخم في وسائل التقنيات الحديثة التي تُعنى بالكتابة وزخرفتها وتطويرها. وفي أوربا، حيث كانت بداية معرفة المطابع الحديثة، فطُبع المصحف الشريف، إلا أنها كانت طباعةً رديئةً محرفةً، لم تلتزم بما أجمع عليه المسلمون في رسم مصاحفهم، فكان مصير تلك الطبعات العزوف عنها وإهمالها، ما يؤكد مدى عناية المسلمين

بالمصحف حتى مع ظهور الطباعة. وعندما عرف المسلمون الأتراك في الدولة العثمانية (١٢٩٩ ـ ١٩٢٤م) المطابع الحديثة المصنوعة في الغرب أحجموا عن طباعة مصاحفهم فيها احترامًا وتقديسًا لكتاب الله الكريم، حتى صدرت فتوى من علمائهم بجواز ذلك فيما بعد، فكانت طباعة المصحف.

وعلى أي حال، يحسن بنا بعد هذا التمهيد وتلك المقدمة الفلسفية أن نعرض أهم تلك الإصلاحات الداخلة على الكتابة العربية، وبات لها تأثير ملحوظ في تطورها ورقيها حتى وقتنا الحاضر، حيث يرتكز الحديث هنا حول تلك الإصلاحات الأربعة:

١ ـ نقط الشكل.

٢ ـ نقط الإعجام.

٣ ـ الحركات الإعرابية.

٤ ـ علامات الترقيم.

٤/٢ إصلاح أبي الأسود الدؤلي: نقط الشكل:

يعني مصطلح نقط الشكل أو نقط الإعراب أو التشكيل: ضبط الكلمة بالحركات الإعرابية (الضمة والفتحة والكسرة والسكون وغيرها)، لتؤدي المعنى المقصود منها، وفقًا للغة العرب الصحيحة الفصيحة، أو يعرف بأنه: ضبط الإعراب في أواخر الكلمات، اختصارًا.

ومن الناحية التاريخية، ينسب إلى السُريان[1] أنهم أول من وضع الشكل في الكلمات، وذلك عندما دخلوا في النصرانية، ونقلوا الكتب المقدسة إلى لغتهم،

---

(١) هم أقلية قومية تعيش في بلدان الشرق الاوسط، وخاصة في لبنان وسورية وتركيا والعراق والأردن، ولا يُعطى لها الحق في ممارسة وجودها القومي، ولا تعترف دول العالم بحقوقها.

ورأوا أن بعض الناس يلحنون في قرائتها، فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ، ربما يغير المعنى ويفسده، فاخترع الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب (توفي سنة ٧٠٨ م) نقطًا كانت تُرسم في حشو الحروف، ثم تحولت إلى نقطة مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث، وكانت عندهم نقطة كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه.

ونفهم من هذا حقيقة تاريخية مفادها أن:

• أول من وضع نقط الإعراب أو الشكل هم السريان، بينما نقل العرب عن السريان هذا الشكل، وطوروه كثيرًا إلى الصورة التي هو عليها الآن.

• الاعتبار الكامن وراء وضع الشكل سواء لدى السريان أو العرب إنما هو حفظ اللغة والكتب السماوية المقدسة من اللحن الداخل عليها.

• أن الحاجة إلى الشكل أو الإعراب تشير إلى قصور الأداء اللغوي لدى بعض الناس، وقد يكون ذلك متأثرًا بضعف الثقافة المعرفية أو الاحتكاك المباشر بالعجم واختلاط الثقافات.

وعلى هذا، كان أول من وضع الشكل في الكتابة العربية باعتباره أول إصلاح تتعرض له: أبو الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) وهو من كبار التابعين. وسبب ذلك، فيما يروى، أن ابنته نظرت إلى السماء يومًا، فقالت: ما أحسنُ السماء (بضم النون)، فقال لها: نجومُها، وكأنه إجابة عن سؤال، فقالت: أردتُ التعجبَ، فقال لها: كان عليكِ أن تقولي: ما أحسنَ السماء (بفتح النون)، وتفتحي فاك. فلما أصبح ذكر ذلك لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، فعلمه أبوابًا من علم النحو، ثم قال له: أنح هذا النحو يا أبا الأسود، فاشتغل من ساعتها بعلم النحو أو علم العربية، ووضع بنفسه عددًا من أبواب النحو الأخرى. وكذا كان مبدأ علم النحو، حتى يتمكن العرب من حفظ لغتهم، فالعارف به يقرأ الكتابة صحيحةً وأما الجاهل فيقرأها خطأً.

ولما كان الحال هذه، وكثر الخطأ بين الناس ممن لم يعرف القواعد النحوية حق المعرفة، فطلب والي البصرة وقتها (وهو زياد بن سمية ويقال له أيضًا: زياد بن أبيه) من أبي الأسود أن يلتمس طريقةً ما لإصلاح الألسنة عند القراءة ـ وخاصةً القرآن الكريم ـ فلم يجبه إلى طلبه، فدبر زيادٌ حيلةً؛ حيث قال لرجل من أتباعه: اقعد في طريق أبي الأسود، وأقرأ شيئًا من القرآن وتعمد اللحن فيه، ففعل الرجل، فسمعه أبو الأسود يقرأ: (إن اللهَ بريءٌ من المشركينَ ورَسُولِهِ) بكسر اللام (في: رسولِه) ـ وهذا خطأ نحوي ولحن جلي في القراءة، فأعظم ذلك أبو الأسود؛ فكيف يبرأ اللهُ من رسولِه؟!

ومن أجل ذلك، ذهب إلى زياد وقال له: قد أجبتك إلى ما سألتني، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فابغني كاتبًا، فبعث إليه ثلاثين كاتبًا فاختار واحدًا منهم، وقال له: خذ المصحف وصبغًا يخالف لون المداد، فإذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدةً فوقه، وإذا كسرتهما فانقط واحدةً أسفله، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدي الحرف، أي أمامه، وقد ترك السكون بلا علامة وقتها، باعتبار أن عدم النقط دال على سكون الحرف.

وعلى هذا، أخذ أبو الأسود يقرأ القرآن متأنيًا، والكاتب يضع النقط بهذه الكيفية، وكلما أتم صحيفة راجعها أبو الأسود وقلب نظره فيها، واستمر على هذا الحال حتى أتم إعراب القرآن كاملًا، فأخذ الناس هذه الطريقة عنه، وكانوا يسمونها: شكلًا؛ لأنها تدل على شكل الحرف وصورته. ولم تشتهر طريقة أبي الأسود إلا في المصاحف حرصًا على إعراب القرآن. وعلى هذا، تمثل النقطة ـ أيًا كان موضعها وطريقة وضعها ولونها ـ حركةً إعرابيةً ذات دلالة. وهذه النقط الإعرابية إذن هي أول صورة من صور ضبط الكتابة العربية.

√ النقطة فوق الحرف = حركة الفتحة (َ).

√ النقطة تحت الحرف = حركة الكسرة (ِ).

√ النقطة بين يدي الحرف = حركة الضمة (ُ).

√ عدم النقطة = حركة السكون (ْ).

ونخلص من هذه الرواية ما يلي:

• فضل أبي الأسود الدؤلي في وضع علم النحو وضبط إعراب القرآن وإدخال نقط الشكل إلى الكتابة العربية، وأن أستاذه الذي أرشده إلى علم النحو هو علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

• أن الدافع إلى إثبات الشكل بالكتابة العربية هو الحفاظ على اللغة وقراءة النص القرآني ـ باعتباره نصًا آلهيًا يُتعبد به ـ قراءةً صحيحةً.

• أن نقط الشكل كان يكتب بمداد (باللون الأحمر) يخالف لون مداد الكتابة العربية (باللون الأسود)، على سبيل التمييز بين الأحرف وبين نقط الشكل.

ويذكر أن النقطة قد اختيرت للدلالة على الحركات الإعرابية لسببين:

• أولهما:

أن عرب العراق كانوا يجاورون السريان، وكان السريان ينقطون كتابتهم على هذا العهد، فنقل العرب عنهم النقط إلى كتابتهم.

• ثانيهما:

أن النُّقط لا معنى لها، حيث لا تلتبس بحروف الكتابة، كما تلتبس الضمة بالواو مثلًا.

إذن لم تكن الحروف في صدر الإسلام منقوطة أصلًا، فكان يكتب حرف القاف أو الفاء هكذا (نـ) بدون نقط، وكذلك بقية الحروف العربية. وكان العرب يميزون بين الحروف من خلال السياق قراءةً وفهمًا واستيعابًا.

٤/٣ إصلاح نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر: نقط الإعجام

يقصد بنَقْطَ الإعجام: تنقيط الحروف المتفقة قالبًا والمختلفة لفظًا، بحيث يتم وضع نقاط على الحروف العربية لتمييز الحروف المتشابهة معًا، مثل النقاط المُمَيِّزَةِ بين حروف: ب، ث، ي، ن، ف، ق، س، ش. فبدون نقاط، يمكن أن تكتب هذه الحروف على صورة واحدة. ونَقْطُ الحروف نَقْطَ إعجام هو عمل عظيم ينسبه بعضنا ـ خطأً ـ إلى النحوي المشهور نصر بن عاصم (٨٩ هـ)، لكن ما ذكره القَلْقَشَنْدِيُّ في كتابه «صُبْح الأَعْشَى» يخالف هذا الاعتقاد، وهذا ما أكدته أقدم بردية عربية مكتشفة في مصر، يعود تاريخها إلى سنة ٢٢هـ، حيث يؤكد القلقشندي ـ وكذلك نص البردية ـ أن حروف الكتابة العربية عرفت النَّقْطَ قبل نصر بن عاصم بزمن غير يسير، لأسباب وقرائن؛ منها:

• ورد عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم جردوا القرآن؛ أي: كتبوا حروفه دون نقاط، إذ كان العرب قديمًا يعاملون نَقْطَ الحروف كما نعامل نحن الآن علامات الإعراب، فكانوا يعتقدون أن من كان يجيد القراءة والكتابة لا يحتاج إلى نَقْطِ الحروف، أما متوسطو الثقافة فإن النَّقْطَ يساعدهم على فهم الخطاب؛ لذا كانوا يتجنبون النَّقْطَ حينما يكتبون الرسائل الموجهة للملوك، فعومل القرآن ـ بوصفه خطابًا إلهيًّا عزيزًا ـ معاملة رسائل الملوك.

• ولكن عدم نَقْطِ الحروف كان يسبب مشاكل كثيرة أثناء قراءة النصوص غير المنقوطة؛ فقد كان فهم النص يتطلب قراءته أكثر من مرة، ومحاولة استنتاج معاني الكلمات؛ اعتمادًا على السياق وعلى كلمات لا تحتاج حروفها إلى نَقْطٍ؛ مثل هذه الكلمات: (كلام، على، إلى).

ومع انتشار الإسلام وكثرة الاحتكاك بالأعاجم، انتشر اللحن والتصحيف في قراءة القرآن؛ ففزع الناس إلى ولاة الأمر، وكان ما كان من نصر بن عاصم الذي أعاد النَّقْطَ وغَيَّرَ مواضعه القديمة، ومَيَّزَ الحروف المتشابهات وأعاد ترتيبها بوضع

الحروف المتشابهة متجاورةً: (أ، ب، ت، ث...)، بعد أن كان ترتيب الحروف العربية: (أ، ب، ج، د...). لم يكن نصر بن عاصم ـ إذن ـ أول من نَقَطَ الحروف العربية، لكن فعله هذا يُحمَد له، فقد حافظ على القرآن من اللحن والتصحيف.

يعني نقط الإعجام، إذن، تمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض بوضع النقط فيها. وقد كان مبدأ اختراع نقط الإعجام في زمن عبد الملك بن مروان (٢٦ ـ ٨٦ هـ)، حينما انتشر اللحن والتصحيف في القراءة، فأمر الحجاج ابن يوسف الثقفي (٤١-٩٥ هـ) كُتَّابه بأن يضعوا للحروف المتشابهة في الرسم علامات تميِّز بعضها عن بعض، حتى يقضي على ظاهرة التصحيف في القراءة، فقام نصر بن عاصم (٨٩ هـ) ويحيى بن يعمر (١٢٩ هـ) (تلميذا أبي الأسود) بوضع نقط على الحروف بنفس المداد الذي تكتب به، على أساس أن نقط الحرف جزء منه.

وكذا، كان التمييز بين الحروف المتشابهة رسمًا المختلفة نطقًا، وإن كره عامةُ الناس أن يزيد أحد شيئًا على ما في مصحف عثمان، ولو لمجرد الإصلاح، كما توقف كثير منهم في قبول الإصلاح الأول الذي وضعه أبو الأسود أصلًا، إلا أن كلًا من نصر ويحيى قد عزما على إدخال الإصلاح الثاني إلى الكتابة العربية في ضوء هذين الإجراءين:

١ ـ الإجراء الأول:

أن توضع النقط فوق الحروف أفرادًا وأزواجًا، تمييزًا لها عن بعضها حتى لا يقع لبس عند القراءة، على النحو التالي:

• لتمييز الدال عن الذال: تهمل الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة علوية، وكذا بقية الحروف المتشابهة رسمًا والمختلفة نطقًا؛ مثل: ر، ز، ص، ض، ط، ظ، ع، غ. وهكذا لا تنطق الذال ذالًا إلا إذا كانت النقطة فوقها.

• أما بالنسبة للسين والشين[1]: فتم إهمال الأولى (س) وإعجام الثانية (ش) بوضع ثلاث نقاط علوية فوق الحرف؛ ذلك لأن للشين ثلاثة أسنان، فلو أعجمت بنقطة واحدة لتوهم متوهم أن الجزء الذي تحت هذه النقطة نون والباقي حرفان مثل الباء والتاء.

• وأما الباء والتاء والثاء والنون والياء: فلم تُجعل واحدةٌ منهن مهملة كالعادة، بل أعجمت كلها لأن الاشتباه يقع فيها من وجهين:

ـ إذا اجتمع ثلاث منها يشتبهن بالسين والشين.

ـ أنها ليست زوجية كالدال والذال وغيرهما، بل هي خمسة أحرف.

٢ ـ الإجراء الثاني:

اتفق نصر ويحيى على جمع الحروف المتشابهة رسمًا بجانب بعضها البعض، ولذلك اضطرا إلى مخالفة الترتيب القديم (الترتيب الأبجدي) المألوف عند أكثر الأمم، ومن ثم اختراع الترتيب الحديث (الترتيب الألفبائي). ولما كان هذا الإصلاح يقتضي أو يستدعي اشتباه نقط الشكل ـ الذي اخترعه أبو الأسود ـ بنقط الإعجام، قرر نصر ويحيى أن يكون نقط الشكل بالمداد الأحمر، ونقط الإعجام بنفس مداد الحروف (بالمداد الأسود). وكتبت المصاحف بهذه الطريقة بدون حرج، وإن خالفت مصحف عثمان، لذا: أصدر الحجاج أمره لكتاب الإمارة باتباع طريقة الإعجام، وأبلغ عبد الملك بن مروان فاستحسن ذلك الأمر وحمل الناس عليه، ولم يختص ذلك بالمصاحف فقط، بل عم جميع الكتابة، حتى عُدَّ إهمال الإعجام خطأً في الكتابة، واستمر الأمر على اتباع الإعجام حتى الآن، بصرف النظر عن مراعاة لون المداد المستخدم في الكتابة.

---

(١) لاحظ أن بعض الخطوط العربية مثل خط الرقعة قد دمج النقطتين بخط أفقي قصير، كما دمج الثلاث نقاط على شكل زاوية رأسها لأعلى.

ولكن وجود نقطين: أحدهما بلون المداد (الأسود) وهو نقط الإعجام، والآخر بلون مخالف (الأحمر) وهو نقط الإعراب، كان أمرًا مجهدًا للكاتب والقارئ على السواء، وكان مدعاةً للبس، خاصةً إذا تقاربت السطور، ومن ثم كان لابد للكتابة العربية أن تخضع لنوع من التيسير، وهو ما لم يحدث إلا في القرن الثاني الهجري على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي.

٤/٤ إصلاح الفراهيدي: الحركات الإعرابية

اتبع الناس في زمان بني أمية (٤٠ ـ ١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م) الإصلاح الأول الذي أدخله أبو الأسود الدؤلي. وفي زمن بني العباس (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م) رأى الناس أن يجعلوا الشكل بنفس مداد الكتابة (الأسود) بدلًا من المداد الأحمر، تسهيلًا على الكاتب أو الناسخ، فقد لا يُتيسر وجود لونين من المداد في آن، فاختلط الشكل بالإعجام؛ أي اختلط نقط الشكل (التشكيل الذي وضعه أبو الأسود) بنقط الإعجام (النقاط التي وضعها كلٌّ من نصر ويحيى) معًا؛ لأن كلًا منهما يُوضع بالنقط وباللون الأسود، كما تقدم ذكره.

وقد تصدى الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٣ هـ) لهذه المشكلة، وكان أوسع الناس علمًا بالعربية، فوضع طريقةً للشكل هي التي عليها الناس الآن، وهو بذلك قد أجرى تعديلًا جوهريًا على نقط الشكل الذي أدخله أبو الأسود من قبل، حيث تمثل هذا التعديل في إدخال الحركات الإعرابية الرسمية بدلًا من النقط. وكان مجموع ما وضعه الفراهيدي ثماني علامات إعرابية، عوضًا عن النقاط التي وضعها أبو الأسود، وهذه العلامات هي:

الفتحة ـ الضمة ـ الكسرة ـ السكون ـ الشدة ـ المدة[1] ـ الصلة[2] ـ الهمزة

---

(١) المدة: كلمة مد فوق الحرف، تطورت فيما بعد إلى هذه الصورة: ~.

(٢) الصلة: صاد صغيرة فوق ألف الوصل، هكذا: ص.

بهذه الطريقة أمكن الكاتب أن يجمع بين الكتابة والإعجام والشكل بلون واحد، حيث جاءت هذه الطريقة لتفادي اللبس الذي قد يحدث بين نقط الشكل (لأبي الأسود) وبين نقط الإعجام (أي النقط المميزة للحروف)، فألغى الفراهيدي طريقة أبي الأسود، واستبدل النقط بالحركات الإعرابية صراحةً على النحو المتقدم. ومن الطريف أن الفراهيدي نفسه استعمل هذه الطريقة في كتب الأدب واللغة، ولم يستعملها في القرآن الكريم؛ حفظًا لكرامة أبي الأسود وأتباعه، لِمَا لهم من فضل سابق في إصلاح الكتابة العربية رأسًا، كما خشي أن يُحدث أمرًا مبتدعًا في الدين. (انظر المثال الخاص بالإصلاح الثالث وفقًا لطريقة الفراهيدي):

سَلامٌ قَولًا مِن رَبٍ رَحِيمٍ

لك أن تتأمل، إذن، كيف تطورت الكتابة العربية وتطور رسم حروفها، وما تمتعت به، كذلك، من ترفٍ ورفاهية وذوق فني منذ ذلك الزمن، لتقف برؤيتك على إسهامات علماء العربية في هذا المنحى.

٤/٥ إصلاح أحمد زكي باشا؛ علامات الترقيم

مر بنا أن الكتابة العربية أدخل إليه عددٌ من الإصلاحات الضرورية عند القراءة، حتى تستقيم المعاني، وينتفي اللبس في فهم الكلمات، فدخل إليها الشكل والإعجام، حتى استقر أمر الكتابة العربية على ما وضعه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر من نقاط على الحروف لتمييزها، وما صنعه الفراهيدي من إضافة الحركات الإعرابية، حتى تصلح قراءة الكلمات من غير لحن أو عجمة.

وفيما يبدو أن الكتابة العربية لم تزل بعد تشكل مجالًا حريًا بالعناية والإضافة والتطوير، فبعد استقرار الكتابة على تلك الإصلاحات السابقة، بدا النص العربي مكتوبًا كوحدة مستقلة، تظهر فيها الكلمات والجمل والعبارات بمظهر واحدٍ، فلا فواصل أو علامات تبين للقارئ مواضع انتهاء الكلام، وما يحسن الوقوف عنده

أثناء القراءة، الأمر الذي أحدث تشويشًا وتداخلًا بين الجمل بعضها البعض، أدى بدوره إلى اضطرابٍ في فهم المعاني.

ولا ريب أن هذا الخلل قد يقع من الصغير دون الكبير؛ بمعنى أن علماء اللغة الكبار والمتمرسين بالقراءة لا تزعجهم هذه المسألة إطلاقًا، ولكن المبتدئ أو المتعلم قد تعوقه مثل هذه التداخلات. ومن هنا، دعت الحاجة إلى التماس وسيلة يمكن من خلالها تقطيع الجمل والعبارات أو تقسيم النص بصورة يحسن معها فهمه واستيعاب محتواه، فكانت علامات الترقيم Punctuation Marks هي تلكم الوسيلة. ومن الناحية التاريخية، ولأسباب تتعلق بأسلوب العرض العلمي في هذا الفصل، يمكن تقسيم هذه العلامات إلى قسمين:

١ . علامات الترقيم القديمة (الأصلية):

ويقصد بها العلامات التقليدية القديمة التي عرفها المخطوط العربي، منذ القرون الأولى للهجرة، وظل بعضها مستعملًا حتى الآن. ولعل من أشهرها ما يلي من علامات:

- **الخطوط المائلة والدوائر:**

لقد عرف المصحف الشريف نمطًا من علامات الترقيم، وذلك من أجل الفصل بين الآيات القرآنية، فكانت علامة الوقف عبارة عن خطوط صغيرة مائلة من اليسار إلى اليمين (هكذا/ /)، بحيث يتراوح عددها من ٤ ـ ١٠ خطًا، كما تطورت علامة الوقف لتصبح دائرة تضم داخلها عددًا من تلك الخطوط. وقد انتقلت هذه الفكرة من المصاحف إلى الكتب الأخرى، فاستخدمت الدائرة والدائرتين المتماستين للفصل بين الجمل. وقد ظلت هذه العلامة الوقفية (علامة الفصل) هي علامة الترقيم الوحيدة التي يعرفها النص العربي طيلة القرون التسعة للهجرة، حيث لم تظهر إلا على استحياء في نهاية القرن الثالث الهجري.

• النقطة:

يبدو أن القراء قد جرت عادتهم القرائية على وضع نقطة داخل الدائرة المستخدمة للفصل بين الجمل، وذلك لتحديد الموضع الذي وقفوا عنده في القراءة. ومع مرور الوقت، تلاشت الدائرة تباعًا، واستخدم النساخ النقطة بدلًا منها، وذلك للفصل بين الجمل وبيان مواضع الوقف.

• الفاصلة:

ظهر إلى جانب النقطة ما يعرف بالفاصلة أو الفصلة (،)، وذلك من أجل الفصل بين الجمل أيضًا، وقد بدأ استعمالها على استحياء منذ القرن العاشر الهجري، ثم شاع استخدامها قبل دخول الطباعة إلى العالم العربي، ولم تزل مستعملةً بصورة أساسية في النص العربي حتى الآن، باعتبارها دليلًا على الفصل بين الجمل والعبارات.

٢. علامات الترقيم الحديثة:

سبق أن قدمتُ أن علامات الترقيم لم تظهر في الكتابة العربية إلا على استحياء وبصورة بطيئة، لم تعرف الاستقرار والتطور والاكتمال إلا منذ أن وفق العلامة أحمد زكي باشا (١٨٦٧- ١٩٣٤م) الملقب بشيخ العروبة في مطلع القرن العشرين، حيث كتب ذلك في رسالة له بعنوان: «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية»، حيث قدم لها واعتنى بنشرها عبد الفتاح أبو غُدة، وذلك سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١١م. وقد اهتدى هذا العلامة إلى وضع نظام علامات الترقيم الذي نعرفه اليوم ونستعمله في كتابتنا العربية، بعدما اقتنعت به وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٢م وأقرته وعممته في كتبها، حتى تأثرت به بقية الدول العربية، وصار متعارفًا عليه فيما بينهم. وإليك قائمة بهذه العلامات، من غير ما داعٍ إلى شرح وظيفة كل منها، فوظائفها تكاد تكون معروفةً لكل من يمارس نشاط الكتابة بوجه عام.

١ ـ النقطة (.).

٢ ـ الفاصلة أو الشاولة (،).

٣ ـ الفاصلة المنقوطة (؛).

٤ ـ النقطتان (:).

٥ ـ علامة الاستفهام (؟).

٦ ـ علامة التعجب أو الانفعال (!).

٧ ـ علامة التنصيص (« »).

٨ ـ علامة الحذف (...).

٩ ـ الهلاليتان أو القوسان (()).

١٠ ـ الشرطة (–).

القسم الثاني

مقدمة في
علم المخطوطات (الكوديكولوجيا)

الفصل الخامس

مدخل إلى الكوديكولوجيا أو علم المخطوطات

٥/٠ تمهيد

يعالج هذا الفصل بعض الجوانب المتصلة بعلم المخطوطات، فضلًا عن طرح بعض المصطلحات العلمية التي كثيرًا ما سوف تتردد في سياق الدرس العلمي للكوديكولوجيا، مستشرفًا المستقبل نحو علم مخطوطات عربي، حيث يأتي هذا الاستشراف في ضوء عرض التجربة الغربية، مقارنةً بالتجربة العربية في هذا السياق.

٥/١ المصطلح Codicology

تتكون كلمة Codicology من مقطعين؛ المقطع الأول: Codico أو Codex (تجمع على Codices) ومعناها: الكراريس المضمومة إلى بعضها البعض أو الكتاب المخطوط. والكوديس يعني الكتاب الرأسي المكون من كراسات، والذي حل بدوره محل اللفائف في القرون الأولى للميلاد. أما المقطع الثاني: logy، وأصله logos وهي كلمة يونانية بمعنى: وصف أو معرفة أو علم.

وعلم المخطوطات: هو العلم الذي يهتم بدراسة الكتاب المخطوط وصناعته، بما في ذلك: صناعة الأحبار وفن التوريق أو النساخة والتجليد والتذهيب وصناعة الرقوق والجلود والكاغد، وغير ذلك من فنون مختلفة تبدو مرتبطة بصناعة

الكتاب المخطوط وإخراجه. إن الكوديكولوجيا عند ألفونس دانAlfonse Dain ـ وإليه ينسب وضع هذا اللفظ Codicologie ـ تعني العلم الذي يهدف إلى دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية دون الاهتمام بالخط. وبهذا تستقل الكوديكولوجيا عن الباليوجرافيا التي كانت تعني معًا علم المخطوط وعلم الخطوط القديمة.

وحيث تبدو مهمة عالم المخطوطات أو الكوديكولوجي متشابهة من بعض الوجوه مع مهمة عالم الآثار أو الأركيولوجي الذي يهدف إلى إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة لتمكّنه من دراسة حضارة من الحضارات الماضية، فقد اقترح العالم البلجيكي مازي Masai عبارة آثارية المخطوطarchéologie du manuscrit للتعبير عن علم المخطوط. ويبرر مازي هذه التسمية بأن لفظ كوديكس (Codex) اللاّتيني الذي يكون جزءًا من كلمة كوديكولوجيا يستثني كل ما ليس بكتاب: كالقراطيس واللفائف والرقم الطينية.

وثمَّ تعريف علمي للكوديكولوجيا Codicology أو علم المخطوطات عند جان جاست ويتكام: «الدراسة العلمية المختصة بتناول جميع جوانب المخطوطة عدا محتواها، أو هو العلم الذي يركز كليةً على الخصائص المادية للكتاب المخطوط باليد».

٥/٢ موضوع علم المخطوطات

تُعنى الكوديكولوجيا بدراسة الشكل المادي للكتاب المخطوط، باعتباره أثرًا تاريخيًا، أي دراسة العناصر المادية المكونة له بصرف النظر عن المحتوى، فيهتم بدراسة حوامل الكتابة (البردي والرق والكاغد) والمواد (الآلات) المستخدمة في الكتابة (كالأقلام والأمدة والألوان والأصباغ)، وشكل الكراسات وأحجامها وترتيبها، وشكل الصفحة وإخراجها وتسطيرها وكيفية تجليد المخطوط أو تسفيره (بلغة أهل المغرب). كما يهتم بدراسة كل ما لا يرتبط بالنص الأصلي للمخطوط

الذي سجله المؤلف، وهو ما يطلق عليه: «خوارج النص»؛ مثل: حرد المتن وتقييدات التملك والسماعات والإجازات والقراءات. ويعنى هذا العلم أيضًا بدراسة الظروف التي أنتج فيها المخطوط والطريقة التي اتبعها النساخ والوراقون والمزينون والمزخرفون والمجلدون في مباشرة عملهم، واختلاف البيئة الجغرافية والزمنية وأثر ذلك على إنتاج المخطوط إجمالًا.

وتتطلب الدراسة الكوديكولوجية الفحص المباشر للمخطوطات المطلوب دراستها وأخذ عينات منها لإخضاعها للاختبارات المعملية، ولكن هذا أمر غير ميسور دائمًا في مكتبات العالم العربي والإسلامي. ولكن يجب العلم أن أية صورة مستنسخة من المخطوط مهما كانت ممتازة لا تسمح بالتعرف الفعلي على اللون الدقيق لمادة الكتابة وقياس كثافتها وتقدير سمكها أو ملاحظة وجود كشط أو محو بها أو قياس حجم الجلد وحساب عدد كراساته وحجمها وطريقة حبكها وكذلك دراسة المُسَطَّرة والأحبار والألوان والتذهيب فضلًا عن التجليد وتقنياته، لأن أي وصف كوديكولوجي كامل لمجلد ما لا يمكن أن يتم إلا عن طريق فحص المخطوط الأصلي بشكل مباشر.

ومن الطريف أن هناك تفاوتًا ملحوظًا بين اهتمامات الباحثين الذين يتعاملون مع المخطوطات حول العالم دراسةً وتحليلًا، حيث يمكن تقليص أوجه الاهتمامات المتباينة بين فريقين من الباحثين هما:

الفريق الأول:

الباحثون الغربيون: وهؤلاء يهتمون بدراسة الشكل المادي للمخطوط والظروف التي أنتج فيها، وهي دراسة تتطلب تضافر الجهود بين الدراسات الإنسانية والدراسات المعملية (الكيميائية ـ الفيزيائية)، كما تتطلب إجراء تجارب وتحاليل اعتمادًا على عينات مأخوذة من حوامل الكتابة أو عينات من المواد المستخدمة في الكتابة؟ [وذلك من أجل فحص الحمض النووي لجلود

الحيوانات DNA، ما يكشف بدوره عن تاريخ المخطوطات الرَّقية، أو تحديد هذا التاريخ توسلًا بعنصر الكربون المشع C 14.

الفريق الثاني:

الباحثون الشرقيون: ويهتم هذا الفريق بدراسة ما يعرف بخوراج النص، وهي مسألة تتطلب معرفة واسعة بحركة الكتاب الإسلامي وعلاقات الكتب بعضها ببعض وخطوط العلماء وعلامات التملك والوقف والسماعات والقراءات. وقسمٌ كبيرٌ من ذلك لم تعرفه المخطوطات اليونانية واللاتينية.

٥/٣ علم المخطوطات العربي

يرى الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي أن علم المخطوط العربي من الممكن أن ينضوي على ستة محاور هي:

١. دراسة تاريخ المخطوط؛ منذ بدايته حتى ظهور الطباعة وأفول عصر المخطوطات.

٢. دراسة الكيان المادي للمخطوط، ومناقشة كل ما يتعلق بمقومات صناعة المخطوط.

٣. تقييم المخطوطات؛ دراسة أنماط التوثيق في المخطوط العربي؛ كالتملكات والسماعات والإجازات وغيرها.

٤. الحفظ والصيانة والترميم والتصوير، أي كيفية حماية المخطوطات من عوامل البلى والفساد وكيفية الحفاظ عليها وترميمها.

٥. الفهرسة والضبط الببليوجرافي، أي دراسة قواعد فهرسة المخطوط ومشكلاتها والضبط الببليوجرافي وإنتاج فهارس المخطوطات.

٦. التحقيق والنشر، حيث تتعلق هذه الدراسة بمحتوى المخطوط وكيفية نشره وتحقيقه وتقريبه إلى الصورة التي أرادها مؤلفه.

٥/٤ بعض المصطلحات الكوديكولوجية

١/ ٤/ ٥ الكتاب المخطوط:

لم تكن كلمة مخطوط معروفة من قبل سواءٌ بمعناها اللغوي أو الاصطلاحي، وإنما أطلقت مصطلحات أخرى عند المسلمين للتعبير عن هذه الكلمة؛ مثل: كتاب ـ سفر ـ مجلد... في المقابل. كما لم تذكر المعاجم العربية القديمة تعريفًا خاصًا لهذه الكلمة، وربما ورد هذا اللفظ في المعاجم فقط كصفة لشكل الكتاب المكتوب باليد.

ولكن في العصر الحديث ظهرت كلمة مخطوط لتقابل كلمة مطبوع، بعد دخول الطباعة إلى الحياة، وأصبحت تطلق على نسخة الكتاب التي خطها المؤلف أو غيره من النساخ. وهذا الوضع نفسه حدث مع الكتب اليونانية واللاتينية، إذ لم يدخل لفظ Manuscrit إلى الفرنسية إلا في عام ١٥٩٤م في مقابل كلمة Imprime «مطبوع»؛ بسبب ظهور كتب لم تكتب بخط اليد، فقد أخذ الكتاب المكتوب بخط اليد يختفي شيئًا فشيئًا في أوربا بعد اختراع المطبعة. إذن: جاء التمييز بين ما هو «مخطوط» وما هو «مطبوع» بسبب اكتشاف المطبعة في العصور الحديثة.

والمخطوط لغةً يعني: ما خط بالقلم مصورًا اللفظ بحروف هجائية، أو هو ذلك المكتوب بخط اليد لا بحرف المطبعة.

والمخطوط اصطلاحًا: ما كتب بخط اليد، وذلك لتمييزه عن أية وثيقة أخرى (كالخطاب والورقة). وإذا كان المخطوط هو كل ما خط باليد، فالصحيح أن يقال: «الكتاب المخطوط»؛ لأن هناك العديد من الأشياء تكتب باليد ولا تدخل في إطار المخطوطات؛ مثل: النقوش وما كتب على الأحجار والأبواب وغيرها. لقد ظهر هذا المصطلح مع دخول الطباعة للمغرب، ولم يقل المغاربة لفظة مخطوط، بل أطلقوا عليه مسمى آخر هو: «النسخة القلمية»، وجاءت كلمة المخطوط عندما احتك المغاربة بالمشارقة.

٢/ ٤/ ٥ الكتاب المخطوط العربي:

هو الكتاب المكتوب بخط عربي قبل عصر الطباعة، سواءٌ أكان في شكل لفائف أو صحف ضمت بعضها إلى بعض على شكل كراس (كوديكس). وهكذا تدور الحدود التعريفية لمصطلح المخطوط العربي فيما يلي من ضوابط:

• كونه كتابًا؛ فتخرج الوثائق والنقوش الكتابية عن إطار التعريف.

• كونه مخطوطًا؛ فتخرج كل الكتب المطبوعة عن إطار التعريف.

• كونه مكتوبًا قبل عصر الطباعة؛ فالنسخ المخطوطة بعد انتشار الطباعة واستقرارها تخرج عن هذا التعريف.

• كونه مكتوبًا بخط عربي؛ ومن ثم تخرج المخطوطات المكتوبة بالحرف العربي؛ كالمخطوطات العثمانية والفارسية والهندية عن حدود هذا التعريف.

ويحسن التنويه هنا إلى أنواع المخطوطات على النحو التالي:

١. المخطوط الخزائني: هو المخطوط الذي كتب برسم خزانة أمير أو سلطان أو أحد الوجهاء، ويتميز بزخرفة وجمالية الخط والتسفير، وغالبًا ما يكون في واجهة المكتبة، وهو من نوادر المخطوطات.

٢. المخطوط الأصلي: هو النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف، وقد تدخل النسخة التي صححها المؤلف أو قرأت عليه تحت هذه الفئة.

٣. المخطوط المبتور: المخطوط الذي تنقص منه أوراق، وفيه أنواع: المبتور الأول، والمبتور الأخير، والمخطوط الذي يتخلله بتر.

٤. المخطوط المصور: وهو الذي كتب بواسطة الميكروفيلم أو على الورق.

٥. المخطوط النادر: وهو الذي لا توجد منه إلا بعض النسخ.

٦. المخطوط الفريد: وهو الذي لا تتوفر منه سوى نسخة وحيدة.

٥/٤/٣ الكتاب المخطوط بالحرف العربي

لقد استخدمت العديدُ من اللغات الإسلامية الحرفَ العربيَ في الكتابة، كما استخدم غير المسلمين الذين عاشوا في دار الإسلام اللغة العربية وكتبوا بها مؤلفاتهم. وقد أدى انتشار الإسلام في البلدان المفتوحة حول أرجاء العالم إلى اتساع دائرة انتشار الكتابة العربية بين الناس وتعلمها وتبنيها من قبل بعض اللغات المنتشرة حول العالم. وإن من أهم اللغات التي تبنت الخط العربي كل من اللغات التركية والهندية والفارسية والأفريقية. ويعد عام ١٩٨٦م هو عام انطلاقة علم المخطوطات المكتوبة بالحرف العربي؛ فقد عقد في هذا العام أول مؤتمر عن كوديكولوجية مخطوطات الشرق الأوسط في اسطنبول بتركيا؛ باعتبار هذه المدينة مركزًا للمخطوطات العربية والفارسية والأردية على مستوى العالم.

٥/٤/٤ اللفافة

رقعة من ورق البردي أو الجلد يكتب فيها المتن عموديًا. وتحتفظ بعض خزائن أوربا (كخزانة جامعة هيدلبرج بألمانيا) ببعض اللفافات البردية النادرة، وهي عبارة عن كتيبات أو بعض النسخ القرآنية. وتتميز اللفافة بطبيعة الكتابة المتعامدة على محور فرد اللفافة، بحيث تجمع في أعمدة متتالية تقرأ الواحدة تلو الأخرى.

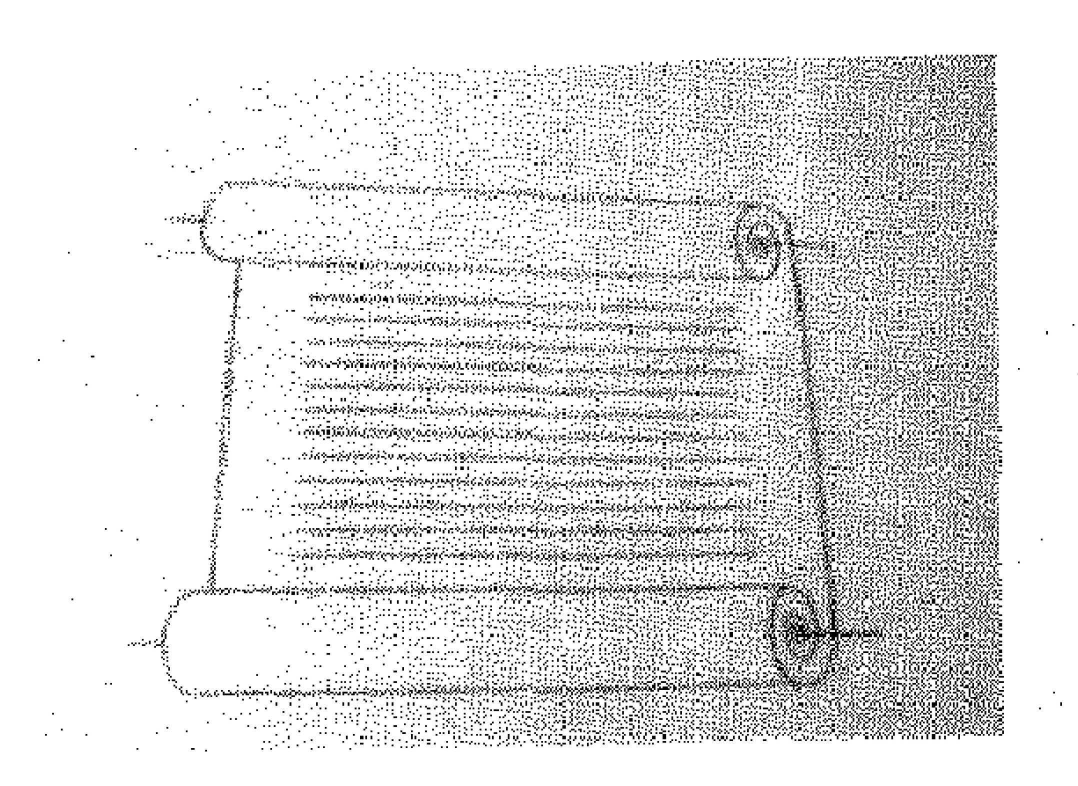
ولم يلعب المخطوط الذي على شكل لفافة من حيث الكم دورًا بارزًا في العالم الإسلامي في واقع الأمر، ففي الوقت الذي ظهر فيه الإسلام كان الكوديكس قد حل محل اللفافة التي لم تستخدم إلا بصورة طقسية عند طوائف اليهود، فيما يعرف بلفافات التوراة.



شكل (٢٠) صورة اللفافة

٥/٤/٥ الدرج

عبارة عن لفافة من الرق أو الورق، وسمي الدرج درجًا لأنه يطوى بسرعة. ويبدو أن النساخ المسلمين لم يستخدموا إطلاقًا شكل اللفافة على هذا النحو. ولكن المخطوطات الإسلامية الوحيدة التي كانت على شكل لفافة والمعروفة حتى الآن تنتمي جميعها إلى فصيلة الدرج الذي تكون فيه الكتابة متوازية للمحور.

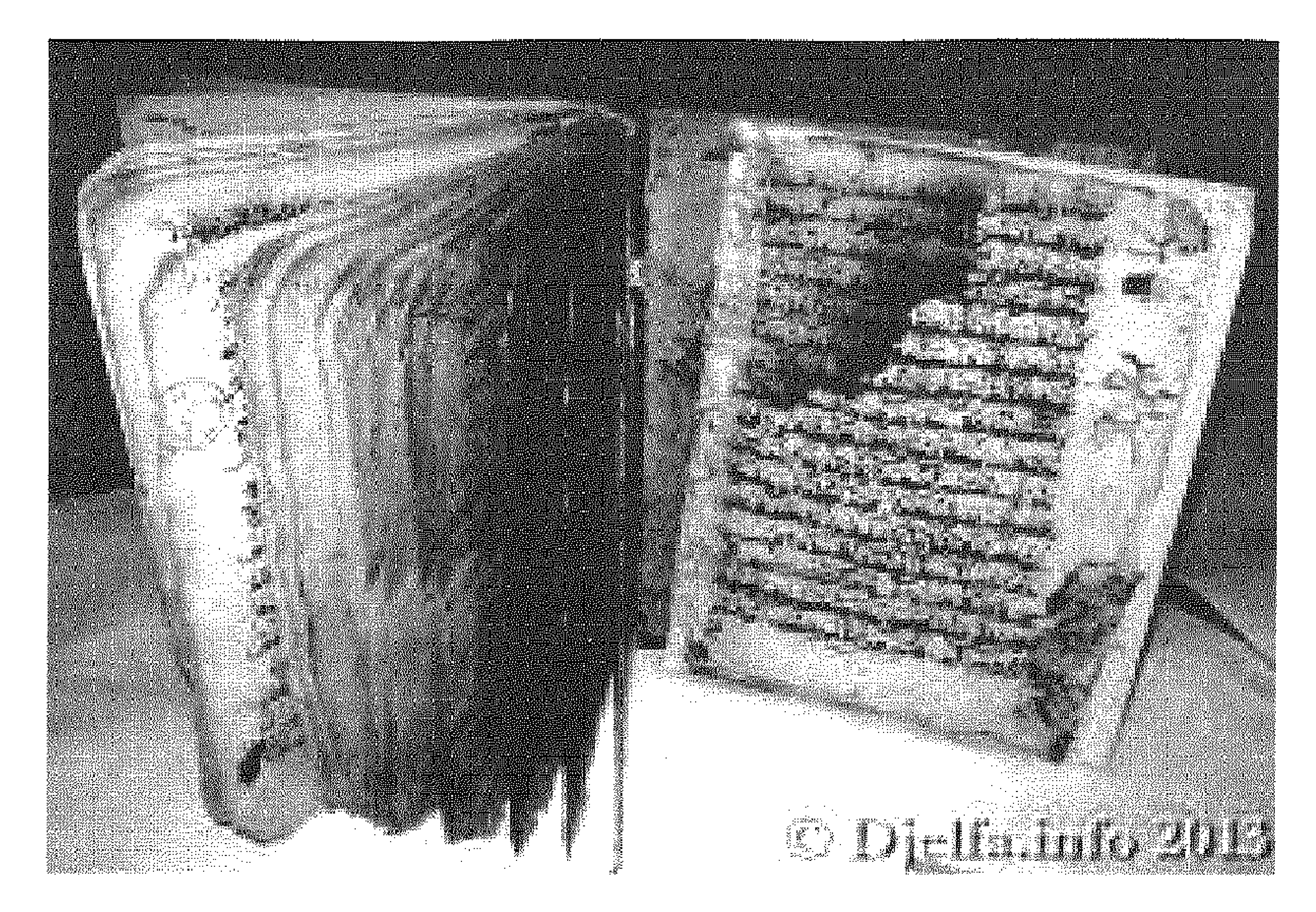


شكل (٢١) صورة الدرج

٥/٤/٦ الكوديكس الكتاب الرأسي Codex

الكراس أو الكتاب الرأسي المكون من بضعة كراريس مجموعة إلى بعضها

البعض. ويحظى هذا الشكل من الكتب باهتمام عالم المخطوطات بالمقام الأول.



شكل (٢٢) صورة الكتاب الرأسي

الفصل السادس

المخطوط العربي عبر تاريخ الحضارة الإسلامية

٦/٠ تمهيد

تبحث مادة هذا الفصل في أحد محاور علم المخطوطات العربي؛ ألا وهو: تاريخ المخطوط العربي عبر عصور الحضارة الإسلامية، وإن بدأ الحديث أولًا عن معرفة الكتابة العربية وأدواتها في الجاهلية، وما إذا كان هناك إنتاجٌ فكريٌ مدونٌ لدى العرب بالفعل أو لا، مسلطًا الأضواء على قضية المعلقات السبع، خلال هذه الفترة الزمنية. وبعد التثبت بصورة يقينية من حقيقة أن القرآن الكريم هو أول كتاب مدون عند العرب المسلمين، جاء الحديث التاريخي يترى تباعًا حول المخطوط العربي نشأةً وتطورًا.

٦/١ نسبة المخطوط العربي

ينسب المخطوط العربي إلى اللغة التي كتب بها، بصرف النظر عن المكان الذي أُلِّف فيه، أو جنسية مؤلفه أصلًا؛ فهناك من الأعلام الذين حفظ لنا التاريخ أخبارهم لم يكونوا عربًا، ولم يولدوا في بلاد العرب، إلا أن إنتاجهم الفكري كان بالعربية؛ ومن أمثلة هؤلاء: الإمام البخاري صاحب كتاب الصحيح في الحديث النبوي، وسيبويه صاحب كتاب الكتاب في نظرية علم النحو. فالعبرة ليست بالمكان أو الزمان أو الجنسية وإنما بلغة النص.

إذن المخطوط العربي عربيٌ باعتبار نمط الكتابة التي كتب بها لا باعتبار مؤلفه أو المكان الذي أنتج فيه. هذا، وتُعرف القبائل العربية التي انتشر فيها الخط العربي بالعرب المستعربة أو القبائل العدنانية أو عرب الشمال، وإليهم يؤول نسب النبي ﷺ (٥٧٠م-٦٣٢م)، كما تقدم ذكره من قبل.

٦/٢ المخطوط العربي في العصر الجاهلي

تعد العربية التي نتكلم ونكتب بها اليوم هي تلك التي تكلم بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام؛ غير أن هناك جاهلتين؛

- الجاهلية الأولى: لا نعرف عنها شيئًا على وجه التفصيل.

- الجاهلية الثانية: تقدر بنحو ١٥٠ سنة قبل الإسلام. وخلالها ظهر عددٌ من فحول الشعراء؛ مثل: إمرؤ القيس والنابغة وزهير وعنترة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات.

ومن الحقائق التاريخية المعروفة أن الكتب بوجه عام لا توجد في أمة من الأمم إلا إذا توافرت لها ثلاثة عناصر هي:

١. وجود كتابة وكُتَّاب.

٢. وجود مواد أو أدوات صالحة للكتابة بها وعليها.

٣. وجود تراث يحرص الناس على تسجيله وتدوينه.

وعلى هذا، سوف تُخصص الصفحات التالية لمناقشة ما إذا كان لدى العرب في الجاهلية كتب مدونة أو لا؛ فهل عرفوا الكتابة؟ وهل كان لديهم أناس يكتبون؟ وهل توافرت لديهم المواد الصالحة لصناعة الكتب؟ وهل كان لديهم تراثٌ مهمٌ جديرٌ بالتدوين والحفظ أم لا؟

٦/٢/١ معرفة الكتابة العربية في الجاهلية

رغم معرفة العرب بالكتابة قبل الإسلام بفترة طويلة، إلا أنه لم يكن لديهم علم أو أدب أو فن أو ثقافة مكتوبة، أما أشعارهم وأخبارهم فكان يتم تناقلها وتداولها مشافهةً عن طريق الرواية. ومن القرائن التي تؤكد معرفتهم بالكتابة في العصر الجاهلي ما يلي:

١. أن القرآن الكريم عند نزوله وجد من يكتبه؛ فقد استعان النبي ﷺ بكُتَّاب الوحي، كما اتخذ كُتَّابًا آخرين لتسجيل الرسائل والمعاملات المختلفة التي تجرى بين المسلمين، فضلًا عن كتابة رسائله لملوك الأرض، كما كان بعض الصحابة يكتب القرآن لنفسه، ومنهم من كان يكتب الحديث كذلك، ما يدل في الجملة على وجود معرفة، ولو محدودة أو مقيدة بشأن الكتابة.

٢. عثر المؤرخون وعلماء الخط على عددٍ من النقوش في طرق القوافل شمال بلاد العرب مثل نقوش: أم الجمال (٢٧٠م) والنمارة (٣٢٨ م) وحرّان (٥٦٨ م) وغيرها، والتي تقدم أدلة عقلية تؤكد معرفة العرب بالكتابة منذ القرن الثالث الميلادي.

٣. عنيت بعض كتب التاريخ بنقل عددٍ من الروايات المختلفة التي تشير إلى معرفة العرب بالكتابة في العصر الجاهلي؛ ومن أمثلة ذلك:

ـ ما ذكره البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: أن الإسلام جاء وفي قريش بمكة سبعة عشر نفرًا يكتبون، وفي الأوس والخزرج بالمدينة أحد عشر كاتبًا.

ـ صحيفة المقاطعة: وهي تلك الصحيفة الشهيرة التي كتبتها قريش وعلقتها على الكعبة في بداية العهد بالإسلام، حيث التزمت فيها بمقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام وغيرها من كتب السير.

ـ تقييد المعاملات والاتفاقيات: كان أهل الحجاز أصحاب تجارة وأهل حرب،

فكان يحتاجون إلى الكتابة من أجل تقييد معاملاتهم وتقييد العهود والمواثيق الخاصة بتأمين القوافل التجارية، بجانب تسجيل الاتفاقيات والتحالفات القومية التي تجرى بينهم، فيما يتعلق بالمنازعات القبائلية.

ـ مكاتبات العبيد: عرف العرب نوعًا من الرسائل المتبادلة بينهم؛ مثل: «مكاتبات العبيد»؛ حيث كانت هذه المكاتبات تتضمن تحرير سند ملكية العبد، وصكوك العتق بعد سداد ثمن حريته على أقساط متتابعة.

٦/٢/٢ معرفة أدوات الكتابة العربية في الجاهلية

عرفت العرب أدوات الكتابة قبل الإسلام، رغم قلتها وبساطتها وارتباطها بالبيئة الصحراوية. ومن الأدلة التي تؤكد معرفتهم بأدوات الكتابة في الجاهلية ما حفل به الشعر الجاهلي نفسه من إشارات مختلفة إلى تلك الأدوات. ومن أشهر أدوات الكتابة العربية في العصر الجاهلي ما يلي:

ـ العسب: (ج) عسيب أو عسيبة: السعفة أو جريدة النخل.

ـ الكرانيف (ج) كرنافة: أصل السعف الغليظ الملتصق بجذع النخلة.

ـ العظام: عظام أكتاف الإبل والغنم وأضلاعها.

ـ اللخاف: الحجارة البيض الرقاق.

ـ الجلود: عرفت العرب ثلاثة أنواع من الجلود هي:

√ الرق: ما يرقق من الجلد ليكتب فيه.

√ الأديم: الجلد الأحمر المدبوغ.

√ القضيم: الجلد الأبيض.

ـ المهارق: (ج) مهرق: مصطلح فارسي مُعرَّب (مهر كارد)، يطلق على نوع

من الثياب المصنوعة من الحرير، بحيث تُسقى الصمغ، ثم تُصقل بعد ذلك ليكتب فيها. ولما كان هذا الضرب من أدوات الكتابة عزيز المنال، حيث كان يُجلب مع القوافل التجارية الوافدة إلى بلاد العرب، فكانوا لا يكتبون فيها إلا الأمور الهامة كعهود الأمان والمواثيق.

ـ القباطي المصرية: أقشمة مصرية مصنوعة من الكتان، استخدمها العرب في كساء الكعبة المشرفة. وقد استخدمت هذه المادة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٦/٢/٣ المعرفة الثقافية في الجاهلية (المعلقات السبع)

رغم معرفة العرب بالكتابة وأدواتها في الجاهلية، إلا أنه لم يكن لديهم تراثٌ علميٌ مكتوبٌ بمعنى الكلمة أو فكرٌ يحرصون على إثباته وتدوينه!. وتمثل هذه المعلقات السبع أثمن ما في الشعر الجاهلي، حيث جُعلت في الطبقة الأولى من جمهرة أشعار العرب، وأصحابها هم: إمرؤ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة، عمرو بن كلثوم، الحارث بن حلزة، عنترة بن شداد. وقد اختلفت الأقوال في شأن كتابتها بماء الذهب وتعليقها على أستار الكعبة ما بين مؤيد ومعارض.

ونص الرواية التي تشير إلى تلك القضية هو أن العرب «عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة (المطوية) وعلقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرىء القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات». تبقى المسألة قائمة حول قضية هذه المعلقات السبع، فإذا تأكد لدينا أن هذه المعلقات كتبت وعلقت على أستار الكعبة، فإن المعلقات إذن هي أول مخطوط عربي مدون. وإذا لم يكن كذلك، فما هو أول مخطوط مدون إذن؟

٦/٢/٤ القرائن الدالة على عدم تدوين المعلقات السبع في الجاهلية

١) مصدر الرواية: يُذكر أن حمادًا الراوية[١] هو الذي جمع السبع الطوال من أبرز القصائد الشعرية في الجاهلية، وسماها المعلقات، كما يزعم ابن الكلبي أن: أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس. ولكن حمادًا وابن الكلبي كلاهما مشكوك في روايته رأسًا.

٢) الافتقار إلى التراث الفكري: لم يكن للعرب في الجاهلية تراثٌ فكريٌ يحرصون على تدوينه غير الشعر (ديوان العرب). ولما كان الشعر بطبيعته لا يُستعصى حفظه على الذاكرة، فكانوا يحفظونه في الصدور ويُتناقل بسهولة بينهم عن طريق الرواية.

٣) اختلاف روايات الشعر الجاهلي: يحمل الشعر الجاهلي في ثناياه ما يدل على عدم تدوينه في الجاهلية، وأنه كان ينتقل في الزمان والمكان مشافهةً، بدليل عدم اتفاق روايات الشعر، حيث اختلفت هذه الروايات وتعددت، على نحو يؤكد عدم كتابتها بالضرورة وقتها، ولو كانت مكتوبة بالفعل ما وقع هذا الاختلاف فيما بينها.

٤) عدم توافر أدوات الكتابة بالصورة الكافية، كما لم تكن المواد الصالحة للكتابة بها أو عليها ميسورة بالقدر الذي يساعد على رواج حركة الكتابة والتدوين وقتها.

٥) من الناحية العملية، يتعذر كتابة المعلقات على الحجارة والجلود والعظام وغيرها من الأدوات المعروفة عند العرب في تلك الفترة، إذ كان حجم الحروف كبيرًا جدًا، كما هو ملحوظ بمراجعة النقوش الكتابية القديمة التي

---

(١) هو أبو القاسم حماد بن أبي ليلى بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي (١٥٥ هـ)، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها.

وصلت إلينا (مثل نقشي زبد وحران وغيرهما)، فكم يحتاج هذا العمل إلى جهد كبير سواء في الحصول على الأدوات الكافية لكتابة هذه القصائد التي تربو الواحدة منها على مائة بيت شعر، أو في ممارسة الكتابة نفسها أو في تعليقها بصورة ما على أستار الكعبة.

٦) الكتابة بماء الذهب لم تكن معروفة في الجاهلية، وما عرفت العرب القباطي المصرية إلا بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١ هـ.

٧) إغفال كتب التاريخ والسيرة النبوية قصة المعلقات في معرض الحديث عن دخول النبي محمد صلى الله عليه وسلم الكعبة يوم فتح مكة (٨ هـ)، فلم تذكر الروايات أية معلومات عن قصة المعلقات وما إذا كانت معلقة بالفعل أو لا.

تبدو قصة المعلقات ضربٌ من الخيال، وأن لفظ المعلقات نفسه ليس مشتقًا من التعليق وإنما من مادة عَلَقَ؛ والعِلق في اللغة هو الشيء النفيس. وإذن: فالمعلقات يُقصد بها نفائس الشعر العربي القديم إجمالًا، دون التفكر في شأن تعليقها أو عدمه. فالمعلقات السبع هذه لم تدون في الجاهلية. إذن فإن العصر الجاهلي لم يحظ بشرف التدوين، رغم المعرفة المبدئية بالكتابة العربية وأدواتها وقتها.

٦/٣ المخطوط العربي في العصر الإسلامي

إن العناصر الثلاثة اللازمة لوجود الكتاب المخطوط لم تكتمل بعد في العصر الجاهلي. أما في العصر الإسلامي، فرغم حرص النبي ﷺ على كتابة القرآن الكريم، ورغم أن من الصحابة من كان ثريًا، بحيث لا يعجز عن شراء رَّق يكتب عليه مهما غلا ثمنه، إلا أن النص القرآني لم يُكتب كاملًا في مكان واحد في حياة النبي ﷺ. وربما ساعد على ذلك قناعة المسلمين بأن حفظ القرآن في الصدور أَوْلى من حفظه في السطور.

١/٣/٦ العصر الراشدي (١١-٤٠ هـ)

القرآن الكريم أول كتاب عربي مدون؛ فقد كان العرب في الجاهلية أهل ثقافة شفوية، شأنهم في ذلك شأن اليونان في القرون الأولى للتاريخ. ورغم معرفتهم الكتابة قبل الإسلام، لم يخلفوا لنا كتبًا بالمعنى الذي يؤكده مفهوم مصطلح الكوديكولوجيا. ولما جاء الإسلام، كان أول كتاب بالمعنى الاصطلاحي يكتب ويدون هو القرآن، ويبدو أنه استمر الكتاب الوحيد المدون طوال القرن الأول الهجري وردحًا طويلًا من القرن الثاني الهجري.

وربما يكمن السبب في عدم وجود كتب أخرى مع القرآن فيما يلي:

١. النهي عن كتابة الحديث النبوي:

فقد جاء في حديث الرسول ﷺ برواية مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قوله: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فلْيَمْحُه، وحدِّثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

ويعلل الخطيب البغدادي هذا النهي عن كتابة الحديث بأمرين:

• أن القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله بعد، فكأنما خشي الرسول ﷺ أن يخلط المسلمون بين كلامه وكلام الله سبحانه، خاصةً في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسلامية، فأمر بكتابة القرآن ونهى عن كتابة الحديث، كما نُهي عن كتب العلم في صدر الإسلام نظرًا لقلة الفقهاء وقتها.

• الخوف من الاتكال على الكتابة وترك الحفظ، سيما في تلك الفترة الأولى التي كان الإسناد فيها قريبًا.

٢. صعوبة التحول إلى الثقافة المكتوبة:

إن هذه الفترة كانت تمثل امتدادًا للعصر الجاهلي، ولم يكن بوسع القوم التحول من الثقافة الشفوية إلى الثقافة المكتوبة (التدوين) بين يوم وليلة، بل يحتاج الأمر

إلى فترة طويلة من أجل التعود على التدوين، بل ربما اعتبروا التدوين إهانة مباشرة لذاكرتهم القوية التي ساعدتهم على تداول المعلومات وقت الجاهلية.

٣. انشغال الدولة الإسلامية بالفتوحات الإسلامية:

إن الدولة الإسلامية خلال العصرين الراشدي والأموي انصرف همها إلى توطيد أركان الإسلام والتوسع في الفتوحات، ولم يكن لدى الخلفاء والأمراء وقت لتشجيع العلم وتدوين المعارف الإنسانية، ولم يكن لدى أفراد المسلمين أنفسهم الدافع إلى تحصيل العلم ونشره، حتى وصف العصر الأموي بالجدب الفكري والإمحال الثقافي. وهكذا لم تتهيأ الظروف لوجود التدوين وتقييد المعرفة. لكن، في ظل الاسترخاء والرفاهية التي صاحبت الدولة العباسية، وحالة الازدهار الفكري في الأندلس، وما ترتب على ذلك من انتشار العلوم والمعارف وظهور منهج البحث عند المسلمين، كان لا بد من التدوين وتقييد العلم الذي أصبح ظاهرةً منتصف القرن الثاني الهجري، حيث بدأ التأليف الجديد، ثم قفل راجعًا إلى الخلف لتدوين الروايات التي لم تكن دونت قبلُ، والتي ظلت تنتقل شفاهة لفترة طويلة. ولكن، ليس معنى أن يصبح التدوين ظاهرة، أن تختفي الرواية، ولكنهما ظلا معًا جنبًا إلى جنب، حتى اختفى التواتر وساد التدوين.

٦/٣/٢ مسألة كتابة القرآن الكريم وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل هي:

١) المرحلة الأولى:

كانت هذه المرحلة في عهد النبي ﷺ. وكان الاعتماد وقتها على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة؛ نظرًا لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكُتَّاب وضعف وسائل الكتابة، لذا لم يجمع القرآن وقتها في مصحف. ويبدو أنه منذ بداية نزول الوحي، بدىء في تدوين القرآن، من غير ما توانٍ في ذلك الأمر. وكان يتم تدوينه

على مواد طبيعية؛ مثل سعف النخيل واللخاف والجلود والعظام ولحاء الشجر العريض وظهور البعير وغير ذلك.

ونفهم من هذا ما يلي:

• أن القرآن لم يكن في بداية الأمر مجموعًا في مجلد واحد؛ فمن الثابت تاريخيًا أنه لم تكن هناك نسخة من المصحف تحوي نص القرآن الكريم كاملًا لدى النبي ﷺ.

• أن تلك المدونات أو المخطوطات القرآنية لم تكن تشكل معًا مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة بصورة دقيقة.

• لم يكن هناك ترتيب محدد للقرآن، وإنما كانت بعض الآيات تضاف هنا أو تجمع إلى جنب آيات أخرى، بحسب أوامره ﷺ.

وكان لا بد من الانتظار حتى يكتمل الوحي، ثم الشروع في ترتيب القرآن كاملًا، وهو ما لم يحدث إلا قبيل وفاة الرسول ﷺ، حين اتخذ القرآن شكله النهائي في صدور الرجال على عهده ﷺ.

٢) المرحلة الثانية:

في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله عنه في العام ١٢ هـ، حيث قامت حروب الرِّدَّة، وقتل فيها نحو سبعون من حفظة القرآن، فخُشي على القرآن من تناقص أعداد الحفظة له، فاقترح سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على سيدنا أبي بكر أن يأمر بجمع القرآن في طرس واحد، بحيث يصدر في شكله النهائي موافقًا لما في صدور الرجال من الحفظة، فكلف سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه بهذه المهمة الجسيمة، فقال زيد بعد قبول هذه المهمة: «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال».

وهكذا كان أول تدوين كامل للمصحف في عهد الصِّديق الأكبر رضى الله عنه.

وظلت الصحف التي كتبها زيد عند أبي بكر حتى لقي ربه فآلت إلى سيدنا عمر، وبعد عمر انتقلت إلى أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر رضى الله عنها. وهذه النسخة الرسمية الكاملة من القرآن كانت مطابقة تمامًا من حيث ترتيب الكتابة لما هو محفوظ في صدور المسلمين. ولكن هذه النسخة الرسمية لم تمنع من وجود نسخ أخرى كاملة أو غير كاملة لدى الأفراد.

٣) المرحلة الثالثة:

في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، بدأ التوسع في الفتوحات الإسلامية، واشتد الخلاف بين الناس في قراءة القرآن، بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة وقتها. لذا، عمد سيدنا عثمان إلى كتابة القرآن في مصحف واحد عرف بالمصحف الإمام، ونسخ منه نسخًا أخرى وأرسله إلى الأمصار المختلفة: الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة، لتصبح أساسًا لاستنساخ المصحف في ربوع الدولة الإسلامية زمانًا ومكانًا، بينما أمر بإحراق كل ما سوى هذا المصحف مما وجد عند المسلمين وقتها، كي يجتمع الناس على مصحف واحد.

فائدة: الفرق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر للقرآن:

- أن الجمع في عهد سيدنا أبي بكر كان بغرض تقييد القرآن كله حتى لا يضيع منه شيءٌ، دون أن يحمل الناس على مصحف واحد. وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

- الجمع في عهد سيدنا عثمان كان بغرض تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد وحمل الناس على الاجتماع عليه؛ نظرًا لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات بسبب كثرة الفتوحات الإسلامية.

فائدة أخرى: هذا المصحف العثماني هو أول مخطوط يكتب في ظل الإسلام،

بل هو أول مخطوط عربي بالمعنى الدقيق لكلمة «مخطوط». وأغلب الظن أن هذا المصحف كتب بالخط الكوفي الذي تميز بالاستقامة والزوايا والأضلاع وأنه كُتب على (رق) لمعرفة العرب به منذ الجاهلية، ولأنه أقوى احتمالًا من البردي، ولأن الورق لم يكن قد عُرف بعد.

٦/٣/٣ مسألة ترتيب القرآن الكريم

ينقسم ترتيب القرآن الكريم وفقًا لما ذكره شيخ الإسلام بن تيمية ـ رحمه الله ـ في مقدمة تفسير القرآن، إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات؛ بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية الكريمة. وهذا النوع من الترتيب ثابت لا خلاف عليه بالنص والإجماع، وهو توقيفي، بحيث لا يجوز قراءة كلمة قبل أخرى في آية من آيات القرآن، بمعنى أنه لا يجوز مثلًا أن يقرأ: «لله الحمد رب العالمين» بدلًا من قوله تعالى: «الحمد لله رب العالمين»، فالمساءلة ليست متعلقة باستقامة المعنى ووضوحه، وإنما تتعلق بأن النص القرآني يعد نصًا كريمًا محكمًا يتلى كما أنزل.

النوع الثاني: ترتيب الآيات؛ بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة. وهذا الترتيب هو الآخر ثابت لا خلاف عليه بالنص والإجماع. وهذا الترتيب توقيفي أيضًا، فلا يجوز مخالفته، بل هو واجب على القول الراجح بين العلماء، بمعنى أنه لا يجوز تقديم آية على آية، كأن يقرأ قوله تعالى: «مالك يوم الدين» قبل قوله عز وجل: «الرحمن الرحيم»، وإنما الصحيح الثابت أن تقرأ الآيات وفق ما جاء ترتيبها الطبيعي بالسورة هكذا: «الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين». وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا متاعًا إلى الحول غير إخراج»: قد نسختها الآية الأخرى، يعني قول الله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا

يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا»، وهذه قبلها في التلاوة، قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا بن أخي لا أغير شيئًا من مكانه.

النوع الثالث: ترتيب السور؛ بحيث تكون كل آية في موضعها من المصحف. وهذا النوع ثابت بالاجتهاد، فلا يكون واجبًا. وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقرأ النبي عليه الصلاة والسلام «البقرة» ثم «النساء» ثم «آل عمران»». فهذا يدل على أن هذا النوع من الترتيب ليس بتوقيفي، وعلى هذا فقد قال شيخ الإسلام بن تيمية: تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمان عثمان رضي الله عنه صار هذا مما سَنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سُنَّة يجب اتباعها.

٦/٣/٤ العصر الأموي (٤٠-١٣٢ هـ)

يُوصف العصر الأموي على العموم بأنه عصر إمحال وجدب فكري، ولم يكن عصر إنتاج فكري ولم يكن فيه مؤلفون ذوو شأن هام. ولكن البداية الفعلية لتدوين الثقافة والمعارف انطلقت من هذا العصر، فإن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار هو معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٦٠ هـ)، فكان بدء تدوين التاريخ إذن على يديه.

كما كان العصر الأموي الأصل الذي نبتت فيه مختلف العلوم التي قدر لها أن تزدهر في مرحلة تاريخية تالية؛ حيث العصر العباسي، فلم يكن للتدوين في العصر العباسي لينشأ من فراغ وبغير مقدمات. يؤكد هذا أن هناك كتبًا ومكتباتٍ في العصر الأموي بالفعل، كما عرف العرب الترجمة خلال هذا العصر، ولكن التدوين والتأليف والترجمة لم تكن ظواهر يُعتد بها وتؤثر في المسار العام للحركة الفكرية الإسلامية وقتها.

لقد ازدهرت المكتبات في هذا العصر، بحيث أصبحت المكتبة جزءًا من أجزاء قصر الخلافة الأموية، وكانت بعض المخطوطات في مخزن بيت المال بالجامع الأموي، ومنها مصحف بخطِّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكانت الكتابات تزين جدران الجامع الأموي وبعض مقتنياته الثمينة.

وفي ذلك العصر الأموي، بدأ تدوين الروايات الشفوية، وأصبحت لمكتبة الخلافة الإسلامية الأموية شهرتها الكبرى في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز التي ضمت كُتب والده وجده الحكم بن أبي العاص الأُموي، وكتب غيرهم من الخلفاء، وشكّلت مخطوطات علوم القرآن وعلوم السنة النبوية القسم الأكبر من تلك المكتبات الأموية، وكانت مكتبة الجامع الأموي من أكبر مكتبات ذلك العهد.

٦/٣/٥ العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ)[١]

شهد القرن الثاني الهجري عدة أمور أثَّرت في المخطوطات العربية؛ منها:

١) حركة التدوين: بدأت بتدوين الحديث النبوي في مطلع هذا القرن بعدما رأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من تعذر الاعتماد على الرواية الشفهية، نتيجة لتشعب الأسانيد وكثرة أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، فكلف ابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ) بتدوين الحديث النبوي. وبعد تدوين الحديث النبوي، بدأ تدوين السيرة النبوية والمغازي باعتبارها مكملة للسُّنَّة، وبعد جمع اللغة بدأت تُستنبط منها القواعد النحوية والصرفية، فأُلِّفت كتب النحو، كما بدأ تأليف المعاجم على يد الخليل بن أحمد صاحب معجم العين، وبدأت المؤلفات تظهر في مختلف فروع المعرفة. ومن يرجع إلى فهرست النديم يجد فيه أسماء مؤلفات كثيرة ترجع

(١) يُقسم العصر العباسي إلى أربعة عصور متتابعة هي: الأول ١٣٢-٢٣٢ هـ؛ الثاني ٢٣٢- ٣٣٤ هـ (عصر نفوذ الأتراك)؛ الثالث: ٣٣٤-٤٤٧ هـ (عصر نفوذ البويهيين)؛ الرابع: ٤٤٧-٦٥٦ هـ (عصر نفوذ السلاجقة).

إلى هذا القرن؛ منها: مؤلفات جابر بن حيان (٢٠٠ هـ) التي تجاوزت الثلاثمائة كتاب.

٢) حركة الترجمة: في منتصف القرن الثاني الهجري، ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية، وخلال النصف الثاني منه ترجمت الكثير من مؤلفات الطب والفلسفة اليونانية إلى العربية. وكذا نُقل تراث الحضارات القديمة في الفلسفة والمنطق والجغرافيا والطب والفلك إلى العربية، وقامت مكتبة بيت الحكمة بدور رائد في مجال الترجمة، وارتبطت بها أسماء كثير من المترجمين.

ولم يكن العرب مجرد نقلة لتراث اليونان، ولم يقتصر دورهم على ترجمته وتلخيصه وحفظه، وإنما تمثلوا هذا التراث واستوعبوه ونقدوه، وصنفوا كتبًا تناقشه وتردّ عليه، بدليل هذه الفئة من الكتب التي تحمل في عناوينها كلمة «الشكوك»؛ مثل الشكوك على جالينوس لأبي بكر الرازي (٣١١ هـ) في الطب والفلسفة، والشكوك على بطليموس لابن الهيثم (٤٢٨ هـ)، وهو نقد للنظرية الفلكية التي عرضها بطليموس في كتابه المجسطي.

٣) تطور الكتابة العربية ورفاهيتها: كانت الكتابة في القرن الأول الهجري تستخدم نوعين من النقط أحدهما للإعجام والآخر للإعراب، وكان ذلك يمثل صعوبة للكاتب والقارئ على السواء، بسبب الالتباس الذي قد يحدث بين السطور المتقاربة، فجاء الفراهيدي (١٧٥ هـ)، ليضع علامات الإعراب التي نستخدمها اليوم لتحلّ محل نقط الإعراب. وبوجود العلامات الإعرابية بلغت الكتابة العربية مرحلة النضج، ولم يطرأ عليها أي تغير فيما بعد، وكل ما حدث لها من تطور بعد الخليل لم يخرج عن إطار تحسين الخطوط وتجميلها.

٤) صناعة الورق: في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) انتقلت صناعة الورق إلى بغداد، بعد معرفة العرب بها عن طريق الصينيين. ولا

شك أن صناعة الورق كانت تمثل نقلة مهمة في تاريخ المخطوط العربي، فهو أرخص من الرق بكثير، وأقوى من البردي بكثير أيضًا. وقد أتاحت صناعته في حاضرة الخلافة العباسية أن يتوافر بكميات كبيرة وبأسعار معقولة، تجعله في متناول أوساط الناس من العلماء وطلاب العلم. لذا، كثرت أعداد المخطوطات وتضخمت أحجامها، فقد كانت كميات الرق محدودة وأسعاره باهظة، بينما كان البردي من الهشاشة بحيث لم يتحمل الثَني ولا كثرة الاستخدام، ولم تُعمل منه كتب على شكل كراس، وإنما كان الشكل الأمثل له هو اللفافة. أما الورق كان يصلح لأن تُعمل منه الكتب. ولذا أعطت صناعة الورق في بلاد العرب دفعة قوية للمخطوط العربى.

٥) الوراقة: هي عملية صناعة الكتاب من نسخ وتجليد وتوزيع. وكان الوراقون يقومون بما تقوم به المطابع ودور النشر، فيحصلون من المؤلف على ما يمكن تسميته «حقوق التأليف»، ويقومون بنسخ الكتاب وتسويقه أو بيعه لطلاب العلم. وقد أسهم هؤلاء بدور كبير في إنتاج المخطوطات وتداولها، وفي نشر الثقافة، وكانت حوانيتهم مركزًا للنشاط العقلي وملتقى للمثقفين في زمانهم. ورغم اتهاهم بأنهم زادوا في معجم العين وأخطأوا في تبييض الصحاح، ورغم أن بعضهم اتُّهم بنسبة الكتب إلى غير أصحابها، إلا أن دورهم في نشر الثقافة العربية وإثرائها لا يُنكر.

إذن في أواخر القرن الثاني الهجري، استطاع المخطوط العربي أن يتغلب على كل المعوقات التي ربما كانت تحدّ من انطلاقه، وأصبح كل شيء مهيأ لدخول مرحلة جديدة. لذا كان القرنان الثالث والرابع فترة انطلاق واسعة المدى للمخطوط العربي تأليفًا وترجمةً. ففي هذين القرنين حدث ما يلي:

• ظهور المؤلفين العظام؛ كالجاحظ والكندي والطبري والرازي والأصفهاني والفارابي والخوارزمي والبيروني وابن سينا.

• غصَّت أسواق الوراقين بحوانيت الوراقة التي بلغت أكثر من مائة في بغداد وحدها في أواخر القرن الثالث الهجري.

• ظهور مجالس الإملاء وانتشارها في الحواضر الإسلامية وفي مقدمتها بغداد عاصمة الخلافة ومركز النشاط العلمي. وتعد مجالس الإملاء بمثابة مجالس علم أو محاضرات في الموضوعات التي تهم الناس، يتحدث فيها كبار العلماء ويكتب عنهم جمهور الحاضرين. فالمجلس الذي يحضره ألف شخص ينتهي بألف نسخة مما قاله الشيخ، أو بعدد من النُّسَخ يقترب من الألف. وهذه النسخ تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا في الشكل والمضمون. فكل نسخة تتميز عن غيرها من النسخ بنوع الورق وحجمه وطول السطور وعددها في كل صفحة، كما تختلف في نوع الخط وحجمه ولون المداد المكتوب به. فإذا أضفنا إلى ذلك أن السامعين يتفاوتون في دقة السماع وفي سرعة الكتابة وفي المستوى اللغوي والإملائي، أدركنا سببًا آخر لاختلاف النُّسخ. فنسخة كتبت كل ما قاله الشيخ أو معظمه، ونسخة أخرى فاتها كثير مما قيل في المجلس. ناهيك عن أخطاء السماع وعن الأخطاء النحوية والإملائية التي تختلف من نسخة إلى أخرى بسبب اختلاف السامعين في مبلغ علمهم بالنحو والإملاء. يضاف إلى ذلك أن المؤلف قد يملي الموضوع الواحد أو الكتاب الواحد في أكثر من مكان، فيختلف النص هنا عن هناك، وينتج عن ذلك عائلتان من نُسَخ الكتاب الواحد.

فائدة: لعل أبرز دليل على أن المخطوطات العربية قد كثرت في هذين القرنين ما سجله النديم في كتابه الفهرست وأحصاه من مؤلفات عربية ومعربة في شتى فروع المعرفة حتى سنة ٣٧٧ هـ. ويعد الفهرست أشمل وثيقة تبين ما وصلت إليه الحياة العلمية للمسلمين في العصر العباسي. ويبدو أن ذلك ما حدا بالعالم التركي الشهير فؤاد سزكين إلى التوقف بكتابه «تاريخ التراث العربي» عند سنة

٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م، إشارة منه إلى أن هذا التاريخ يعد حدًا فاصلًا بين أكثر عصور التراث العربي ازدهارًا، وبين ما تلاه من عصور أقل ازدهارًا ونضوجًا.

٦/٣/٦ العصر العثماني (٦٩٩-١٣٤١ هـ)

اهتم سلاطين وخلفاء آل عثمان بالعلم والعلماء، والكتب والمكتبات، فأثمر ذلك الاهتمام الحضاري العثماني ما يوجد حاليًا في تركيا من مخطوطات إسلامية، تغطي معظم أنواع العلوم والمعارف. ويقدر عدد المخطوطات الموجودة في مختلف أنحاء تركيا بـ ٢٥٠ ألف مجلد، منها أكثر من ١٦٠،٠٠٠ مجلد بالعربية، وحوالي ٧٠،٠٠٠ مجلد بالتركية، وأكثر من ١٣،٠٠٠ مجلد بالفارسية، فضلًا عن المخطوطات المكتوبة باللغات اليونانية والأَرمنِية والسريانِية وغيرها.

يتبين لنا من خلال استقراء التاريخ أنَّ المكتبات الإسلامية العثمانية قد نشأت في الأناضول وبورصة وأدرنة وإسلامبول وسراي ايفو وباقي مدن ديار الخلافة العثمانية. وورثت المكتبات العثمانية مخطوطات من المكتبات الأموية والعباسية والسلجوقية والمملوكية، كما بدأ ازدهار المكتبات العثمانية مع استقرار العثمانيين منذ بداية سلطنة عثمان الأول سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩ م، وازدادت ازدهارًا بعد فتح بورصة محطَّ رحال العلماء.

وفي عهد السلطان محمد الفاتح، أصبحت المكتبات العثمانية مكتبات عالمية، إذ شجع العلماء على التأليف، والمترجمين على الترجمة، والنساخ على استنساخ المخطوطات، واقتفى أثره ولده بايزيد الثاني سليم الأول الذي ورثت في عهده المكتبات العثمانية بعض مخطوطات المكتبات المملوكية.

حصلت نقلة نوعية في تطور المكتبات العثمانية فبلغت الذروة في عهد الخليفة سليمان القانوني. ولم تتوقف حركة إثراء المكتبة بالمخطوطات، بل استمرت في عهود الخلفاء العثمانيين الذين جاؤوا بعد سليمان القانوني، والوقفيات تؤكد لنا أن

محمود الأول قد افتتح رسميًا مكتبة آيا صوفيا سنة ١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠ م، وافتتح مكتبة الفاتح سنة ١١٥٥ هـ/ ١٧٤٢ م.

٦/٤ النكبات التي تعرض لها المخطوط العربي

نسلط الأضواء فيما يلي على بعض النكبات التي حلت بالمخطوط العربي طوال عهد الدولة الإسلامية.

١) نكبة ملوك الطوائف: في مطلع القرن الخامس الهجري بدأ الوهن يدب في جسد الأمة الإسلامية، وحدثت فيها الكثير من النكبات التاريخية؛ كسقوط الأندلس، منذ انهيار الخلافة الأموية فيها أواخر القرن الرابع الهجري، وجاء عصر ملوك الطوائف منذ سنة ٤٢٢ هـ. ولم يكن مستغربًا أن تأتي تلك الصراعات الدامية على أعداد هائلة من المخطوطات العربية التي كانت تزخر بها المكتبات الأندلسية.

٢) نكبة الشِّدة المستنصرية: وفي عام ٤٦١ هـ أصيبت مصر بالقحط فيما عُرف بالشِّدة المستنصرية، حتى عجزت الدولة عن دفع رواتب الجند المغاربة، ما دفعهم إلى الانقضاض على خزائن كتب القصر فأحرقوها، بل إنهم اتخذوا من جلود كتبها نعالًا لهم!.

٣) نكبة الحروب الصليبية: والتي بدأت تتدفق على العالم الإسلامي في عام ٤٩٢ هـ، حيث دمرت خزائن الكتب في الشام؛ وعلى رأسها مكتبة بني عمار في طرابلس، وكانت كتبها في ذلك الوقت تقدر في بعض الروايات بثلاثة ملايين مخطوط. ويقدَّر حجم ما أحرقه الصليبيون من هذه المكتبة عند احتلال المدينة عام ٥٠٢ هـ بما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ مخطوط، فضلًا عما عادوا به إلى بلادهم من مخطوطات.

٤) نكبة سقوط الدولة الفاطمية: وذلك في القرن السادس الهجري، إذ سقطت

الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ، وبيعت مقتنيات خزانة كتب الفاطميين بالقاهرة في مزاد أقيم بالقصر واستمر مدة عشر سنين، ويقال إنها كانت تحتوي على مليون مخطوط.

٥) نكبة المغول والتتار: تعرض العالم الإسلامي لهجوم التتار في القرن السابع الهجري في فارس والعراق، فسقطت عاصمة الخلافة بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ، وقضي على الخلافة العباسية تمامًا. وعلى أيدي هؤلاء الغزاة لقيت مكتبة بيت الحكمة مصيرها الفاجع الذي يعرفه الجميع، فأحرق من مقتنياتها ما أحرق، وطُرِح في نهر دجلة منها أعـداد كبيرة حتى قيل إن مياه النهر قد اسـودَّت لكثرة ما ألقي فيها من مداد العلماء.

٦) نكبة سقوط الأندلس: بعد سقوط الأندلس سنة (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م) بقليل، وتحديدًا في مطلع القرن العاشر الهجري سنة ٩٠٥ هـ، أمر الكردينال الأسباني خمنيس بجمع كل الكتب العربية من أهالي غرناطة، بحيث أضرمت فيها النيران، ولم يستثن منها سوى ٣٠٠ من كتب الطب والعلوم حُملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالادي هنارس، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية، تمثل خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في الأندلس، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثاني في قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومطّلع. وما زال بهذه المكتبة إلى اليوم ما يقرب من ١٨٧٠ مخطوطًا عربيًا.

٧) نكبة الحرب العالمية: بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى والثانية، خضعت معظم الدول العربية للاحتلال الأجنبي الغاشم، وكان أمرًا طبيعيًا أن تستقر أعداد كبيرة من تراثنا المخطوط في مكتبات الدول التي أغارت على المنطقة

العربية في العصور الوسطى، والتي احتلتها في العصر الحديث، فقد عاد الغزاة إلى ديارهم بالكثير من نفائس هذا التراث، وإن عنيت به المكتبات الغربية عناية شديدة، حفظًا وصيانةً وترميمًا وضبطًا وفهرسةً وتنظيمًا، إلا أنه تراثنا المفقود على أي حال.

وكذا نرى أن الفتن الداخلية على اختلاف أسبابها من سياسية واقتصادية ودينية، قد تضافرت مع الفتن الخارجية أو الغزو الخارجي في تدمير ذخائر التراث العربي المخطوط. وأضيف إليها عوامل أخرى بعضها يتصل بالبشر، وبعضها الآخر يتصل بالظروف البيئية، كالإهمال وعدم الوعي بقيمة المخطوطات من ناحية، والظروف الجوية التي لا تساعد على احتفاظ المخطوطات بحالتها المادية من ناحية أخرى.

٦/٥ استقرار المخطوطات العربية

لقد استقرت مخطوطاتنا العربية في عددٍ من المكتبات المختلفة، بيانها على النحو التالي ملخصًا:

١) المكتبات الغربية: استقرت أعداد كبيرة من المخطوطات العربية في المكتبات الغربية، كما استقرت أعداد كبيرة منها في مكتبات الأفراد الذين شغفوا بالشرق وتراثه، ويكفي أن نذكر مكتبة جون رايلاندز بمانشستر (بإنجلترا)، فقد كان الرجل ممن افتتنوا بالتراث العربي وجمعوا بعض نفائسه، فلما توفي أرادت أرملته أن تخلِّد ذكراه، فأنشأت مكتبة ضخمة تحمل اسمه وتضم بين جنباتها عددًا كبيرًا من المخطوطات العربية والمصاحف التي يرجع بعضها إلى القرن الثامن الميلادي.

٢) مكتبات المساجد: استقرت أعداد كبيرة من المخطوطات لدى المساجد في العالم العربي؛ والسبب في ذلك أن المساجد ارتبطت بالكتب والمكتبات

منذ عصور الإسلام الأولى، لأنها كانت أماكن التعليم قبل أن تنشأ المدارس، ولأن كثيرًا من العلماء كانوا يوقفون كتبهم على المساجد ابتغاءً لثواب الله من ناحية، وضمانًا لسلامتها واستفادة الناس بها من ناحية أخرى، فقد كانت المساجد أكثر الأماكن أمنا في أيام الفتن والحروب والثورات، وكانت في الوقت نفسه الأماكن العامة الوحيدة التي لا يمنع أحد من دخولها. وما زالت بعض المساجد الكبرى تحتفظ بآلاف مؤلفة من المخطوطات مثل مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس بالمغرب.

٣) المكتبات الوطنية: وهي المنوطة بحفظ تراث الأمم مخطوطًا ومطبوعًا. ولهذا تجمَّع أكبر عدد من مخطوطات مصر في دار الكتب المصرية، أقدم مكتبة وطنية في العالم العربي. وكثير من تلك المخطوطات آل إليها إهداءً ووقفًا من أصحابها أمثال أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا وأحمد طلعت باشا.

٤) المكتبات الجامعية: نهضت المكتبات الجامعية بتجميع التراث المخطوط في الدول التي تأخرت فيها نشأة المكتبات الوطنية، كما هو الحال في السعودية التي زخرت مكتبات بعض جامعاتها مثل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأعداد كبيرة من المخطوطات الأصلية والمصورة.

٦/٦ بقاء التراث العربي المخطوط

رغم ما تعرض له التراث العربي المخطوط من نكبات تاريخية فادحة، إلا أن سر بقائه متداولًا قد يكمن في الأبعاد الثلاثة التالية:

١) البعد الزماني: لم يقدر لأية لغة من اللغات القديمة أو الحديثة أن تبقى وتمتد بها الحياة أكثر من ألف عام بلا تحريف أو تبديل في مفرداتها وقواعدها

النحوية والصرفية، مثل ما قدر للغة العربية التي تكلم بها العرب في العصر الجاهلي، وإذا ما اطلعنا على إنتاج فكري يعود بنسبه إلى هذا العصر كالشعر مثلا، فلا نجد تعسرًا في قراءته إلا ما يقع أحيانًا بسبب عدم معرفتنا ببعض الأماكن الجغرافية التي يأتي ذكرها في الأشعار القديمة، وهذا لا ريب ليست له علاقة بأصل اللغة نحوًا وصرفًا. وإذا ما اختبرت لغةً أجنبيةً كالإنجليزية مثلًا، وحاولت أن تقرأ نصوصًا إنجليزية قديمة، فلن تستطيع، بل إن المثقف الانجليزي نفسه اليوم لا يملك أن يقرأ ويفهم ما كتب بهذه اللغة قبل ستة قرون. ومما ساعد على بقاء التراث العربي مخطوطًا بلغته العربية في ضوء هذا البعد الزمني: تأخرُ دخول الطباعة إلى العالم العربي والإسلامي حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومشارف القرن التاسع عشر الميلادي، بسبب اختلاف تاريخ دخول الطباعة إلى كل بلد عربي.

٢) البعد المكاني: إن انتشار الكتابة العربية كان بقدر انتشار الإسلام في البلدان المفتوحة، حيث تخلت تلك البلدان عن لغاتها المحلية شيئًا فشيئًا، واتخذت العربية لغةً للتفكير، كما حدث في مصر والأندلس وفارس. وفي سنوات معدودة استطاعت العربية التي كانت محصورة في شبه الجزيرة العربية أن تبتلع الكثير من اللغات المحلية، وأن تصبح لغةً عالميةً تكتب بها كل الشعوب الإسلامية.

٣) البعد الثقافي: قاد علماء المسلمين العرب مسيرة التقدم العلمي في شتى فروع المعرفة الإنسانية عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، ما دعا إلى ترجمة هذه المعرفة الثقافية العربية إلى اللاتينية في القرن السادس الهجري، بحيث صارت العربية لغةً للثقافة والحضارة، على غرار الإنجليزية اليوم، فهي لغة العلم في العصر الحديث.

الفصل السابع

مقومات صناعة المخطوط العربي وملامحه الفيزيقية

٧/٠ تمهيد

يبحث هذا الفصل في أحد محاور علم المخطوط العربي؛ ألا وهو: صناعة المخطوط وتقنياتها وتطورها عبر العصور المختلفة التي تقلب خلالها هذا الوعاء الفكري، فضلًا عن دراسة الحالة المادية أو الفيزيقية للمخطوط؛ أي بنيته المادية: القوادم ـ المتن ـ الخواتم، وما يتعلق بصناعة التأليف باعتباره وعاءً للمعرفة الإنسانية، وتقتضي الدراسة الكوديكولوجية العربية لصناعة الكتاب المخطوط التعرف على كيفية هذه الصناعة، والأدوات التي استخدمها النساخون والخطاطون والمزخرفون عند إنتاجه.

٧/١ المواد التي يكتب عليها (حوامل الكتابة)

استخدم الإنسان على مر التاريخ العديد من المواد المعدنية والنباتية والحيوانية للكتابة عليها. ومن أبرز المواد التي استخدمت في العالم الإسلامي لصناعة الكتاب المخطوط على شكل كوديكس كلٌّ من: البردي ـ الرق ـ الورق، ولم يكتب المخطوط العربي إلا على هذه الحوامل الثلاثة.

١/١/٧ البردي Papyrus [1]

يستدعي ذكر البردي في المنطقة العربية الإسلامية ذكر الوثائق التي لا تدخل في نطاق دراسة علم المخطوطات؛ مثل الرسائل والعقود والوثائق الإدارية وغيرها. أما بالنسبة لكلمة بردي، فإنها تشير إلى اسم هذا النبات الطبيعي الذي كان ينبت في مصر طوال القرون الأولى للإسلام، كما أنه وجد في فلسطين وبلاد ما بين النهرين وصقلية. ويعرف البردي عند العرب بمصطلحات أخرى؛ مثل: القرطاس ـ ورق القصب ـ ورق البردي.

من الناحية التاريخية، يرجع استخدام البردي كحامل للكتابة إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م. وعرف هذا الورق واستخدم في جزيرة العرب قبل الإسلام بمدة كبيرة. ومع انطلاق الدولة الإسلامية في القرن الأول الهجري، فتحت المناطق التي ينمو فيها نبات البردي، فاستخدم في أمور كثيرة وظل مستخدمًا كذلك حتى منتصف القرن الرابع الهجري.

من الناحية العملية، توقفت صناعة البردي في القرن الخامس الهجري، بعد ظهور الورق منافسًا له. ولم يصل إلينا كتاب مكتوب على ورق البردي، لأن مثل هذه الكتب لو كانت موجودة أصلًا، لما استطاعت أن تبقى وتتحمل الظروف الجوية السائدة في المنطقة العربية، حيث الحرارة والجفاف والبرودة وغيرها من العوامل المؤثرة.

وحسب الوصف المفصل لبليني أو بلينيوس الأكبر (٧٩ م) في كتابه «التاريخ الطبيعى»، فإن ورق البردى كان يصنع من ساق تلك النبتة التى توجد تحت الماء، والتى يمكن أن يصل عرضها إلى عرض يد الإنسان. وهذه طريقة صناعته:

(١) من بين العلوم المساعدة لعلم الآثار علم يهتم بدراسة البرديات القديمة، يعرف بعلم البرديات البابيرولوجي *Papyrology*.

- بعد إزالة الورقة الأمامية، تقسم الساق إلى شرائح طولية (حوالي متر).
- ثم توضع الشريحة فوق الأخرى بشكل عمودى.
- تغمر الشرائح بمياه النيل، ثم تجفف تحت أشعة الشمس وتصقل.
- تسوى أطراف الورقة، بحيث لا يتعدى طول الصفحة ٢٥-٣٠ سم.

ومن مزايا البردي:

√ رخص سعره المادي.

√ سهولة الحصول عليه وإنتاجه بكميات كبيرة.

ومن عيوب البردي:

√ لا يصلح إلا أن يكون درجًا أو لفافة.

√ إذا طوي تقصف سريعًا، وتغيره حاله، ولم تحسن الكتابة عليه.

√ صعوبة القراءة؛ فينبغي استخدام اللفافة باليدين، لفكها وطويها.

√ صعوبة الإشارة إلى نص سابق أو لاحق داخل اللفافة.

لقد أدت صعوبة التحول من اللفافة إلى الكوديكس أو الكتاب الرأسي برجال الدين والقانون زمان الإمبراطورية الرومانية إلى التفكر في استحداث شكل جديد للكتاب، يسهل استخدامه ويسمح بكتابة النصوص الطويلة. وتمثل هذا الشكل فيما عرف بالكراس أو الكوديكس. ولكن التحول من استخدام الدروج واللفائف إلى استخدام الكراريس قد استغرق ما يقرب من قرنين من الزمان، ولم يتم في يوم وليلة.

ولقد استعمل البردي في كتابة المخطوطات وزخرفتها، وتم نسخ الكتب الدينية المسيحية على ورق البردي، كما قام العلماء والناسخون بكتابة العلم ونسخ

المصحف على أوراق من البردي، ويضم معرض دار الكتب المصرية مجموعة من المصاحف المخطوطة، منها مصحف مخطوط بالقلم الكوفي على ورق من البردي، كما تذكر بعض المصادر أن أقدم مخطوط عربي عثر عليه يرجع لسنة ٢٢٨ هـ مكتوبًا على ورق بردي مكونًا من ٢٧ ورقة مصنوعًا على شكل كراس!

٧/١/٢ الرَّقّ

عرف العرب الرق واستخدموه في الكتابة قبل أن يعرفوا البردي ذاته، فقد أشرنا إلى هذه المادة في سياق مناقشة معرفة العرب بأدوات الكتابة العربية في الجاهلية، وكان الرق من بينها. لقد ارتبطت صناعة المصحف الشريف وإنتاجه ارتباطًا وثيقًا بالرق، فهو المادة الأكثر احتمالًا والأجمل مظهرًا وشكلًا، حيث كتبت مصاحف الخلفاء والأمراء والوزراء على مدى قرون من الزمان اعتمادًا على الرقوق، وبصفة خاصة في تلك المناطق التي تطورت فيها دباغة الجلود وصناعة الرقوق، كما هو الحال في بلاد المغرب العربي والأندلس ومصر واليمن.

أما بالنسبة للمخطوطات العربية المكتوبة على الرقوق، فقد وصل إلينا منها عددٌ لا بأس به، ويعود السبب وراء ذلك إلى قوة تحمل هذه المادة، وربما يعود السبب أيضًا إلى أن استخدام الرق كان مكلفًا من الناحية المادية، حيث لم يكتب عليه إلا لذوي الجاه والمال، ومن ثم حظيت تلك الكتب بقدرٍ مناسب من العناية والحفظ، فضلًا عن أن أكثر هذه الكتب مصاحف شريفة، والتي كانت تمثل موضع اهتمام المسلمين في الزمان والمكان.

٧/١/٣ الورق

قياسًا إلى البردي، يعد الورق أقوى وأكثر تحملًا، وأصلح لصناعة الكتب على شكل كراس، كما أنه يتفادى عيوب البردي وصعوباته. وقياسًا إلى الرق، يعد الورق أرخص ثمنًا وأقل سمكًا وأخف وزنًا، ولا يطرأ عليه تغير في اللون

(لأن الرق يتعرض للصفرة) أو فساد الرائحة (لاحتوائه على مواد بروتينية)، كما أن الرق يقبل المحو والكشط والإعادة فيقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متى محي منه شيء فسد، وإن كُشط شيء ظهر موضع الكشط عيانًا. لذا، أمر هارون الرشيد (١٩٣ هـ) ألا يكتب الناس إلا في الورق.

لقد عُرفت صناعة الورق في الصين في مطلع القرن الثاني الميلادي على يد تساي لون (١٠٥م)، وظلت صناعته حكرًا على الصينيين حتى منتصف القرن الثامن الميلادي. وكانوا يستخدمون النباتات ولحاء الأشجار في صناعته، حيث تغمر هذه المواد في الماء، ثم تُضرب وتُقلب حتى تصبح عجينة، ثم تصب العجينة على حامل مصنوع من الخيزران (البامبو *Bamboo*)، حتى يصفى من خلاله الماء الموجود في العجينة، ثم تجفف رقائق الورق تحت الشمس.

ولما فتح المسلمون العرب سمرقند (مدينة كبرى في أوزباكستان) سنة ٨٧ هـ، استطاعوا أن يعرفوا تلك الصناعة عن طريق بعض الأسرى الصينيين من صناع الورق. ومن العرب انتقلت صناعة الورق إلى جميع أرجاء العالم، بسبب اتساع رقعة الدولة الإسلامية زمان الخلافة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ)، وقد بنى هارون الرشيد أول مصنع للورق في بغداد سنة ١٧٤ هـ، حتى وصلت تلك الصناعة إلى أوربا في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي عن طريق الأندلس، حيث انتقلت الصناعة إلى إيطاليا وفرنسا أولًا، ثم إلى بقية القارة الأوربية.

ومن الطريف أن نوعية الورق المستخدم في الكتابة يختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر، وقد كثر الحديث في كتب التراث العربي، سيما كتاب الفهرست للنديم وصبح الأعشى للقلقشندي عن الملامح المادية المميزة للورق بأنواعه المختلفة. وقد تعددت أنواع الأوراق المستخدمة في المخطوط العربي؛ مثل: الورق السمرقندي والبغدادي والشامي والحموي والمصري.

إن من يتعامل مع المخطوطات العربية عليه أن يكون على دراية بنوعية الورق المكتوب عليه، لأن هذه المعرفة سوف تكفل له:

o تحديد الفترة الزمنية التي يرجع إليها المخطوط.

o تحديد المكان الذي صُنع فيه.

o اكتشاف التزوير الذي قد يقع في تواريخ بعض المخطوطات مقارنةً بنوعية الورق المستخدم، وإلى أي زمان يعود.

٧/٢ المواد التي يكتب بها

١٧/٢/١ الأمدة (الأحبار)

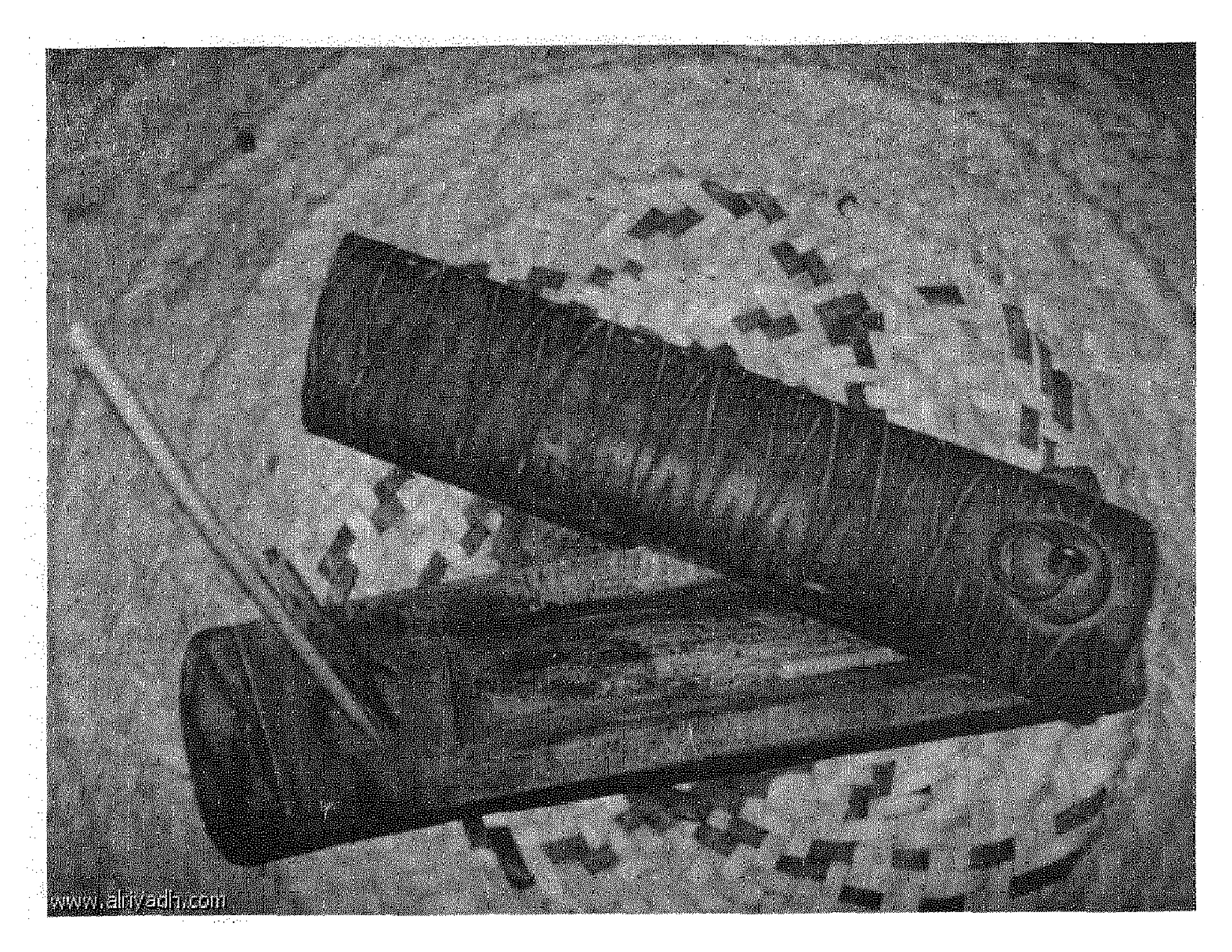
عرف العرب نوعين من المداد:

١. الحبر المطبوخ: يتصف بالبريق واللمعان ويناسب الكتابة في الرق.

٢. حبر الدخان: سريع الزوال، ويناسب الكتابة على الورق.

وقد حرص المؤلفون والنساخ على استخدام ألوان معينة لأجل تمييز بعض المواضع في المخطوط العربي؛ من ذلك ما يلي:

- ماء الذهب: استخدم لتمييز أسماء السور في المصاحف.
- الأحمر: استخدم لتمييز العناوين وبعض الكلمات في المخطوطات.
- الأسود والأسود المائل للاخضرار: كانا اللونان السائدان في الكتابة.



شكل (٢٣) المحبرة من أدوات صناعة المخطوط العربي

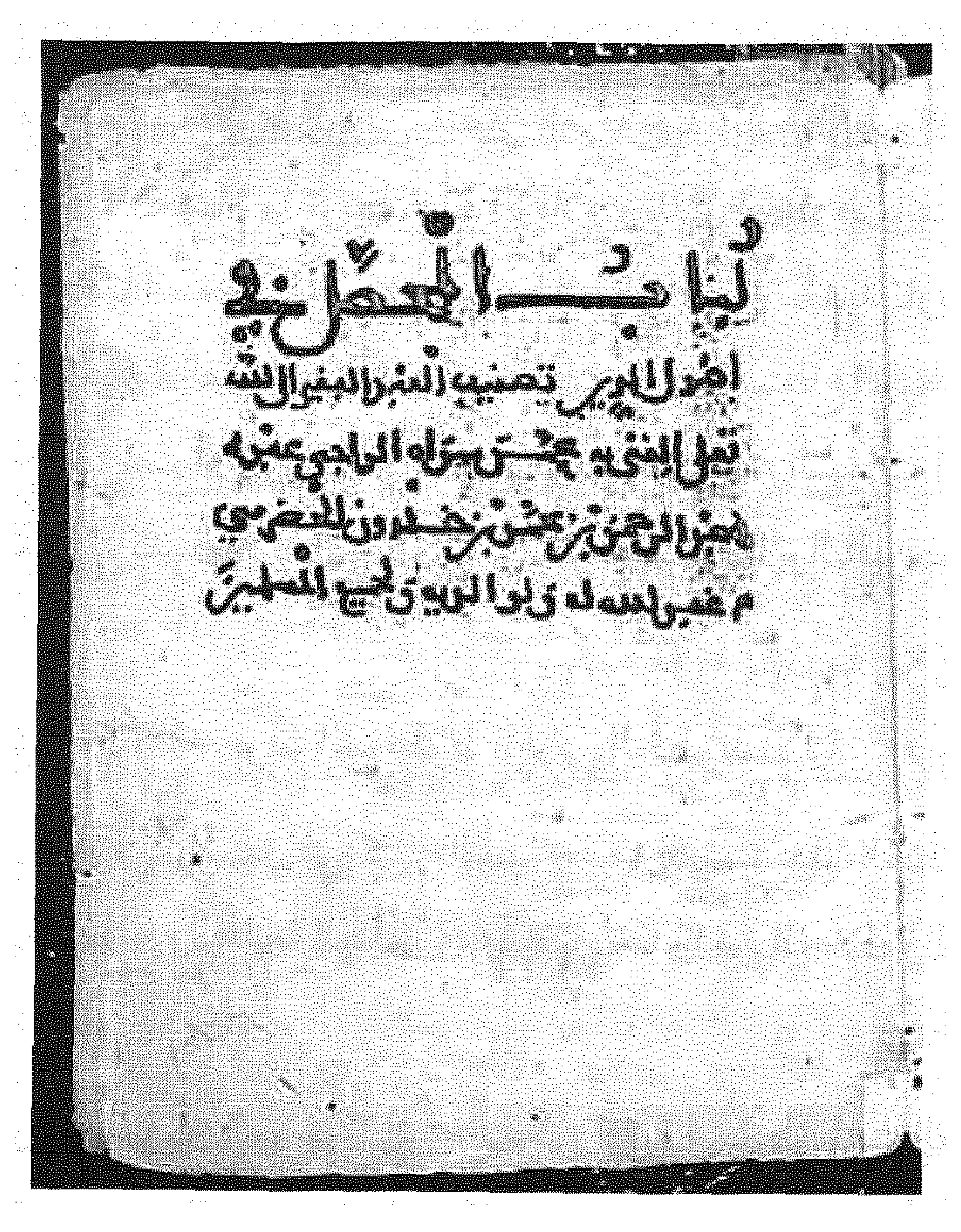
٢/٢/٧ الأقلام (الخطوط)

تُعَدُّ دراسةُ الأقلام Grammatology (الجراماتولوجي) من العلوم المهمّة في مجالات عدة مثل: اللغويات، والآثار، والترجمة، وتاريخ اللغات. ويقصد بالأقلام عمومًا نوعية الخطوط العربية التي استخدمها العرب في كتابة مخطوطاتهم، إذ تستخدم لفظة قلم أو خط للدلالة على معنى واحد، كأن تقول: مخطوط عربي مكتوب بالخط أو بالقلم الديواني. ونظرًا لأن من كتب المخطوط العربي لم يكن المؤلف فقط، وإنما ظهرت فئة أخرى من الوراقين أو النساخ يكتبون مقابل مبلغ من المال. وهنا يحسن التمييز بين أقلام العلماء وأقلام الخطاطين على النحو التالي:

يتفاوت العلماء في درجة إتقانهم لاستخدام القلم في الكتابة، فمنهم من كان حسن الخط ومنهم من كان سيئًا. وفي هذا المعنى يقول العلامة المحدث الشيخ حمَّاد بن محمَّد الأنصَاري: «خط السيوطي أحسن من خطّ ابن حجر، وخطّ ابن حجر أحسن من خط ابن عبد الهادي، و خطّ ابن تَيمِيَّة رديء». وقال الحافظ ابن كثير: «الشيخ أبو عبدالله بن رشيق المغربي، كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله». وحول رداءة خط شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله، يقول الشيخ حماد الأنصاري: «اجتمعنا مرة مع الشيخ ابن قاسم، ونحن أربعون رجلًا، في مكان اسمه المُغيدر ـ وهو قرب الرياض ـ فأخذنا بعض فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية نقرأ فيها، وكانت بخط شيخ الإسلام، فما استطعنا مواصلة القراءة بسبب صعوبة قراءة خطه، وأخذنا على ذلك أربعة أيام نحاول قراءته».

الصفحة الأخيرة من رسالة كلها بخط « ابن تيمية » محفوظة في مخلفات الشيخ عبد القادر المغربي ، في دمشق

شكل (٢٤) رسالة توضح صورة خط ابن تيمية


لباب المحصل في
أصول الدين تصنيف العبد الفقير إلى الله
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

شكل (٢٥) صورة لصفحة عنوان كتاب «المحصل في أحوال العرب» لابن خلدون بخط يده

٧/٢/٢/٢ أقلام الوراقين

تميزت الكتب التي كتبها الوراقون بكبر أحجامها؛ فقد حرص البعض على تضخيم الخط وتوسعة المسافات بين الكلمات وبين السطور، ليزداد عدد أوراق النسخة المكتوبة فتزداد أجورهم تباعًا. إذن، فنسخة العالم من كتابه قد تقع في عددٍ من الأجزاء، أما نسخة الوراق قد تقع في عشرات الأجزاء. وفي التراث العربي ما يؤكد تلك الحقيقة بالفعل. ولم تسلم الكتب التي ينسخها بعض الوراقين من الأخطاء الإملائية واللغوية، نظرًا لضعف ومحدودية ثقافتهم المعرفية باللغة العربية.

٧/٢/٢/٣ نوعية الأقلام

إن التعامل مع المخطوط العربي يقتضي معرفة جيدة بالخطوط والأقلام العربية التي كتب بها، لأن كثيرًا ما ترتبط هذه الأقلام وتلك الخطوط بالفترات الزمنية التي تقلب خلالها المخطوط العربي، وربما استطاع المرء تحديد تاريخ مخطوطة معينة إذا عرف نوعية القلم المستخدم في الكتابة، وربما استطاع المرء معرفة كاتب المخطوطة؛ المؤلف أم الوراق أم الناسخ في ضوء دراسة السمات الباليوجرافية للخط. وكذا، تتأكد العلاقة الوثيقة بين الكوديكولوجيا والباليوجرافيا بصورة ملحوظة.

وعلى أي حال، فقد عرف المخطوط العربي الخطوط الآتية:

- الخط الكوفي، اشتهر في كتابة المصاحف، إذ تميز هذا الخط بالاستقامة والميل إلى التضليع والطبيعة الهندسية، ما يضفي قدرًا من الجلال والقداسة على النص المكتوب.

- الخطوط اللينة أو المرسلة: اشتهرت في كتابة المخطوطات العادية، لأنها أطوع في يد الكاتب وأكثر مرونة وأوفر للوقت بطبيعة الحال. ومن أشهرها: (قلم الجليل ـ قلم الطومار الكبير ـ قلم النصف الثقيل ـ قلم الثلث الكبير الثقيل ـ قلم التوقيع ـ قلم الرقاع ـ قلم الغبار ـ قلم النسخ ـ قلم التعليق ـ قلم النستعليق ـ قلم الرقعة... وغيرها.

٧/٣ فنون المخطوط

كان من الطبيعي أن يطرأ على المخطوط العربي نمط من الفنون الزخرفية التي تعكس ذوق الفنان العربي المسلم، في حدود ثقافته وخبرته عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، فلم تقتصر صناعة المخطوط على المعرفة بأدوات الكتابة، وإنما حُليت كثير من المخطوطات بألوان مختلفة من الزخارف الجمالية في بدايتها ونهايتها،

سيما المصاحف الشريفة. وهذا البعد يعكس نمطًا من أنماط الرفاهية والترف التي تعرض لها المخطوط. وقد يحسن التمييز بين طبيعة الفنون التي عرفها المخطوط العربي على النحو التالي:

٧/٣/١ الزخارف

عرفت الزخارف طريقها إلى المصاحف منذ القرن الثالث الهجري، إذ امتلأت صفحاتها الأولى والأخيرة بأشكال هندسية ونباتية ملونة ومذهبة. وقد ابتدع العرب فنين من فنون الزخرفة هما:

١) فن الأرابيسك: الذي يعتمد على تركيبة متشابكة من الأشكال الهندسية والنباتية (فروع وسيقان وأوراق وأزهار). وقد استخدم هذا الفن في زخرفة المصاحف والمخطوطات، فضلًا عن زخرفة المساجد والمباني وقطع الأثاث.

٢) فن الزخرفة الخطية: يتعلق هذا الفن بتجويد الخط واستخدامه عنصرًا جماليًا في المخطوط، ولا يوجد ما يماثل هذا الفن العربي الأصيل لدى أية حضارة أو ثقافة كانت، فقد استغل المسلمون ما في الحروف العربية من استقامة وتقوس في وصل الحروف بعضها البعض، فضلًا عن وصلها بالرسوم الزخرفية، ما أسفر بالضرورة عن أشكال هندسية بديعة غير مسبوقة.

٧/٣/٢ التصاوير الملونة

عرف المخطوط العربي التصاوير الملونة، فعندما تطالع كتاب كليلة ودمنة مثلًا؛ ترجمة ابن المقفع (١٥٨ هـ)، سوف تجد أنماطًا مختلفة من الصور الملونة للحيوانات والطيور. وامتدت تلك التصاوير إلى كتب الطب والحيوان والنبات والبيطرة وعلوم الحياة، وعرفت كتب الهندسة والفلك والكيمياء بعض الأشكال

التوضيحية اللازمة لإتمام عرض المادة العلمية؛ ومن أمثلة المخطوطات التي حوت هذا النمط من الزخرفة: كتاب صور الكواكب للصوفي (٣٧٦ هـ)، وكتاب عجائب المخلوقات للقزويني (٦٨٢ هـ)، كما زودت كتب الجغرافيا بالخرائط الملونة، مثل كتاب صورة الأرض (المسالك والممالك) لابن حوقل (٣٦٢ هـ)، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (٣٨٠ هـ) وغيرها.

٧/٤ الملامح الفيزيقية للمخطوط العربي

٧/٤/١ أبعاد المخطوط

لم يكن للمخطوط العربي أحجام ثابتة على النحو المعمول به في الكتب المطبوعة اليوم، ولم يكن من الملزم أن تتساوى أوراق المخطوط الواحد منذ القرون الأولى. وقد أشارت المصادر إلى وجود حجمين متقاربين للمخطوطات في القرون الأولى للهجرة: الأول: مقاس ٢٥×١٨ سم؛ الثاني: مقاس١٨×١٢ سم.

٧/٤/٢ صفحة العنوان

لم يكن المسلمون في عصورهم الأولى يخصصون صفحة معينة، يسجلون فيها عنوان المخطوط. وقد جرت عادة النساخ أن يبدأو الكتابة على ظهر الورقة الأولى من المخطوط (١ ب)، ويتركوا وجهها خاليًا (١ أ). وذلك من أجل المحافظة على المداد من العبث بالأيدي، كي لا يتلف بسبب كثرة تداول المخطوط إلى أن يتم تجليده. وبعد فترة معينة، اتجه النساخون إلى استخدام وجه الورقة الأولى (١ أ) في تسجيل عنوان المخطوط عليه. ومع مرور الزمن، حرص هؤلاء على تخصيص صفحة منفصلة لتسجيل عنوان المخطوط مختصرًا في البداية، بجانب ذكره في المقدمة كاملًا. إذن: لم يعرف العرب صفحة العنوان في بداية مخطوطاتهم.

أما عنوان الكتاب واسم مؤلفه، فكانا يردان في مقدمة الكتاب بعد قسم كبير

من الكلام أو التمهيد، أو ربما آتيا في نهاية الكتاب، بحيث لم يكن العنوان متميزًا عن النص بخط أو لون معين، ثم رأوا بعد ذلك تمييزه بلون مخالف لمداد الكتابة، فكتبوه باللون الأحمر في أكثر الحالات.

كذلك الحال بالنسبة لعناوين الفصول والعناوين الجانبية، حيث لم تكن تميز إلا أن تكتب في وسط السطر. وبعد ذلك بدأوا يستخدمون الخط الكوفي في تمييز مثل تلك العناوين، ثم في مرحلة تالية استخدموا اللون الأحمر في تمييزها.

٣/٤/٧الاستهلال أو المقدمة (بداية المخطوط)

لم يخلو أي مخطوط عربي من المقدمة، فكان يبدأ المخطوط بالبسملة والحمدلة والدعاء والتصلية. وعادةً ما تتكون المقدمة من أمور عدة تكشف عن خفايا المخطوط وأسراره وهي: عنوان المخطوطة؛ اسم المؤلف؛ موضوع الكتاب؛ عناوين الأبواب والفصول؛ منهج التأليف؛ الهدف من الكتاب؛ معرفة بداية المخطوط؛ معرفة المؤلفات الأخرى للمؤلف؛ معرفة أساتذة المؤلف وتلاميذه. وعادةً ما تكون المقدمة من صنع المؤلف، وربما تكون من صنع التلميذ أو الناسخ.

ويرى البعض أن هذا الاستهلال كان يؤدي عددًا من وظائف الملامح المادية الكتاب المطبوع في العصر الحديث؛ وهي: صفحة العنوان ـ قائمة المحتويات ـ مقدمة الكتاب ـ قائمة المصادر.

وتعد المقدمة ملمحًا هامًا بالنسبة لمفهرس المخطوط أو محققه. وتكمن أهميتها فيما يلي:

- معرفة مؤلف المخطوط.
- معرفة سبب التأليف.

• معرفة محتويات الكتاب.

• معرفة بداية المخطوط.

• الاستدلال على تاريخ المخطوط.

• الاستدلال على موضوع المخطوط.

• الاستدلال على أبرز مصادر المؤلف في كتابه.

٧/٤/٤ علامات الترقيم

لم يعرف المخطوط العربي من علامات الترقيم في القرون الأولى للهجرة سوى النقطة أو ما يقوم مقامها (كأداة الفصل بين الجمل)؛ مثل الدائرة، والتي كانت تستخدم عوضًا عن النقطة من أجل مهمة الفصل بين الجمل وتتمة الكلام.

وأحيانًا كانت الدائرة تحوي نقطة، وربما يخرج خط من منتصف الدائرة، أو توجد دائرتان متماستان معًا، دلالةً على الفصل. ويبدو أن النقطة التي توجد داخل الدائرة كانت من صنع القراء لتحديد مكان الوقوف عند الانتهاء من القراءة، ثم أصبحت تقليدًا يتبعه النساخ بعد ذلك.

وقد عرف العلماء السابقون من علامات الترقيم ما يأتي:

• الهاء (هـ)، وتُوضع في نهاية الاقتباس، وقد يصرحون بإنتهاء الاقتباس بدون هذه العلامة، فيقولون: انتهى كلام فلان، ونحو ذلك.

• ثلاث نقاط (∴)؛ وتُوضع بين شطري البيت من الشعر.

• علامة رفع التشابه بين الحروف؛ أي كتابة اسم الحرف عند مجيء الحرف في الخط الذي يشتبه مع حرف غير مراد، مثال: (حمل الرجل أمه) فبالكتابة بخط اليد قد يشتبه حرف اللام في (حمل) مع حرف الدال؛ فتصبح (حمد الرجل أمه)؛

لذلك يكتب فوق حرف اللام (لام) بخط صغير؛ للدلالة على أن الحرف هو (لام)، وليس حرفًا آخر، وهكذا في الحروف التي قد تشتبه؛ يكتب اسم الحرف فوقه.

٧/٤/٥ الاختصارات

جرت العادة بين النساخ على اختصار صيغة الإخبار والتحديث، نظرًا لتكرارها في كتب الحديث والتاريخ خاصةً. ومن أمثلة تلك الاختصارات ما يلي:

• مختصرات علم الحديث: (نا، ثنا: حدثنا)، (أنا، أرنا: أخبرنا)، (أنبأ: أنبأنا)، (ح: تحويل للسند الآخر)، (اهـ: انتهى)، (قثنا: قال حدثنا).

• مختصرات القاموس: د: بلدة، م: معروف، ع: موضع، ة: قرية.

• مختصرات أخرى، مثل: (عو: عورضت النسخة إلى هذا الموضع)، (قو: قوبلت النسخة إلى هذا الموضع)، (بلغ: بلغ العرض إلى هنا).

٧/٤/٦ التصويبات والإضافات

عادةً ما تكون التصويبات بسبب الأخطاء الكتابية. وكان الناسخ إذا أخطأ وتنبه للخطأ في حينه: شطبه وكتب الصواب بعده. وعند مراجعة المخطوط بعد نسخه: كانت طريقة تصحيح الأخطاء هي الضرب على الخطأ وكتابة الصواب فوقه. كما كان يُكره استخدام الكشط في المخطوط العربي، وخاصةً بالنسبة لكتب الحديث، لأنه يمثل اتهامًا للناسخ بالجهل بالحديث الشريف، ولأن الكشط نفسه كانت له آثار سلبية تؤثر على مادة الكتابة (الورق أو الرق) مما يضعفها بالضرورة.

أما الإضافات، فإنها تكون بسبب السهو. وإذا كان السهو كلمة أو كلمتين فقط: فإنها تضاف في مكانها بين السطور، أو: تذكر في مكانها، وتذكر مرة أخرى في الهامش الخارجي في مقابل السطر الذي أضيفت فيه. أما إذا كان السهو لأكثر من كلمتين: يتم إضافة الكلام المنسي (جملة مثلًا) في الحاشية أو

الهامش الخارجي. وكيفيته: أن يخط من موضع سقوطه في السطر خط صاعد معطوف بين السطرين عطفة يسيرة إلى جهة الهامش، وهو ما يعرف بالتخريج على الحاشية أو اللحق.

٧/٤/٧ مُسَطَّرةُ المخطوط (التسطير)

تعد المُسَطَّرةُ أداةً من أدوات صناعة المخطوط العربي، وكانت تصنع من الخشب أو المعدن على شكل مربع أو مستطيل، ويحفر عليها خطوط ذات حروف حادة بأبعاد متساوية وبعددٍ معينٍ من السطور، فإذا ضغطت هذه الآلة على الورقة، تركت عليها خطوطًا بارزة (سطور)، فيكتب عليها الناسخ فتستقيم السطور بالصفحة. ورغم ذلك، فإن بعض الباحثين يرى أن النساخين لم يحرصوا أصلًا على تسطير أوراق المخطوط قبل الشروع في الكتابة، إلا أن هذا الرأي ليس بمعتبر بكل حال.

ولم يكن هناك معدل ثابت لعدد السطور في الصفحة الواحدة، بل كان هذا العدد يختلف من صفحة لأخرى داخل المخطوط الواحد. وإن كان المعدل العام في القطع الكبير: ٢٥-٣٠ سطرًا، وفي القطع المتوسط: ٢٠-٢٥ سطرًا، وفي القطع الصغير: ١٢-١٥ سطرًا. وتذكر المصادر أن هذه السطور غالبًا ما كانت أحادية فردية (وترية): ٧، ١٣، ١٥، إلى ٣١ سطرًا، وقد تزيد إلى ٥١ سطرًا، لبيان توحيد الخالق سبحانه. وربما نسي الناسخ فجعل السطور ثنائية.

وكان الكاتب يحرص على توازي السطور معًا ابتداءً وانتهاءً، وأن تكون المسافة بينها واحدة، بحيث تزاد تلك المسافة عند الانتقال من فكرة لأخرى داخل النص. واستعمل الكاتب وسيلة تُعرف بالمط أو المد في نهاية السطور، وذلك من أجل ضبط نهاياتها. وكان المد عادةً ما يستعمل: إما لتحسين كتابة كلمة معينة مثل (محمد) أو إتمام سطر في نحو كلمة مثل (العلم)، ومع ذلك كان يُطلب من

الكاتب الاقتصاد في استعمال تلك الوسيلة التحريرية، وعدم تكرارها في سطرين متتاليين، وأن يتجنبوه في أوائل السطور بصفة خاصة.

٧/٤/٨ ترقيم المخطوط

ظل المخطوط العربي خاليًا من الترقيم حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريبًا. ولما دعت الحاجة إلى التماس وسيلة معينة يحفظ بها ترتيب الأوراق، ظهر الترقيم في صورته الأولى، متمثلًا فيما يعرف بالتعقيبات، لمعرفة تتابع الأوراق وتعقبها. والتعقيبة هي نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب المؤلفات من جهة ومساعدة المختصين في صناعة المخطوط (مثل ترتيب ملازمه) من جهة أخرى. ولم تكن هذه التعقيبة حكرًا على المخطوط العربي، بل عرفها المخطوط الهندي والأوربي.

وكيفية التعقيبة: أن يثبت الناسخ في نهاية الورقة تحت آخر كلمة من السطر الأخير أول كلمة في الورقة التالية، أو هي: كلمة أو جزء من كلمة تأتي في نهاية الورقة اليمنى من المخطوطة ويعاد تكرارها في الورقة اليسرى.

وكانت التعقيبات هي الأساس في ترقيم المخطوط حتى نهاية عصر المخطوطات، وإن اسُتخدمت الأرقام في الملازم من أجل بيان عدد الأوراق في نهاية المخطوط، فيما يعرف بالترقيم المزدوج. ومعناه: الجمع بين التعقيبة ونوع آخر من الترقيم؛ مثل: الترقيم بالخطوط أو بالدوائر الصغيرة أو بالأعداد.

يرى البعض أن الأرقام الموجودة على أوراق كثير من المخطوطات قد أضيفت بعد عصر المخطوطات (بداية القرن الرابع عشر الهجري). أما بالنسبة للمخطوطات المرقمة فإنها نادرة وقليلة.

٧/٤/٩ خاتمة المخطوط (حرد المتن) Colophon

تعتبر خاتمة المخطوط جزءًا مهمًا من بين ملامحه المادية؛ ففيه تذكر عبارة تدل على انتهاء النص واسم الناسخ، وفي أحيان قليلة يذكر مكان النسخ، وفي أحيان كثيرة يذكر تاريخ النسخ باليوم والشهر والسنة الهجرية. وقد جرت العادة في المخطوطات العربية عند كتابة هذه الخاتمة أن تأتي مكتوبة على شكل هرم مقلوب. وإذا كان المخطوط يقع في أكثر من مجلد: فتذكر في نهاية كل مجلد عبارة ما تفيد الربط بين المجلد والمجلد الذي يليه. مثل: (انتهى المجلد الثاني من كتاب.. ويليه المجلد الثالث وأوله..

وتكمن أهمية خاتمة المخطوط بالنسبة للمفهرس في تحديد عنوان المخطوط؛ اسم المؤلف؛ الناسخ؛ تاريخ النسخ؛ أو ذكر حادثة تاريخية تفيد في تأريخ المخطوط. مثال (انتهى من تأليفه أو نسخه عند خروج الجيوش المصرية من دمشق).

٧/٤/١٠ الهوامش أو الحواشي[١]

هي المساحات البيضاء التي تترك حول المتن في صفحات المخطوط (أربعة هوامش)، وعادةً ما تكون هذه المساحات متساوية في المخطوط الواحد ليحصل التوازي بين بدايات المخطوط ونهاياته. نصادف هذه الظاهرة في أواخر المخطوطات خاصة، وفي أوائل المطبوعات العربية، فربما نصادف ثلاثة كتب في مجلد واحد: كتاب في المتن بجانب كتابين في الهوامش. أما بالنسبة للغرض من استعمال الحواشي فيكمن في أن مؤلف أو ناسخ المخطوط كان يستعمل هذه الحواشي لما يستدركه من السقط الواقع في الكلام، أو أن يكتب في نهاية الحاشية غالبًا كلمة (صحـ)، كما أن القارئ نفسه كان يستعمل هذه الحواشي، ويكتب فيها

---

(١) الحاشية: الفراغ الأيمن أو الأيسر من الصفحة. الهامش: الفراغ في أسفل الصفحة.

تعريف المصطلحات أو إثبات الفروق بين النسخ، أو التعريف ببعض الأعلام، ما يعد تأليفًا جديدًا من صنع القارئ، حتى إذا استقلت هذه الحواشي في كتاب مستقل بذاته عرفت بالحواشي.



شكل (٢٦) نموذج حرد المتن بالمخطوط العربي



شكل (٢٧) صورة من مخطوطة في الفقه الحنفي توضح كيفية يتم
استغلال هوامش الصفحة في الكتابة عليها

الفصل الثامن
خوارج النص في المخطوط العربي

٨/٠ تمهيد

تتنوع أنماط التوثيق العلمي للمخطوط العربي؛ ولعل من أبرز تلك الأنماط ما يعرف بالمقابلات والسماعات والاجازات وغيرها. ولا ريب أن مثل تلك الأنماط تشكل ما يعرف بخوارج النص، والتي تعد مزية خاصة يمتاز بها المخطوط العربي عن غيره من المخطوطات. وقد خصص هذا الفصل لمعالجة بعض الأمور ذات الصلة بتلك الأنماط التوثيقية السائدة في المخطوط العربي، حيث يعد هذا المبحث واحدًا من بين المباحث الكوديكولوجية الهامة بالنسبة للباحثين الشرقيين بصفة خاصة.

٨/١ التقييدات في المخطوط العربي

ليست المخطوطات في واقع الأمر مجرد أوعيةً للنصوص المؤلفة وحسب، بل إنها تحوي الكثير مما لا علاقة له بنص المؤلف أو المتن، فالمخطوط التام يبدأ بصفحة العنوان، ثم ترتيب الأبواب، ثم المتن، وينتهي بحرد المتن، وما سوى ذلك فيكون عادة زيادات من قبل الناسخ أو مالك النسخة أو ربما القارئ. على أن تلك الزيادات المضافة من قبل هؤلاء تعد آليات مساعدة في توثيق المخطوط ذاته، وإن لم يقصد بها في بداية الأمر أن تؤدي تلك الوظيفة. وقد جرت عادة النساخ ومالكو

المخطوطات على أن يقيّدوا بالكتابة عدة تدوينات على تلك المخطوطات، بحيث غدت هذه التقييدات[1] فيما بعد ذات أهمية كبيرة، بعد أن تشكلت منها مادة علمية أدبية وتاريخية أصبحت مصدرًا هامًا من المصادر التاريخية.

وتنقسم تقييدات المخطوطات إلى فئتين هما:

١ ـ التقييدات المتعلقة بالمخطوط:

ترد في صفحة العنوان، والصفحات التالية لها، وصفحات ترتيب الأبواب وحرد المتن والحواشي.

• مثال التقييدات الواردة في حرد المتن باعتباره أهم مواضع التقييدات: اسم الناسخ ـ زمان النسخ ـ مكان النسخ ـ المنسوخ له ـ صفة المنسوخ له ـ اسم الحاكم في ذلك العهد.

• مثال التقييدات الواردة على هامش حرد المتن: تقييد العرض والمقابلة على نسخة المخطوط والنسخ الأخرى وتاريخه.

• مثال التقييدات الواردة في الحواشي: التملك ـ السماع ـ البيع ـ الشراء ـ الهبة ـ الإرث ـ الوقف.

٢ ـ التقييدات غير المتعلقة بالمخطوط:

وهي تقييدات لا صلة لها بموضوع المخطوط. مثل تقييدات الأحداث التاريخية المختلفة؛ من ميلاد ووفاة وخصب وجدب وجوائح وظواهر فلكية وأسفار ومعاملات. وكذا، فقد يجمع نص التقييد أحداثًا متعددة معًا؛ كالوفاة والقحط والغلاء والبلاء الذي عاصره المؤلف أو مالك النسخة، بحيث تنضوي هذه التقييدات على الكثير من الأحداث والوقائع وأسماء البلدان والمواضع

---

(١) جاء في لسان العرب: (قَيَّد العِلم بالكتاب: ضَبَطَه؛ وكذلك قَيَّدَ الكتاب بالشَّكْل: شَكَلَه، وكلاهما على المثل. وتَقْييدُ الخط: تنقيطه وإِعجامه وشَكْلُه).

والعملات المتداولة، وكل ذلك مقرون بتاريخ حدوثه، ولعل هذا الصنف من التقييدات هو الأكثر أهمية، من حيث كونه مصدرًا للتاريخ الاجتماعي الذي أهمله المؤرخون، كما قد يكون لها دورٌ في تأريخ المخطوط.

٨/٢تقييدات الوقف

وقف الكتاب أو حبسه، جعلُه موقوفًا من أجل الإفادة منه؛ قراءةً أو نسخًا أو إعارةً، ما لم يضع الواقف شروطًا معينة على وقفه؛ كأن يوقف الكتاب على فرد أو جماعة من الناس (ذريته أو أتباع مذهب ما) أو على مكان ما (مسجد، مشفى، زاوية). وربما لا يكون الوقف مقيدًا بمكان أو مجموعة من الناس، بغرض النفع العام. وتعكس ظاهرة الوقف عبر العصور اعتناء المسلمين بإيصال الكتاب إلى مريديه أينما وجدوا. وكان الكثير من الموسرين يتسابقون إلى الوقف بكافة أشكاله؛ ومنها: وقف الكتب. ويهدف الوقف أساسًا إلى منع التلاعب في الكتب الموقوفة، وعدم استحواذ شخص أو فئة معينة عليها، وعدم سرقتها أو بيعها أو شرائها. وغالبًا ما يوجد تقييد الوقف في المخطوط العربي على صفحة العنوان أو في آخر الكتاب، وربما تكرر الوقف في ثنايا الكتاب، بحيث يستخدم الواقف عبارةً تشير إلى إثبات الوقف، مثل: وقف لله تعالى.

وقد يشتمل تقييد الوقف على هذه المعلومات الهامة: اسم الواقف نفسه، وشروط الوقف، وجهة الوقف، وسنة الوقف، وإشهاد الوقف (إن وجد)، أو ختم الواقف فقط. ولم تكن هناك صيغة موحدة لتقييد الوقف.

وفيما يتعلق بأهمية تقييدات الوقف، فإنه يمكن من خلالها:

• الاستدلال على لم شمل أجزاء المخطوطات التي تناثرت في مكتبات العالم، ولم شمل المكتبات الوقفية التي تناثرت بفعل عوامل النهب والإهمال، عن طريق الأختام الوقفية.

• تدل نصوص الوقف دلالة مباشرة على خزائن المخطوطات التي تم وقفها، أو المجموعات الخطية التي تم وقفُها من قِبَل أحد ملاكها، وعلى الطريق التي وصلت من خلالها النسخة المخطوطة إلينا.

• تساعد على تحديد مكان نسخ المخطوطة.

• تساعد على تحديد اسم المؤلف وعنوان الكتاب.

• تكشف عن القيمة العلمية للمخطوطة التي اختيرت للوقف.

• تكشف عن الحركة العلمية في العالم الإسلامي.

وثمة نماذج على محتوى تقييدات الوقف:

• «على من يقول بقول مالك وأصحابه بمدينة القيروان»، من كتاب مختصر المدونة لابن أبي زيد.

• «هذا الكتاب من الكتب الموقوفة التي وقفها الشيخ العالم العامل عمر بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن عمر بن أحمد بن أبي علي بن معد البهلوي وقفًا مؤبدًا لا يباع ولا يوهب إلى يوم القيامة آمين».

• «هذا الكتاب من الكتب الموقوفة التي وقفها الهالك سعيد بن علي بن مسعود الرزيقي الرستاقي لمن يتعلم منها العلم الشريف من المسلمين ببلد الرستاق، كتبه الفقير إلى الله راشد بن عبد الله بن حافظ بن سيف اليحيائي الرستاقي بيده ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١١٦٦».

• ومن أمثلة تقييدات الوقف ما يمكن أن نطالعه في نسخة مخطوطة مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة المعروفة بمخطوطة المراثي لليزيدي وهي من أهم المخطوطات التي حملت صفحة عنوانها ختمًا وقفيًا نفيسًا. وقد اتخذ هذا الختم شكلًا بيضاويًا، وكتب بداخله نص الوقفية بحروف مفرغة على أرضية

سوداء، ويبدو أن الواقف قد اقتصر على ختم صفحة العنوان دون غيرها من صفحات المخطوطة.

وهاك نص الختم: «حسبي الله بسم الله الرحمن الرحيم، وقف هذا الكتاب مصطفى رئيس الكتاب السابق لوجه الله الخالق، وسلمه للمتولي، وحكم بصحته حاكم الشرع الشريف، وشرط الاستفادة لابنه ولأولاده، ثم فيما بعد هبة يُعْمَل به كما في الوقف إلى قيام الساعة، وأجزى الله من اشتراه وباعه سنة ١١٥٤».

أركان الوقف بهذا الختم هي: اسم الواقف وصفته (مصطفى رئيس الكتاب)؛ الكتب الموقوفة (المخطوطة ذاتها)؛ الجهة الموقوف عليها (الابن وأولاده، ثم هبة بعد ذلك)؛ صيغة الوقف (نص الختم نفسه).

٨/٣ تقييدات التملك (التملكات)

هي مجموعة عبارات تأتي في أول المخطوط أو آخره، لتفيد تملك شخص ما هذا المخطوط. وهذا التملك يعد نمطًا توثيقيًا مهمًا بالنسبة للمخطوط العربي عبر الحضارة الإسلامية. وتتلخص أهميته في:

- التعرف على رحلة المخطوط وانتقاله في الزمان والمكان.
- تحديد أماكن بيع المخطوطات في العالم الإسلامي.
- مطالعة أسماء من تملكوا المخطوطة، فربما يكون عالمًا مشهورًا، فتثرى القيمة العلمية للمخطوطة.
- التعرف على أسماء هواة جمع الكتب، وأصحاب مكتبات وخزانات الكتب في تاريخ التراث العربي الإسلامي.
- تحديد تاريخ المخطوط، وذلك بتتبع تراجم المالكين للنسخة.

• إعادة بناء المجموعات الخطية للعلماء، وبخاصة تلك التي انفرط عقدها لسبب أو لآخر.

• دراسة الحالة الاقتصادية في المجتمع، لأن التملك ينضوي على عمليتي البيع والشراء، ويتأثر بالأحوال الاقتصادية.

وهاك نموذج من تقييدات التملك:

• يوجد في صفحة عنوان مخطوطة الخواتيم لابن الجوزي (محفوظة في مكتبة حسين جلبي في بورصة)، تقييد تملك بخط ابن الجوزي نصه: «هذا الكتاب ملك لولدي أبي محمد يوسف نفعه الله وبلغه الأمل وكتب ابن الجوزي».

ـ اسم مالك النسخة: يوسف بن الجوزي؛ فقيه وسياسي شهير، قتل وأولاده يوم سقوط الخلافة العباسية(٦٥٦ هـ).

ـ وفي نفس صفحة العنوان، يوجد تملك آخر: «ملكه من فضل الله الرحيم، الفقير إلى الله تعالى عبده عبد الرحيم بن عبد المحسن الشعراني بالشراء من مصطفى دده بثمن مقبوض بيده».

ـ اسم مالك النسخة: مصطفى دده (قاضي مصري).

ـ اسم مالك النسخة شراءً: عبد الرحيم الشعراني، ت ١٠٤٨ هـ.

ـ وأخيرًا: من واقع هذين التقييدين نفهم أن تلك النسخة نقلت من بغداد (حينما كان يملكها يوسف بن الجوزي)، ثم طافت بلدان كثيرة، منها القاهرة (حيث تملكها مصطفى دده الذي كان قاضيًا بمصر)، ثم ينقلها مالكها المذكور إلى اسطنبول، فيشتريها منه عبد الرحيم الشعراني (بثمن مقبوض في يده أي شراءً من مصطفى دده)، فتستقر أخيرًا في مكتبة حسين جلبي ببورصة بتركيا.

٨/٤ تقييدات المقابلة أو المعارضة

يقصد بالمقابلة مراجعة النص على الأصل الذي نُقل عنه. وكان لهذا النمط التوثيقي شأن كبير في كتابة الحديث الشريف، بل كان رجال الحديث يعدونه شرطًا أساسيًا لصحة المتن، فيُروى عن ابن عبد البر عن هشام ابن عروة أن أباه قال له: كتبت؟، قال: نعم، قال له: عارضت؟، قال: لا. قال له: لم تكتب. وقال الشافعي: «مَن كتب ولم يعرض كان كمَن دخل الخلاء ولم يستنج».

يدل مصطلح المقابلة على عمل علمي غاية في الأهمية، يتم بعد انتهاء الطلبة من الاستماع إلى شيوخهم، فينقلوا ما يروونه من علوم مختلفة، ثم يقومون بعد ذلك بمقابلة هذه النصوص التي كتبوها فيما بينهم، ليصحح بعضهم نسخته إن وجد فيها خطأً ما أو يضيف إليها ما فاته تدوينه. لذا، كانت المقابلة من أعلى طرق تحمل العلم عند علماء الحديث[1]، بل كانت ترقى إلى مرتبة السماع عند كثير منهم. ويستدل علماء الحديث على أهمية المقابلة بمعارضة جبريل عليه السلام للقرآن مع النبي ﷺ مرة كل عام، وقد عارضه مرتين في عامه الأخير الذي توفي فيه.

اهتم العلماء والأدباء في العصر العباسي بمقابلة المخطوطات وتوثيقها نصًا وسندًا، ومما يروى عن الجاحظ المعتزلي (٢٥٥ هـ): أنه لما أرا د الخروج من البصرة إلى زيارة محمد بن عبد الملك الزيات (٢٣٣ هـ) وزير الخليفة المعتصم العباسي، فكَّر أن يهديه كتاب سيبويه، فلما وصل إليه قال له: لم أجد شيئًا أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال له ابن الزيات: أوظننت أن خزائننا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخطِّ الفراء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ، يعني نفسه، فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخةٍ توجد وأعزها، فأحضرها إليه، فسر بِها ووقعت منه أجمل موقع.

---

(١) من طرق تحمل العلم عند علماء الحديث أيضًا: القراءة والإجازة والوجادة والمقابلة...

وكيفية المقابلة أو المعارضة أن الشخص كان إذا وقف في مقابلة نسخته أو قرائتها على الشيخ عند موضع معين، يكتب: بلغ أو بلغت أو بلغ العرض. أما بالنسبة للمؤلف، فكان يضع دائرة فارغة في أواخر الجمل أو الفصول، فإذا قوبلت النسخة على الأصل أو قرأت على المصنف أو على من له إجازة بها، وضع الناسخ نقطة أو كتب حرف (م) داخل الدائرة ليشير إلى الموضع الذي انتهى إليه في مقابلته. ومن الإجراءات الدالة على المقابلة أن يضيف المؤلف أو الناسخ في حواشي المخطوطة ما يؤكد إجراء المقابلة بالفعل؛ مثل كلمة: قوبلت؛ إلى هنا بلغت المقابلة؛ قوبلت حسب الطاقة؛ قوبل مع أصل صحيح مصحح؛ قوبل وصحح وعورض. وهكذا.

وتتلخص أهمية المقابلات والمعارضات فيما يلي:

- التحقق من سلامة النص بمطابقته على النسخة الأصلية.
- تقويم النص واكتشاف الخطأ الذي يحدث من المؤلف أو الناسخ.
- اكتشاف السقط الذي يقع بسبب السهو أو انتقال النظر واستكماله.
- مراجعة النسخة وتصحيح الأخطاء.
- جعل النسخة المنقولة معتمدة موثوقًا بها.
- تأكيد سمة الأمانة العلمية لدى علماء المسلمين في مؤلفاتهم.

وثمة نموذج على تقييد المقابلة: فقد ورد في نسخة مخطوطة من كتاب «الهداية في علم الرواية» لابن الجزري ما نصه: «بلغت هذه النسخة مقابلةً وتحريرًا في تاسع عشر شوال سنة ستين وثمانمائة بمدرسة الصالحية بالقاهرة على نسخة منقولة من أصل مقروء على المصنف، رحمه الله». ما يدل بالطبع على عناية المؤلفين بإجراء المقابلة ومراعاة الدقة في توثيق النسخة المخطوطة.

٨/٥ تقييدات السماع (السماعات)

اقتضى نظام التعليم في الإسلام أن يكون هناك أستاذٌ يشرح كتابًا، ويتحلق حوله طلاب العلم، بحيث يدرسون عليه هذا الكتاب. وقد جرت العادة العلمية أن من سمع كتابًا ما على شيخ، فلا بد من توثيق أو إثبات ذلك على أصل الكتاب أو النسخة المخطوطة.

لقد عُني علماء المسلمين منذ عصر التدوين بحفظ علومهم المتنوِّعة عن طريق الرواية، فنقلوها إلى أبنائهم جيلًا بعد جيل بطريق الرواية الشفوية أولًا ثم المكتوبة ثانيًا، يرويها الواحد بعد الآخر، رغبةً في أداء الأمانة وإخلاصًا للعلم بإسنادِهِ إلى قائله، وعملًا بقوله ﷺ: «نَضَّرَ الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأدَّاها كما سمعها، فرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع».

ويعني السَّمَاع: تلَقِّي ما يُقرَأُ من العِلْم سماعًا؛ أي بآلة السمع (الأُذُن). ويقصد بالسَّمَاع أن يُقرأ الكتاب أو جزء منه على السامعين، بحيث تسجل أسماؤهم في نهاية القدر المسموع من الكتاب. كما يعني السَّمَاع أيضًا: أنه إذا قرأ تلميذ كتابًا ما على شيخه، يكتب الشيخ في آخر الكتاب نص «السماع»؛ وهو: أن هذا الطالب الفلاني ـ ويسميه ـ قد سمع علي هذا الكتاب أو قرأه علي بحضور جماعة من الأعيان ـ ويسميهم أيضًا ـ ويكتب تاريخ السماع، ويضع توقيعه وختمه ليصادق على صحة القراءة.

وتتلخص أهمية الكتاب المسموع نفسه في الأبعاد التالية:

• البعد الموضوعي؛ محتوى السماع: اسم القارئ والقدر المسموع وأسماء السامعين وتاريخ السماع واسم كاتبه.

• البعد النوعي؛ تدل كثرة أسماء السامعين لمخطوط معين على اهتمام الناس به.

• البعد الجغرافي؛ تعدد أماكن السماع تعني أن شهرة الكتاب قد تجاوزت الحدود الإقليمية التي عاش فيها مؤلفه.

• البعد الزماني؛ امتداد السماع لفترات طويلة يعني أن الكتاب قد أثبت وجوده.

• البعد الجماهيري؛ تشير نوعية السامعين إلى قيمة السماع، فالعلماء مثلًا لا يحرصون على حضور مجالس السماع، إلا حينما يبدو النص المسموع ذا قيمة علمية، وأنه صار محلًا للاهتمام به.

وتتلخص أهمية السماعات فيما يلي:

• توثيق المخطوط قراءةً وضبطًا وتصحيحًا؛ فكثرة السماعات على المخطوط الواحد تحقق الإفادة من القراءات والتصحيحات والروايات التي تسجل في هوامشه أثناء القراءة.

• تصحيح أخطاء ربما وجدت في كتب التاريخ.

• معرفة الأماكن المختلفة، والتعرف على رحلة المخطوطات وأصحابها.

• التعرُّف على الحركة العلمية ونوع العلوم الرائجة في زمن ما.

• التعرف على خطوط الكثير من النساخ والعلماء.

ومن نماذج السماعات ما يلي:

• من أوائل السماعات التي عُرفت في القرن الثاني الهجري: سماع الموطأ على الإمام مالك قبل وفاته بنحو عشر سنين.

• يوجد بصفحة عنوان مخطوطة المراثي لليزيدي نص سماع: «وقد سمعت ذلك أجمعَ من أبي عبد الله وصححته والحمد لله. وفيه جميع ما سمعه أبو عبد

الله من أبى حرب الملهبى، وعدة قصائد من اختيار المفضل والأصمعي. ذكر ذلك أبو عبد الله بن مُقْلة. ونقلته من أصله بخطه. وكتب محمد بن أسد بن علي القارئ سنة ثمان وستين وثلثماية».

٨/٦ تقييدات الإجازة (الإجازات)

الإجازة إذن الشيخ بالرواية عنه بلفظه أو بخطه. والإجازة في المخطوط العربي عبارة عن إقرار خطي يرد في نهاية النص أو على أغلفة الكتب أو في نهاية الأجزاء، وقد تأتي في بداية المخطوط. وغالبًا ما كانت تكتب في نهاية الكتب التي درسها الطلاب على الشيوخ. والإجازة تمثل نوعًا من الاعتراف من قبل الشيخ بأن هذا الطالب قد قرأ عليه أو سمع منه متنًا من المتون. فإذا أراد طالب العلم القيام بمهمة التدريس في مادة كتاب ما سمعه من شيخه، فكان لا بد أن يُجاز له في القيام بتلك المهمة من قبل أستاذه، بحيث يتم إثبات تلك الإجازة على أصل النسخة المخطوطة.

ويقابل نظام الاجازات في عصر المخطوطات نظام الساعات المعتمدة في التعليم الجامعي الحديث، فكان طالب العلم يسعى إلى العلماء المشهود لهم بالعلم والفضل، فيدرس على أيديهم كتبًا معينةً، ويحصل على ما يؤكد نجاحه في استيعاب محتوى تلك الكتب (الإجازة). ومن الطريف أن هناك أنماطًا متعددة من تلك الإجازات؛ كإجازات السماع وإجازات النسخ وإجازات الإقراء وغيرها.

وكثرة الإجازات على مخطوط ما يدل على كثرة عناية طلاب العلم به دراسةً وقراءةً وسماعًا، وهذه العناية تُعرب عن أهمية المخطوط من الناحية العلمية، لكثرة الطلب عليه، ومما يذكر في هنا أن مقامات الحريري شارك في قرائتها وسماعها ٢٠٠ شخص.

وتتلخص أهمية الإجازات فيما يلي:

• توثيق الحديث النبوي وحفظ سنده وذلك بربطه بالمصدر الأول الذي أخذ عنه الحديث، فضلًا عن توثيق الكثير من الكتب.

• تعد دليلًا على ثقافة العلماء في القرون الماضية؛ فقد يورد المجيز معلومات ثقافية واجتماعية عن شيوخه، ربما لا تذكرها المصادر التاريخية ومعاجم التراجم.

• تمدنا بمعلومات جغرافية عن مراكز العلم في العالم الإسلامي.

• تحديد تاريخ المخطوط إذا لم يذكر في نهايته تاريخ النسخة.

وتتمثل أركان الإجازة فيما يلي:

ـ اسم المجيز؛ وهو الشيخ الذي يجيز الطالب في مؤلفاته الخاصة وقد يجيزه في مؤلفات غيره من العلماء.

ـ المجاز: وهو الكتاب أو مجموعة الكتب.

ـ المجاز له: وهو الطالب.

ـ نوع الإجازة: إجازة رواية أو إجازة إقراء أو إجازة نسخ...

ـ صيغة الإجازة: كأن يكتب الشيخ: «أجزت فلانًا» أو «أجزت لفلان».

ـ تاريخ الإجازة.

ـ اسم كاتب الإجازة.

ـ مكان الإجازة.

من نماذج تقييدات الإجازة: إجازة الربيع تلميذ الشافعي بنسخ كتاب الرسالة للشافعي، ولعلها أقدم الإجازات المثبتة بخط الراوي الأول. ونصها: «أجاز الربيع

بن سليمان صاحب الشافعي نسخ الرسالة، وهي ثلاثة أجزاء في ذي القعدة سنة خمس وستين ومائتين وكتب الربيع بخطه».

٨/٧ تقييم المخطوط العربي

٨/٧/١ التغطية الموضوعية

رغم ما تتمتع به موضوعات المعرفة الإنسانية من أهمية، لكن هناك من الموضوعات ما يحظى بأهمية بالغة، وتحظى باهتمام الباحثين، ولعل أبرز تلك الموضوعات: التفسير والحديث والفقه، إذ تتوقف مسألة الطلب على مخطوط معين بناء على محتواه.

مثال للتوضيح: جاء في ترجمة يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ) في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ما يلي: «فلما فرغ من إملاء: «كتاب المعاني» خزنه الوراقون عن الناس، ليكسبوا به، وقالوا لا نخرجه إلى أحد إلا من أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم، فشكى الناس ذلك إلى الفراء، فدعا الوراقين، فقال لهم في ذلك. فقالوا: إنما صحبناك لننتفع بك، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب، فدعنا نعش به. قال: فقاربوهم، تنتفعوا وينتفعوا، فأبوا عليه. فقال: سأريكم، وقال للناس: إني مملٍ كتاب معانٍ أتم شرحًا، وأبسط قولًا من الذي أمليت، فجلس يُمل، فأملَّ «الحمد» في مئة ورقة. فجاء الوراقون إليه، فقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون، فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم».

٨/٧/٢ مكانة المؤلف

إن لكل مجال تخصصي أساتذته، حيث تتوقف قيمة النص المكتوب على قيمة مؤلفه؛ فربما كان المؤلف مشهورًا، فيكثر الطلب على مؤلفاته، وربما كان مغمورًا فتتعطل حركة رواج كتبه تباعًا.

ومن أمثلة علماء المسلمين المبرزين عبر عصور الحضارة الإسلامية: الإمام البخاري (٢٥٦ هـ) وكتابه (الجامع الصحيح)؛ والشيخ الرئيس ابن سينا (٤٢٨ هـ) وكتابه القانون في الطب؛ والمقدسي (٣٨٠ هـ) وكتابه أحسن التقاسيم.

٨/٧/٣ أصالة المادة العلمية

يعني هذا المعيار طبيعة المادة العلمية التي يحويها المخطوط، وما يرتبط بأصالتها وجدتها من الناحية العلمية، فبعض المؤلفات لا تُقدم جديدًا وإنما تعتمد على مؤلفات أخرى سابقة عليها، وربما تنقل عنها نقلًا حرفيًا، وبعض المؤلفات تتوفر على شرح أو تفسير أو تلخيص أو اختصار الكتب السابقة عليها، فيما يعرف بكتب الشروح والحواشي والاختصارات والاختيارات والتتمات.

من أبرز الأعمال العلمية التي عني بها كثيرًا شرحًا وتفسيرًا واختصارًا: صحيح البخاري، ألفية بن مالك، قصيدة الكواكب الدُّرية في مدح خير البرية (الشهيرة بالبردة) للبوصيري (٦٩٥ هـ).

من المسائل المتصلة بمعيار أصالة المادة العلمية ما يتعلق بظاهرة التكرار في عرض المعلومات، فقد تعرض التراث المخطوط لهذه الظاهرة؛ أي أن يكتب أحد المؤرخين كتابًا في التاريخ، فيبدأ من حقبة زمنية متأخرة ويقف عند معالجة حادثة تاريخية مرتبطة بالعصر الذي عاش فيه، ثم يأتي مؤرخ آخر فيبدأ لا من حيث ما بدأ المؤرخ الأول، فيقع التكرار ويحصل الملل. مثال: كتاب تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير.

٨/٧/٤ تاريخ النسخة

يعد تاريخ النسخة ملمحًا أساسيًا من ملامح المخطوط وعنصرًا مهمًا من عناصر تقييمه؛ فكلما كانت النسخة أقرب إلى عصر المؤلف زادت قيمتها، لأن

النسخ المتأخرة في تواريخ نسخها نقلت بالطبع عن نسخ أقدم منها، ولا ريب أن من توفر على نسخها بشر يتعرضون للأخطاء سواءٌ في النسخ أو القراءة أو الفهم، وقد لا تسلم النسخة التي ينقل عنها من خطأ أو سهو أو نقص أو تكرار لأجل هذه العلة.

وتُعد قضية (التأريخ) أو (التقدير) الزمني للمخطوط من أهم قضايا المخطوطات، فالمخطوط أو الوثيقة بدون تاريخ (موثَّق أو تقديري) مجرد قطعة أثرية تاريخية ووثيقة نصيَّة، يصعب تقدير قيمتها، وتوظيفها للإفادة منها، سواء من جهة المحتوى الذي يُعنى به المحققون والدارسون والمؤرخون، أو من جهة الكيان المادي الذي يُعني به علماء المخطوطات والأثريون والمرمِّمون.

وتبدو قيمة تاريخ النسخة بالنسبة لعالم المخطوطات ذات أهمية، بحيث ينبغي عليه أن ينظر إلى هذا التاريخ ويلحظه بعناية شديدة؛ لأن بعض التواريخ قد يتعذر فهمها، وبعضها الآخر قد ينضوي على خطأ مقصود متعمد أحيانًا، وغير متعمد في أحيان أخرى، وقد تنضوي النسخة على تاريخ غامض لا يمكن تفسيره؛ كالتأريخ بسنة كذا بعد الطوفان أو من بدء الخليقة... إلخ.

ومن التواريخ التي تحتاج إلى بذل جهد في تحديدها ما يلي:

١ ـ التأريخ بحساب الجمل (الأبجدية) Chronograms:

عُرف حساب الجمل عند العرب قبل الإسلام، ولم يزل يستعمل حتى الآن في توثيق تواريخ بعض المناسبات والأحداث من قبل الشعراء وغيرهم. وتتلخص كيفيته: في أنه يتم إعطاء كل حرف من الحروف الأبجدية قيمة عددية معينة.

مثال: تأريخ كتاب مخطوط للتفتازاني (٧٩٢ هـ) بأنه كتبفي: «يوم الدال من قبل الها يوم الطا والياء من شهر الألف والياء من سنة الجيم والصاد بعد الغين».

التفسير: بناءً على جدول حساب الجمل، فإن هذا الكتاب كتب يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٠٩٣ هـ. لأن:

ـ يوم الدال = ٤ أي يوم الأربعاء الذي هو قبل الخميس.

ـ يوم الطا = ٩ والياء = ١٠ أي الموافق يوم التاسع عشر.

ـ شهر الألف = ١ والياء = ١٠ أي الموافق الشهر الحادي عشر في التاريخ الهجري وهو شهر ذو القعدة.

ـ سنة الجيم = ٣ والصاد = ٩٠ بعد الغين = ١٠٠٠ أي سنة ١٠٩٣ هـ.

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠
ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠		

جدول حساب الجمل أو الأبجدية

٢ ـ التأريخ التركي العثماني بالأعشار:

يعتمد هذا التأريخ على تقسيم السنة إلى وحدات زمنية محددة (أعشار أو عقود)؛ بحيث يمثل العقد ١٠ سنوات، على أن القراءة الصحيحة لهذا التأريخ يمكن أن تبدأ من آخر الجملة إلى أولها.

مثال: هذا تأريخ لمخطوطة من كتاب شرح الشافية لابن الحاجب (٦٤٦ هـ) بـ «اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني الشهر الرابع من شهور السنة السابعة من العشر الرابع من المائة الثالثة من الألف الثاني من الهجرة النبوية».
إذن: كتبت هذه المخطوطة في ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٣٧ هـ.

وتفسير هذا التاريخ على النحو التالي:

الألف الثاني = ١٠٠٠

المائة الثالثة = ٢٠٠

العشر الرابع = ٣٠

السنة السابعة = ٧

اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني الشهر الرابع = ٢٦ ربيع الثاني.

فيكون التاريخ هو: ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٣٧ هـ.

ومن القضايا التي يجب التنبه إليها هنا ما يتعلق بالأخطاء التأريخية، تلك التي تمثل صورةً من صور العبث الحاصل من قبل بعض الوراقين الذين يريدون رفع سعر بيع المخطوط، فينسبونه إلى غير عصره، وكذا يتم تغيير ملكية المخطوط وضياع نسبه. وتنقسم هذه الأخطاء بدورها إلى نوعين هما:

١. الأخطاء المتعمدة: يقع الخطأ في التاريخ هنا على سبيل العمد والقصد لأجل مصلحة معينة، فمن صور الأخطاء المتعمدة على سبيل المثال: إعادة زخرفة الصفحات الأولى من مخطوط قديم، وتغيير خاتمته بكيفية معينة، ثم ختمه بأختام مكتبة من المكتبات، وطمس أختام أخرى، وتزوير تاريخ كتابته (نسخه)، ما يوحي بحداثة النسخة، وتدخل الحيلة على القارئ فيقتنيها.

٢. الأخطاء غير المتعمدة: هنا يقع الخطأ في التاريخ عفوًا من غير قصد أو نية سابقة، فمن صور الأخطاء غير المقصودة ما يلي:

• أن يهمل الناسخ جزءًا من التاريخ اعتمادًا على أنه معلوم، كأن يكتب سنة ١٣١ وهو يقصد سنة ١١٣١، أو يكتب سنة ٩٤ ويهمل الرقم المفترض ذكره في خانة المئات أو قد يهمل الرقم المفترض ذكره في خانة الآلاف.

• أن ينسخ الناسخ نسخة عن أصل أقدم، فينقل العبارة الختامية في المخطوط الأصلي وفيها تاريخ نسخه، دون أن ينبه القارئ إلى أن التاريخ المذكور ليس تاريخ النسخة الحالية، وإنما هو تاريخ النسخة المنقول عنها سابقًا، فيقع الخلط واللبس عندئذٍ.

٨/٧/٥ اكتمال النسخة

إن المخطوط الذي يبدو غير مكتمل، بحيث تنقص أوراقه في بدايته أو نهايته، عادةً ما يفقد قيمته الفعلية، باعتباره صار ناقصًا من حيث يجب الاكتمال. ولا ريب أن نقص الأوراق الأولى والأخيرة من المخطوط تؤثر سلبًا على عملية فهرسته ووصفه وصفًا ببليوجرافيا دقيقًا، لأن هذه الأماكن تمثل بالنسبة للمفهرس أماكن استقاء بيانات الفهرسة.

ومن الطريف أن المخطوطات تتفاوت فيما بينها تفاوتًا شديدًا من جهة عدد الأوراق؛ فقد تكون النسخة الأقل عددًا أكمل من النسخة الأكثر عددًا، لأن هناك اعتبارات أخرى تحكم هذه المسألة؛ مثل: حجم الورق، والمساحة المكتوبة في الصفحة، وحجم الخط، وعدد السطور.

ومن مظاهر النقص في عدد أوراق النسخة ما يتعرض له المخطوط نفسه من عوامل التآكل والرطوبة التي تؤثر سلبًا على أوراقه، إما بتلف بعض الصفحات وإحداث ثقوب بها، أو طمس بعض الكلمات. وكلها أمور ينبغي التحرز منها قدر الإمكان، وهي تندرج بصورة عامة تحت ما يعرف بترميم المخطوط وصيانته.

٨/٧/٦ توثيق النسخة المخطوطة

كلما حفلت النسخة المخطوطة بالأنماط التوثيقية المختلفة التي أتينا على

ذكرها من قبل (كالمقابلات والتملكات والسماعات والإجازات)، كلما حظيت بقيمة علمية أكبر وإقبال أكثر؛ بحثًا وقراءةً وتحقيقًا ونشرًا، نظرًا لقيمتها العلمية، فضلًا عما قد تشتمل عليه النسخة من حواشي وتعليقات تزيد على قيمتها وتؤكد صحة ما جاء فيها. ولا ريب أن هذه القيمة ترتفع وتنخفض في ضوء عددٍ من الأبعاد الأخرى، سيما:

- البعد الكمي: عدد الأشخاص المذكورين بالنسخة.
- البعد النوعي: المكانة العلمية لهؤلاء؛ علماء- طلاب- رجال الدولة.
- البعد الجغرافي: مدى انتشار المخطوط وتنقله في الآفاق.
- البعد الزماني: مدى بقاء تداول المخطوط مدة من الزمن.

الفصل التاسع

مخطوطة «مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة» دراسة كوديكولوجية

٩/٠ تمهيد

يتناول هذا الفصل نموذجًا تطبيقيًا عمليًا؛ وهو عبارة عن مخطوطة عربية قديمة، تعود إلى القرن الرابع الهجري[١]، وتدور في إطار كتب الأمالي التي ازدهرت في العصر العباسي خاصة، والذي يعد عصرًا ذهبيًا لرقي وتقدم الحضارة الإسلامية. وسوف تتم معالجة هذه المخطوطة معالجة كوديكولوجية؛ في ضوء ما انتهينا إليه في الفصل السابع عند الحديث عن الملامح الفيزيقية المميزة للمخطوط العربي، وما أكدنا عليه، في الفصل الثامن من معايير خاصة لتقييم المخطوط العربي وأنماط توثيقه المختلفة (خوارج النص)؛ من تملكات وسماعات وتقييدات وقف، وفي حدود ما توافر بالمخطوطة من مؤشرات توثيقية محتملة.

---

(١) لقد قام الأستاذ أحمد سليم عبدالوهاب غانم بمراجعة مخطوطة «مراث وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة لأبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي» ونشرها بالعدد الأول من المجلد العاشر (المحرم ـ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ؛ مارس ـ أغسطس ٢٠٠٥م) من مجلة «عالم المخطوطات والنوادر»، وهي دورية نصف سنوية تصدر عن عالم الكتب بدعم من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض. أما عن عملنا بهذا الفصل فهو إعادة قراءة للمخطوطة وإضفاء بعض الملاحظات الكوديكولوجية عليها في ضوء ما تم إقراره بالفصول السابقة.

٩/١ الملامح الفيزيقية للمخطوطة

١/ ١/ ٩ أبعاد المخطوطة:

o تقع النسخة الخطية من هذه المخطوطة في (٩٦) ورقة (وقيل ٩٥ ورقة)، من القطع الكبير متضمنة صفحة العنوان والصفحة الأخيرة، بمقياس ١٩×٣٠ سم. ويوجد منها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (فهرس المخطوطات المصورة ١: ٥٢٥، الرقم ٧٥٧/ أدب).

o أما عن الخط الذي كتبت به المخطوطة، فهو خط نسخ مشكول يشبه قلم الثلث، إذ يعود الفضل إلى ابن مقلة في إبداع ووضع أسس هذا الخط، وهو بذلك يعود إلى أوائل القرن الرابع الهجري، بينما كتب المخطوط نفسه في نهاية هذا القرن: «٣٦٨-٣٧٠هـ».

٢/ ١/ ٩ صفحة العنوان:

o يلاحظ في بداية المخطوطة وجود عنوان مميز لمحتواها العلمي، كما حوت هذه الصفحة الرئيسية معلومات أخرى؛ مثل: اسم المؤلف؛ اسم الناسخ؛ بعض الأنماط التوثيقية المميزة للمخطوطة (تقييدات التملك والسماع والوقف؛ رقم المخطوطة). وتمثل هذه المعلومات أهمية بالنسبة لعالم المخطوطات والمفهرس والمحقق.

o أما بالنسبة لعنوان المخطوطة، فيلاحظ أن جزءًا منه قد كتب بخط كبير في أعلى صفحة العنوان على سطرٍ من سطورها «مراثٍ وأشعار في غير»، بينما كُتب باقي العنوان على السطر التالي بخط صغير، مماثل لخط جميع التقييدات المدونة على الصفحة، وهو «ذلك وأخبار ولغة».

o وفي واقع الأمر، لا يوجد كتاب مطبوع لليزيدي بعنوان «مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة»، كما أن العنوان لم يتكرر مرة أخرى في المظان التي نتوقع أن يتكرر فيها، كما لم يتكرر في بداية المخطوطة أو في أثنائها أو في نهايتها.

o وعليه، ذهب المستشرق د. سالم كرنكو وكذا ناشر المخطوطة نفسه الحبيب عبد الله بن أحمد العلوي الحسيني الحضرمي إلى أن العنوان المثبت على النسخة هو: مراثٍ وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة، لكنه غيَّر عنوانها إلى: «كتاب الأمالي؛ فيها مراثٍ وأشعار أخرى وأخبار ولغة وغيرها» عن أبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفي سنة ٣١٠ هـ عن النسخة الفردة المحفوظة بالآستانة في خزانة عاشر أفندي بإسطنبول تحت رقم (٩٠٤)، وقد طبعته مطبعة جمعية دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن ـ الهند، ١٩٣٨م.

o وعرف الكتاب المخطوط هذا بعنوان: أمالي اليزيدي، واشتهر بذلك بين الناس. وقد سماها الأستاذ عبد العزيز الميمني: نوادر اليزيدي؛ فلم تُشر النسخة المخطوطة إلى نوع التأليف، سواء بكلمة تأليف أو بكلمات أخرى عوضًا عنها، مثل: تصنيف، إنشاء، نظم، إملاء، تخريج، جمع، أو عني بجمعه... إلخ.

o ولما كانت الأمالي[1] هي المزدهرة في عصر اليزيدي، فاعتبر كتابه من كتب الأمالي. إذن: فالأمالي ليست عنوانًا للكتاب، بل وصفًا له أو تصنيفًا لجنسه التأليفي. ولكن، حينما يقال: أمالي اليزيدي، فإن المقصود قطعًا هو: مخطوطة اليزيدي «مراث وأشعار...». وكذا، عرف العمل بالأمالي اليزيدية أو أمالي اليزيدي أو نوادر اليزيدي.

٣/ ١/ ٩ مقدمة المخطوطة:

o استهل المؤلف حديثه بمقدمة موجزة بعد كلٍ من البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) والحوقلة (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، شارعًا في عرض الإنشادات الشعرية والمراثي معلقًا محللًا لها تحليلًا لغويًا أدبيًا.

(١) الأمالي: جمع إملاء وأملية، وهو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس، فيتكلم بما يفتح الله عليه من العلم، ويكتب التلاميذ، فيصير كتابًا ويسمونه إملاءً.

٩/١/٤ مُسَطَّرةُ المخطوطة:

o تقع مسطرة هذه المخطوطة في حدود ١٥ سطرًا، بينما تحتوي بعض الصفحات على ١٢ سطرًا فقط. وفي كل سطر، يوجد حوالي ٨ كلمات.

٩/١/٥ ترقيم المخطوطة:

o تبدو المخطوطة مرقمة بحسب الأوراق من بداية صفحة العنوان وحتى نهايتها، ولكن يبدو أن الترقيم في هذه النسخة الخطية مزدوج، والدليل على ازدواجه هو وجود التعقيبة، فقد وجدت تعقيبة في ظهر الورقة رقم ١٤.

o ويبدو أن المخطوطة كانت تحتوي على التعقيبات؛ ولكنها اختفت نظرًا لإسراف المجلد في قص جوانب الكتاب بعد رزمه، وعلى ذلك فلم يتبق لنا سوى تعقيبة واحدة من جملة (٩٦) ورقة.

o وهذا الأمر يدل على طبيعة التحول من استخدام التعقيبات إلى الترقيم المعتاد بالأرقام، بسبب مقتضيات صناعة الكتاب العربي المخطوط وإضطرار المجلد إلى إجراء تلك الممارسات العملية.

٩/١/٦ خاتمة المخطوطة:

o في ظهر الورقة رقم ٩٦ من المخطوطة، نلاحظ التقييد الخاص بحرد المتن، ونصه: «تم الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد نبيه وعبده وعلى آله وسلم تسليمًا. نقلت جميعه من أصل أبي عبد الله بن مقلة بخطه في شهر رمضان سنة سبعين وثلاثمائة وقابلته وصح».

o يشتمل نص حرد المتن على كل من: بيان تاريخ النسخ (في شهر رمضان سنة ٣٧٠ هـ)؛ وبيان المقابلة أو المعارضة: (وقابلته)؛ وبيان التصحيح (وصح).

o وفي نفس الصفحة بعد نهاية حرد المتن؛ نلاحظ زيادات يبدو أنها من عند

الناسخ نفسه، ذلك أن الخط لم يتغير فيها، كما يبدو أنه أوردها لأنها في ذات الموضوع من جانب، كما أنها بخط أبي عبد الله بن مقلة من جانب آخر.

٧/ ١/ ٩ الهوامش:

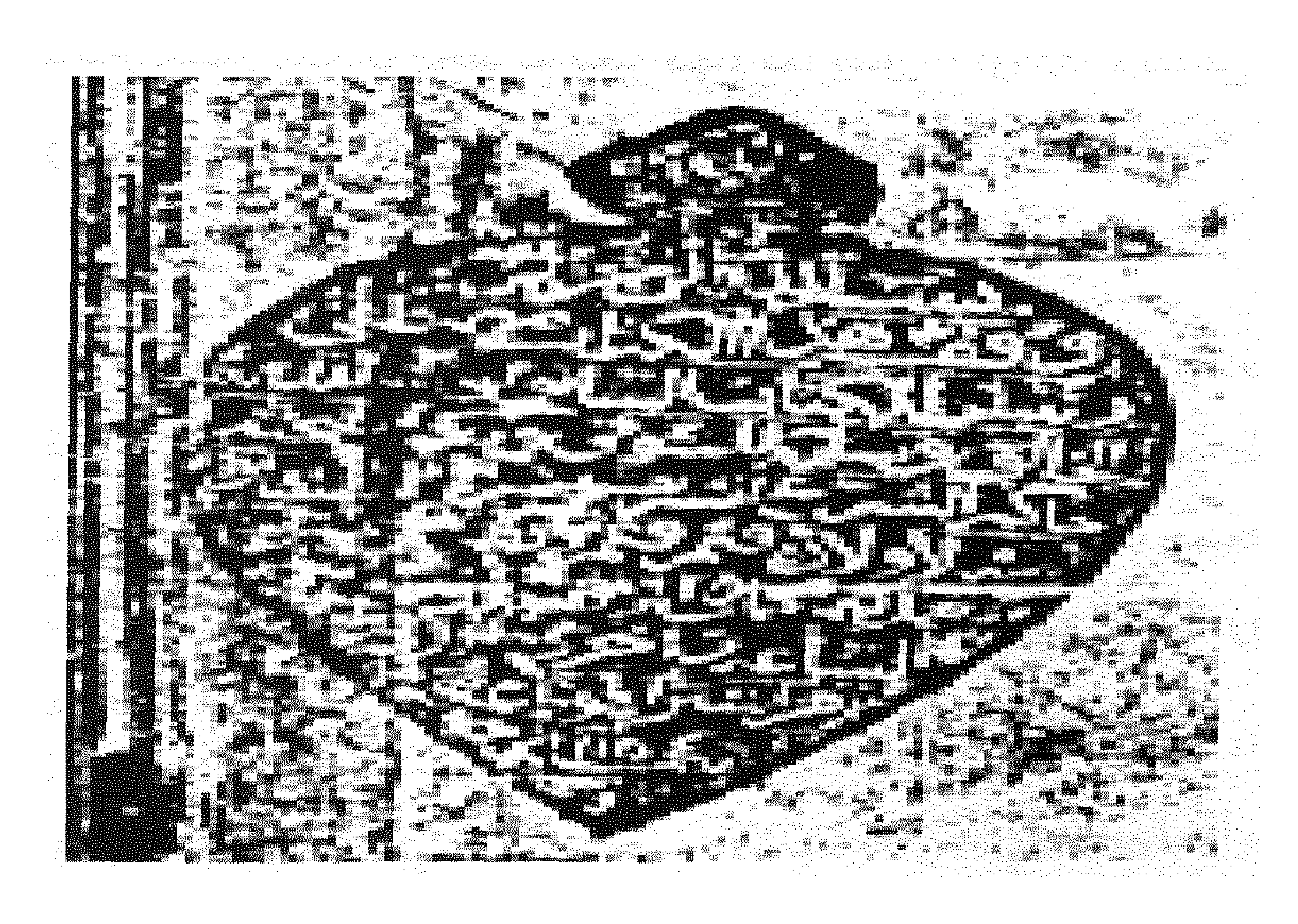
o لوحظ بصفحات المخطوطة بعض الهوامش الخاصة بالتصحيح والتعليق، وكلها من قبل الناسخ نفسه، وربما جاءت في سياق معارضته للنسخة المخطوطة وتصحيحه لها، فقد سبقت الإشارة بحرد المتن عاليه أنه قال: «نقلت جميعه من أصل أبي عبد الله بن مقلة... وقابلته وصح». فلربما اقتضت هذه المقابلة وذلك التصحيح إضافة بعض الملاحظات على هوامش بعض أوراق المخطوطة.

٩/٢ أنماط توثيق المخطوطة

١/ ٢/ ٩ تقييدات الوقف:

o نطالع في هذه النسخة إحدى طرق إثبات الوقف وهي الختم الموجود في أسفل يسار صفحة العنوان، ويبدو أن هذه الطريقة ذاعت في العصور المتأخرة.

o وقد اتخذ هذا الختم شكلًا بيضاويًا، وكتب بداخله نص الوقفية بحروف مفرغة على أرضية سوداء، ويبدو أن الواقف قد اقتصر على ختم صفحة العنوان دون غيرها من صفحات المخطوطة.



شكل (٢٨) ختم تقييد الوقف بالمخطوطة

o ونص الختم: «حسبي الله بسم الله الرحمن الرحيم، وقف هذا الكتاب مصطفى رئيس الكتاب السابق لوجه الله الخالق، وسلمه للمتولي، وحكم بصحته حاكم الشرع الشريف، وشرط الاستفادة لابنه ولأولاده، ثم فيما بعد هبة يُعْمَل به كما في الوقف إلى قيام الساعة، وأجزى الله من اشتراه وباعه سنة ١١٥٤».

o وقد اشتمل هذا الوقف على أربعة أركان هي: اسم الواقف وصفته (مصطفى رئيس الكتاب)؛ الكتب الموقوفة (المخطوطة)؛ الجهة الموقوف عليها (الابن وأولاده، ثم هبة بعد ذلك)؛ صيغة الوقف (نص الختم).

o ويهدف الوقف أساسًا إلى منع التلاعب في الكتب الموقوفة، وعدم استحواذ شخص أو فئة معينة عليها، وعدم سرقتها أو بيعها أو شرائها. وهذا ما يبرر ختم عدد غير قليل من صفحات المخطوطة بخاتم الوقف، حتى يتم إشهار الوقف الذي يؤدي إلى تجنب العبث بالكتاب الموقوف.

٢/ ٢/ ٩ تقييدات التملك:

لقد اشتملت هذه المخطوطة على عددٍ من التملكات هي:

١ ـ التملك الأول: «من نعم الله على عبده عبد القادر بن عمر البغدادي سنة ١٠٨٠. الله حسبي».

يعد عبد القادر بن عمر البغدادي صاحب كتاب: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب (كتاب موسوعي في علوم العربية وآدابها) توفي بالقاهرة سنة ١٠٩٣ هـ.

وتكمن أهمية هذا التملك في:

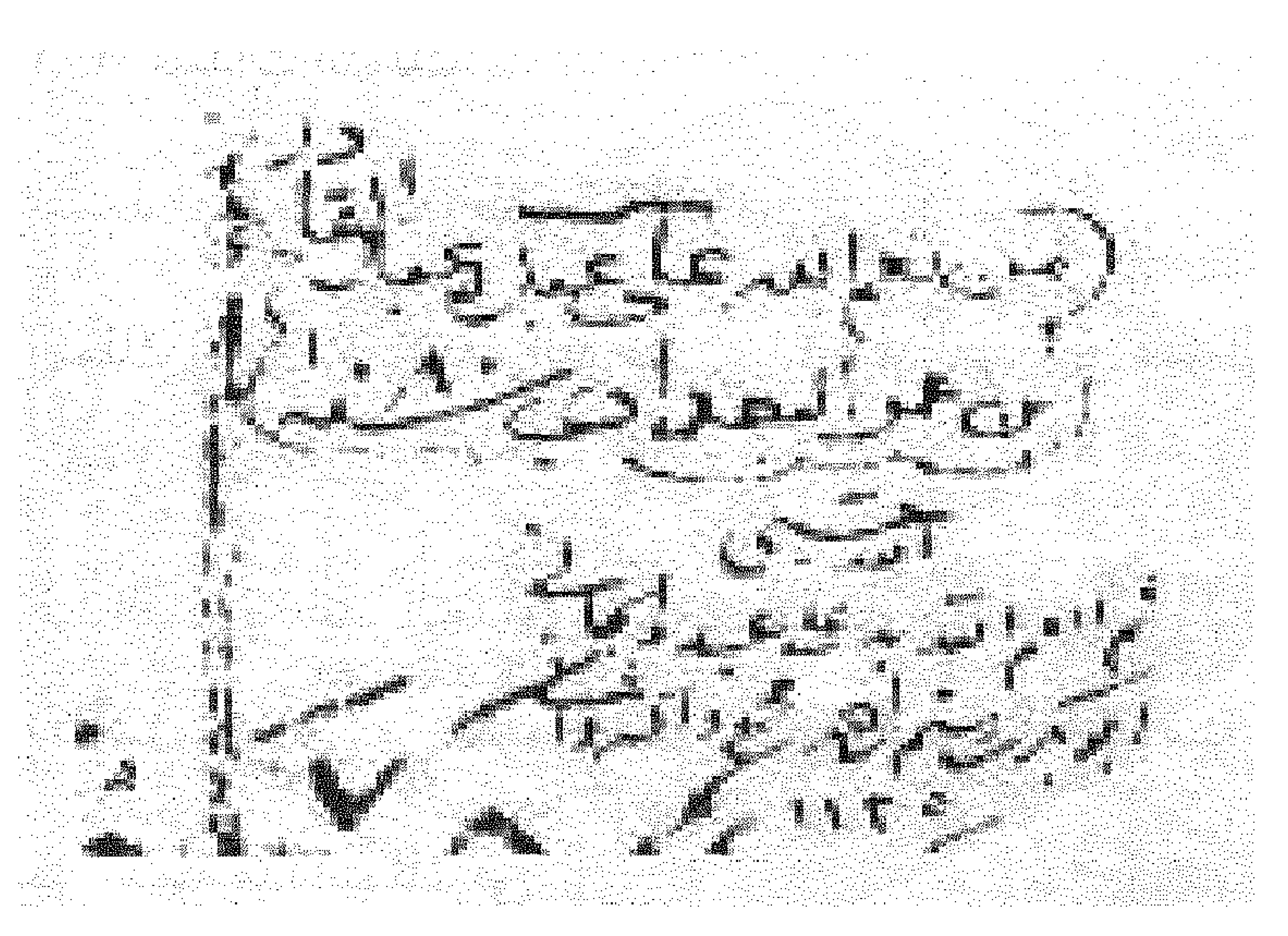
o معرفة اسم أحد هواة جمع الكتب عبر عصور الحضارة الإسلامية (عبد القادر).

o إمكانية إعادة بناء المجموعات الخطية الخاصة بهذا العالم؛ إذ لوحظ تملك آخر باسم عبد القادر المذكور على صفحة عنوان الجزء السادس من كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي بخطه المحفوظ في مكتبة شهيد علي باشا بإسطنبول برقم ١٨٢١؛ ونص هذا التملك هو: «من فضل الله على عبد القادر البغدادي في سنة ١٠٧٣».

٢ ـ التملك الثاني: «ثم من نعم الله به على عبده الجاني: أبو بكر بن رستم بن أحمد محمود الشرواني سنة ١١٢٥».

يعد أبو بكر الشرواني (١١٣٥ هـ) من أصحاب خزائن الكتب وهواة جمعها المشهورين، وهو من أحد رجالات الدولة العثمانية في عصره.

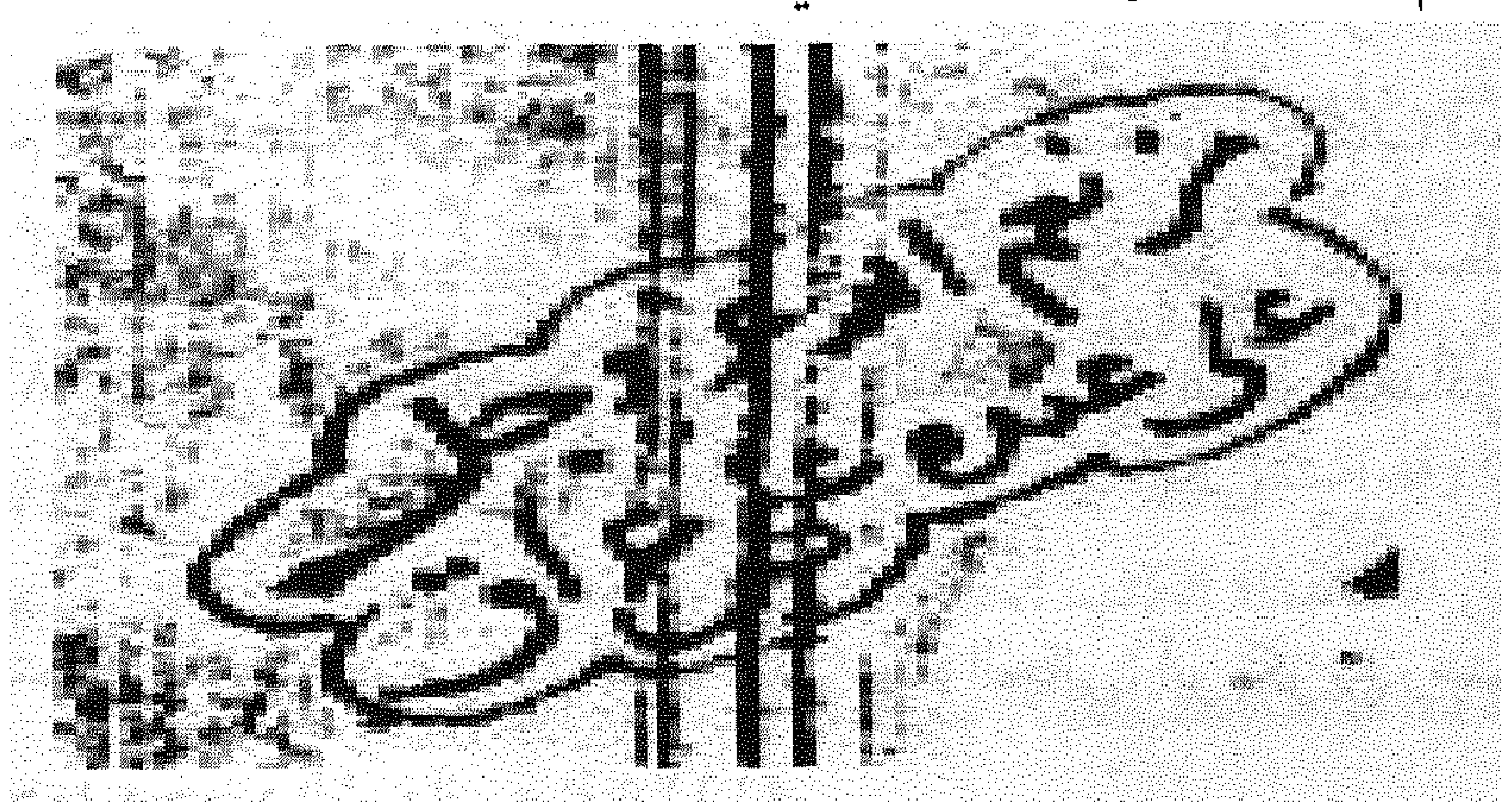
ويدل تاريخ التملك على أسبقية تملك البغدادي للنسخة قبل الشرواني، ما يجعلنا نقف على جزء من الطريق التي سلكتها النسخة المخطوطة إلينا ابتداءً.



شكل (٢٩) التملك الأول والثاني بالمخطوطة

٣ ـ التملك الثالث:

«من نعم الله عز وجل على عبده علي بن عراق.

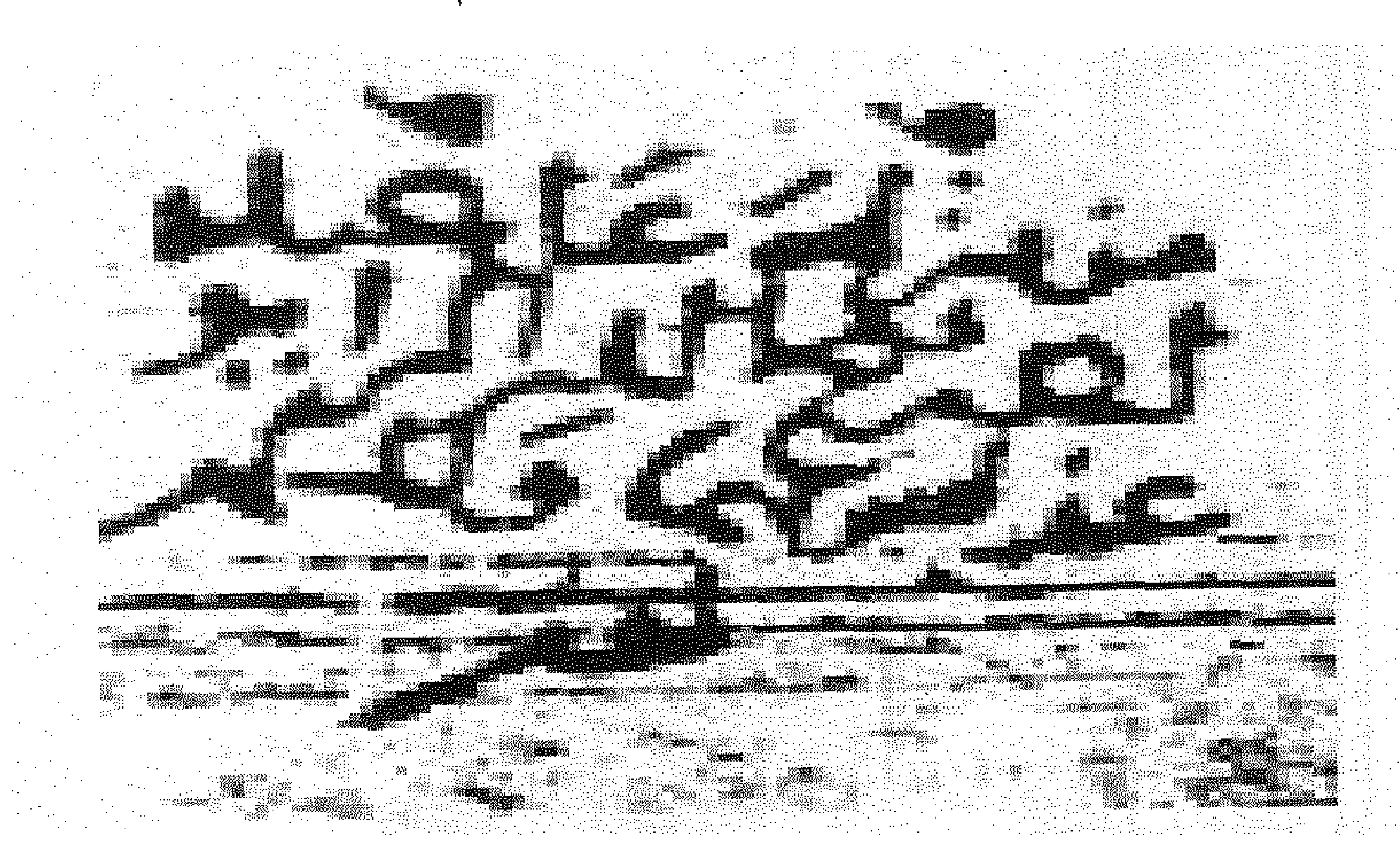


شكل (٣٠) التملك الثالث

يتفق هذا التملك مع سابقيْه في صيغة التملك «من نعم الله على عبده»، إلا أن هذا التملك يفتقر إلى التأريخ، ما يقلل من قيمته الكوديكولوجية. على أن قيمة تأريخ التملك في هذه النسخة ليست على قدر كبير من الأهمية نظرًا لأن النسخة مؤرخة أصلًا، كما أن الوقف الموجود عليها مؤرخ أيضًا.

٤ ـ التملك الرابع:

«من منزلته على عبده... الله المريد عز اسمه ولكم...».



شكل (٣١) التملك الرابع

لا تتضح دلالة هذا التملك من حيث المعنى، فلم يعرف من هو مالك هذه المخطوطة ولا متى تملكها، نظرًا لصعوبة قراءة نص التملك.

٣/ ٢/ ٩ تقييدات السماع:

يوجد بصفحة العنوان بمخطوطة المراثي نص سماع وتصحيح، هذا بيانه:

«وقد سمعت ذلك أجمعَ من أبى عبد الله وصححته والحمد لله. وفيه جميع ما سمعه أبو عبد الله من أبى حرب الملهبى، وعدة قصائد من اختيار المفضل والأصمعي. ذكر ذلك أبو عبد الله بن مُقْلة. ونقلته من أصله بخطه. وكتب محمد بن أسد بن علي القارئ سنة ثمان وستين وثلثماية. بخط ابن أسد شيخ ابن البواب».

يدل هذا السماع على أن ابن مقلة هو صاحب ضمير المتكلم في بداية النص في الفعلين: «سمعته، وصححته»، وأن ابن أسد نقل هذه النسخة عن شيخه ابن مقلة بخطه.

يفيد نص السماع والتصحيح كثيرًا في توثيق النسخة والدلالة على صحة رواية ما جاء بها من أخبار وروايات وأشعار دون تحريف.



نص السماع بالمخطوطة

شكل (٣٢) تقييد السماع بمخطوطة المراثي

٤/ ٢/ ٩ تقييدات أخرى:

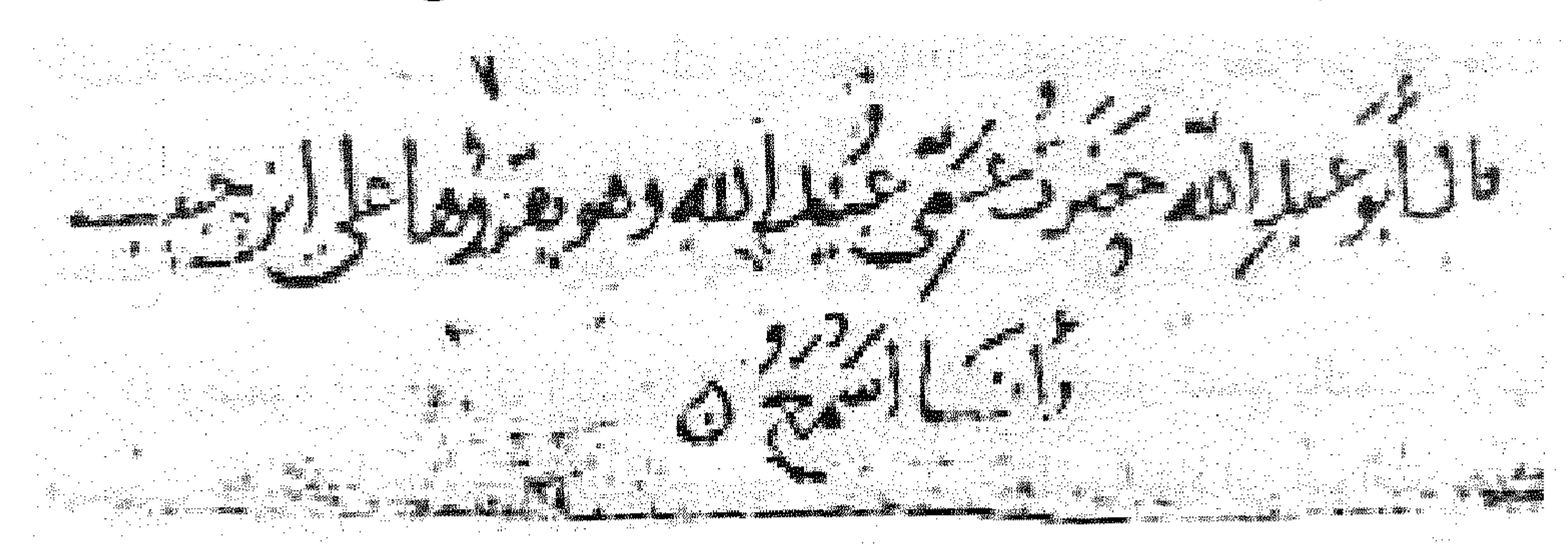
o لاحظ أن التقييد المنصوص عليه سابقًا عند هذا الموضع: ذكر ذلك أبو عبد الله بن مُقْلة. ونقلته من أصله بخطه. وكتب محمد بن أسد بن علي القارئ سنة ثمان وستين وثلثماية ـ يفيد أن النسخة منقولة عن أصل بخط ابن مقلة.

o لاحظ أن التقييد المنصوص عليه سابقًا عند هذا الموضع: بخط ابن أسد شيخ ابن البواب، يؤكد أن المخطوطة كتبت بخط محمد بن أسد البزاز نفسه.

o وينص الناسخ على تاريخ النسخ في نهاية صفحة العنوان (سنة ٣٦٨ هـ). ويتميز هذا التأريخ بالوضوح وعدم اللبس، إذ أنه لم يستخدم طرق التأريخ التي قد

يصعب التعرف عليها عند غير المتمرسين، مثل التأريخ بحساب الجُمَّل أو التأريخ بالأعشار أو التأريخ بالكسور أو التأريخ بالجلوس (أي على كرسي العرش بالنسبة للملوك والسلاطين) أو غيرها.

o على ظهر الورقة الأولى من تلك النسخة يوجد تقييد هذا نصه: قال أبو عبد الله حضرت عمي عبيد الله وهو يقرؤها على ابن حبيب وأنا أسمع". وهذا التقييد يدل على أن أبا عبد الله محمد بن العباس اليزيدي حضر في أثناء قراءة عمه على شيخه، ولم يكتف اليزيدي بالحضور وإنما نص على السماع.



شكل (٣٣) تقيد سماع وجد على ظهر الورقة الأولى من المخطوطة

٩/٣ تقييم المخطوطة

١/ ٣/ ٩ مكانة المؤلف:

o هو أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد بن يحيى المبارك اليزيدي (تُوفي سنة ٣١٠هـ)، من كبار علماء العربية والأدب ببغداد. له من الكتب: الأمالي ـ مناقب بني العباس ـ كتاب الخيل ـ مختصر النحو ـ شرح ديوان قطبة بن أوس ـ أخبار اليزيديين... وغيرها.

o يعتير اليزيديون من أعرق أسر بغداد العلمية، وقد خصهم ابن النديم بترجمة طويلة في كتابه (الفهرست)، حيث أتى فيها على ذكر أعلامهم وقدم ترجمات

حولهم. وأول من نبغ منهم: أبو محمد يحيى بن المبارك، مؤدب الخليفة العباسي المأمون، وصاحب كتاب النوادر، وهو جد والد صاحب الأمالي اليزيدية (صاحب هذه المخطوطة محل الدراسة).

٢/ ٣/ ٩ ناسخ المخطوطة:

o هو أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القارئ الكاتب البزاز البغدادي (تُوفي سنة ٤١٠ هـ)، وكان من أبرز الذين أخذوا عن ابن مقلة، كما كان نفسه هو شيخ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب. وعلى ذلك، تعود أهمية محمد بن أسد القارئ إلى أنه من العلماء النُسّاخ الذين ربطوا بين ابن مقلة أستاذًا وابن البواب تلميذًا، ويبدو ذلك جليًا في صفحة العنوان بالمخطوطة، حيث نطالع فيها أحد التقييدات، ونصه: «بخط ابن أسد شيخ ابن البواب».

o وصفوة القول: إن النسخة الخطية لـمراثٍ وأشعار تتسم بالتميز، لأنها نسخت على يد أحد مُبرزي النُسّاخ، فهو تلميذ ابن مقلة وأستاذ ابن البواب.

٣/ ٣/ ٩ أصالة المادة العلمية:

o يغلب على هذا الكتاب أنه غير منظم من الناحية المنهجية، فلا يوجد به أبواب أو فصول محددة.

o ويغلب عليه أيضًا الاستطراد في عرض المادة العلمية من موضوع إلى آخر، فقد يضطر اليزيدي إلى إيراد أبيات شعرية متعددة، لأنها تساعد في توضيح معنى كلمة وردت في أبيات أخرى، فيستطرد تباعًا.

o يتلخص دور اليزيدي في شرح ما أشكل من الكلمات التي ترد في بعض الأشعار فضلًا عن ذكر مناسبة القصيدة أو سبب تأليفها، والترجمة لبعض الأعلام التي ترد ضمن أبياتها، وكذا الترجمة لبعض أصحاب القصائد أنفسهم.

o ولكن، يبدو الطابع اللغوي والنحوي غالبًا على اليزيدي في هذا الكتاب،

فهو لا يعبأ كثيرًا بالتعليق النقدي على ما يورده من مراثٍ وأشعار، ولكنه يُعنى بالشرح اللغوي لما تتضمنه تلك المراثي والأشعار من غريب الكلمات.

o وتشتمل أمالي اليزيدي على طائفة من غرر القصائد والمقطوعات، وجمل من القصص والأخبار، ونخب من الحكايات الغريبة والطرائف العجيبة. وقد أكثر فيه من الرواية عن عمه المفضل بن محمد اليزيدي.

إذن: يمكن القول أن اليزيدي راوية وليس ناقدًا بالضرورة، فآراؤه الشخصية الخاصة قد لا تظهر في الكتاب بوضوح، وإنما هو ناقل وراوية في المقام الأول. ويعد هذا الكتاب ثاني ما وصلنا إلينا من كتب الأمالي، وأولها ما يعرف بـ «أمالي ثعلب» (تُوفي سنة ٢٩٢ هـ).

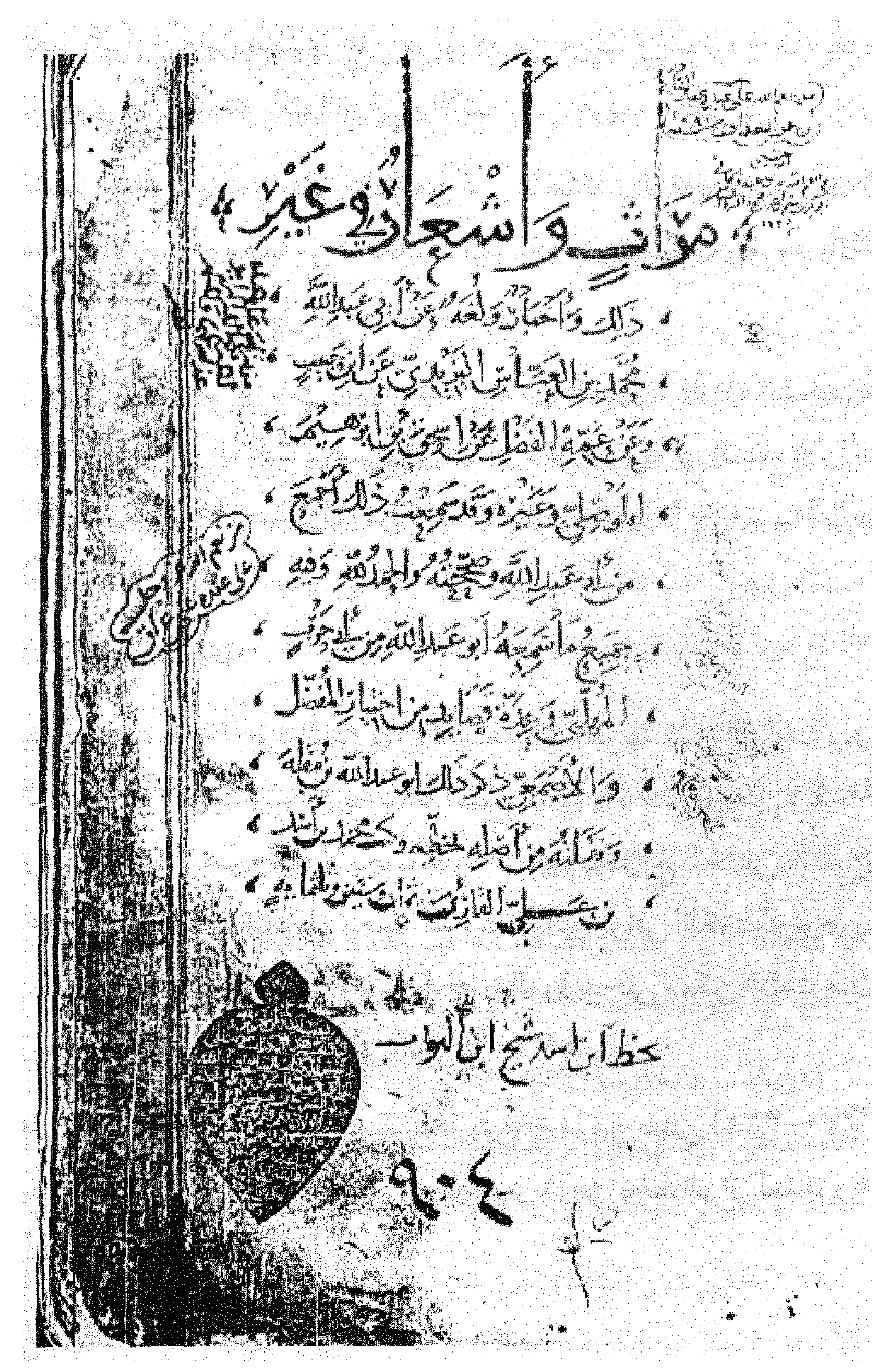
٤/ ٣/ ٩ تاريخ النسخة:

o يتبين لنا من مراجعة حرد المتن بهذه النسخة المخطوطة مدى التفاوت بين التاريخ الوارد به (٣٧٠ هـ) وبين تاريخ بداية النسخ الذي دوَّنه الناسخ على صفحة العنوان وهو سنة ٣٦٨ هـ. ولذا، لا يجب علينا التسليم بالتاريخ الخاص بالنسخ المثبت على صفحة العنوان، بل يجب البحث الباليوجرافي الكوديكولوجي للعناصر المادية للمخطوطة؛ ومن أهمها الخط والورق، حتى يمكن التثبت من صحة تاريخ نسخ الكتاب، بعد وفاة اليزيدي سنة ٣١٠ هـ.

o وعلى كل حال، فإن تاريخ هذه النسخة يتراوح ما بين سنتي (٣٦٨-٣٧٠ هـ) بالطبع، أي الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، وهي بخط البزاز المذكور، نقلًا عن أصل قديم لها، كُتب بخط بن مقلة.

٥/ ٣/ ٩ اكتمال النسخة:

o جاءت النسخة المخطوطة من هذا الكتاب مكتملة بكل حال، ولا يوجد في واقع الأمر ما يشير إلى عدم اكتمالها.



مراثٍ وأشعار وغير
ذلك وأخبار ولغة عن أبي عبد الله
محمد بن العباس اليزيدي عن ابن حبيب
وعن عمه الفضل عن إسحق بن إبراهيم
الموصلي وغيره وقد سمعت ذلك أجمع
من أبي عبد الله وصححته والحمد لله وفيه
جميع ما أسمعه أبو عبد الله من [illegible]
الموصلي وغيره قصائد من أخبار المفضل
والأصمعي ذكر ذلك أبو عبد الله [illegible]
[illegible]
[illegible]

بخط ابن أسد شيخ ابن البواب

٩٠٤

شكل (٣٤) صفحة عنوان مخطوطة مراثٍ وأشعار لليزيدي

العشرة الأبيات فأنشدتها فكان كما قال

قال وحكي لنا أن عائشة بنت طلحة أنشدتها

فقالت من أدى عني رسالتي بهذه العشرة الأبيات

بيتا فله بدرة ٥

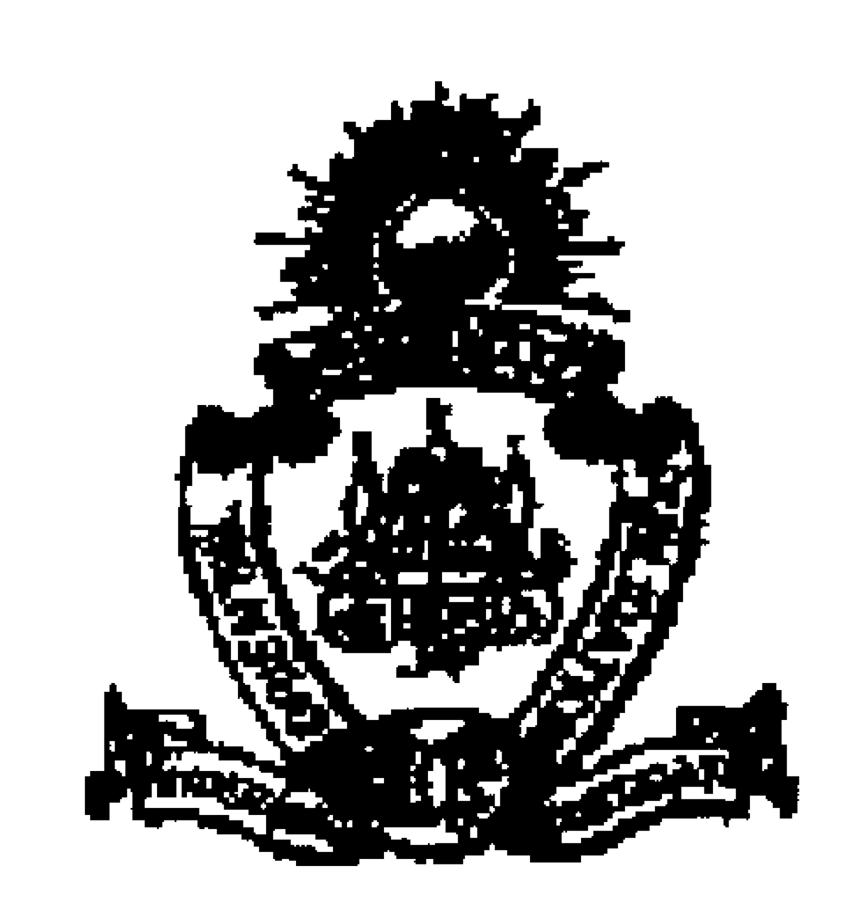
تم الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على

محمد نبيه وعبده وعلى آله وسلم تسليما ٥

نقلت جميعه من أصل أبي عبد الله بن مقلة

بخطه في شهر رمضان سنة سبع وثلاثمائة والحمد لله وحده

شكل (٣٥) حرد المتن في مخطوطة مراثٍ وأشعار لليزيدي



كتاب الامالى

فيها

مراث واشعار اخرى واخبار ولغة وغيرها

عن

ابي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن ابى محمد يحيى بن المبارك

اليزيدى

(المتوفى سنة ٣١٠ھ)

* * * * *

عن النسخة الفردة المحفوظة بالآستانه

فى خزانة عاشر افندى

باستانبول

(رقم ٩٠٤)

الطبعة الاولى

بمطبعة جمعية دائرة المعارف

بحيدرآباد الدكن (الهند)

سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م — عدد الطبع ١٠٠٠ / ١٣٥٧ فه

شكل (٣٦) صفحة عنوان النسخة المطبوعة من كتاب الأمالي لليزيدي

ملاحق

ملحق (١)

الألفبائية العربية

Consonants

ر	ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	ا
راء	ذال	دال	خاء	حاء	جيم	ثاء	تاء	باء	ألف
rāʾ	ḏāl	dāl	ḫāʾ	ḥāʾ	ğīm	ṯāʾ	tāʾ	bāʾ	ʾalif
r	ḏ	D	ḫ	ḥ	ğ	ṯʾ	t	b	ʾ(a)
[r]	[ð]	[d]	[χ]	[ħ]	[ʤ]	[θ]	[t]	[b]	[ʔ]

ف	غ	ع	ظ	ط	ض	ص	ش	س	ز
فاء	غين	عين	ظاء	طاء	ضاد	صاد	شين	سين	زاي
fā'	ġayn	'ayn	ẓā'	ṭā'	ḍād	ṣād	šīn	sīn	zāy
f	ġ	ʿ	ẓ	ṭ	ḍ	ṣ	š	s	z
[f]	[ʁ]	[ʕ]	[ðˤ]	[tˤ]	[dˤ]	[sˤ]	[ʃ]	[s]	[z]

ء	ي	و	ه	ن	م	ل	ك	ق
همزة	ياء	واو	هاء	نون	ميم	لام	كاف	قاف
ham-za	yāʾ	wāw	hāʾ	nūn	mīm	lām	kāf	qāf
	Y	w	h	n	m	l	k	q
	[j]	[w]	[h]	[n]	[m]	[l]	[k]	[q]

Vowel diacritics and other symbols

لا	بُّ	بِّ	بَّ	بّ	بْ	بُو	بِي	بَا	بُ	بِ	بَ
lā	bbu	bbi	bba	bb	b	bū	bī	bā	bu	bi	ba

How the consonants change in different positions

Final	Medial	Initial	Isolated	Final	Medial	Initial	Isolated	Final	Medial	Initial	Isolated
ـق	ـقـ	قـ	ق	ـز	_	_	ز	ـا	_	_	ا
ـك	ـكـ	كـ	ك	ـس	ـسـ	سـ	س	ـب	ـبـ	بـ	ب
ـل	ـلـ	لـ	ل	ـش	ـشـ	شـ	ش	ـت	ـتـ	تـ	ت
ـم	ـمـ	مـ	م	ـص	ـصـ	صـ	ص	ـث	ـثـ	ثـ	ث

ج جـ ـجـ ـج

ح حـ ـحـ ـح

خ خـ ـخـ ـخ

د — — ـد

ذ — — ـذ

ر — — ـر

ض ضـ ـضـ ـض

ط طـ ـطـ ـط

ظ ظـ ـظـ ـظ

ع عـ ـعـ ـع

غ غـ ـغـ ـغ

ف فـ ـفـ ـف

ن نـ ـنـ ـن

ه هـ ـهـ ـه

و — — ـو

ي يـ ـيـ ـي

— — — ء

ملحق (٢)

القانون النموذجي لحماية المخطوطات في البلاد العربية

يعد القانون النموذجي لحماية المخطوطات في البلاد العربية من إنجازات معهد المخطوطات العربية، وقد رأيت أن أضع نصوصه ومواده بين يدي الدارس حتى يقف ابتداءً على حقيقة الجهد المبذول من أجل حماية مخطوطاتنا العربية.

مقدمة

لما كانت المخطوطات ثروة قومية سواء بمحتواها العلمي الذي يشكل جزءًا من التراث الفكري العربي الإسلامي، أو بقوامها المادي باعتبارها أثرًا من الآثار، وحيث إنه لا يجوز التصرف بهذه الثروة بأي شكل من أشكال التصرف المادي بيعًا أو نقلًا أو إخراجًا خارج حدود الإقليم أو تشويهًا أو إتلافًا. ولما كان من الضروري الحفاظ عليها والرقابة على كل ما يتعلق بها من قبل الجهات المختصة. وحيث إنه لم تصدر قوانين خاصة بالمخطوطات وحمايتها في بعض الأقطار العربية، وأن بعض قوانين الآثار العربية تناولت المخطوطات تناولا جانبيًا.

وانطلاقا من توصيات الدورة الأولى لمؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية في الوطن العربي (عمان، ديسمبر ١٩٧٦)، فقد تم وضع مشروع القانون المرفق لحماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها، لتسترشد به الدول العربية عند وضع تشريعاتها القطرية بهذا الموضوع.

المادة الأولى:

١ . إن المخطوط المشمول بالحماية في هذا القانون هو:

ـ كل ما دُون باليد أيًا كانت لغته ونوع كتابته ويبلغ في القدم خمسين سنة ميلادية فأكثر.

ـ النسخة الأصلية من الوثائق والبرديات والرسوم والصور والجداول والخرائط وتبلغ في القدم خمسين سنة ميلادية فأكثر.

ـ النسخة الأصلية من كل إنتاج فكري أو أدبي أو فني أو علمي معاصر مما أنتجه مؤلفون عرب، سواء كان منشورًا أم غير منشور.

٢ . تطبق الحماية الفكرية على ما ذكر في الفقرات الثلاث السابقة بشرط أن تكون لها قيمة فكرية أو قومية أو تاريخية وأن تكون جزءًا من التراث الثقافي العربي.

المادة الثانية:

تنشئ كل من الدول العربية إدارة خاصة تُعنى بأمور المخطوطات أو توكل هذه المهمة إلى مكتبتها الوطنية، وتتولي بصورة خاصة:

ـ اقتناء المخطوطات بطريق الشراء أو الهبة أو الهدية وتسجيلها وفهرستها والتعريف بها.

ـ حصر وتسجيل المخطوطات الموجودة لدى الجهات الرسمية أو الشخصيات الاعتبارية أو الأفراد وتسليمهم شهادات بالتسجيل على أن يتضمن السجل المعلومات الأساسية عن المخطوط.

ـ حفظ وصيانة وترميم وتصوير المخطوطات الموجودة لدى الجهات الرسمية أو الشخصيات الاعتبارية أو الأفراد وتقديم الخدمات الفنية الاستشارية بشأنها مجانًا.

ـ فهرسة المخطوطات وتيسير الانتفاع بها والتوعية بشأنها لإحياء التراث الفكري العربي والإسلامي والإفادة منه والعمل على تحقيقه ونشره.

ـ تبادل صور المخطوطات بين الأجهزة المختصة في الدول العربية ويقوم معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتنسيق هذا التبادل.

المادة الثالثة:

ـ يتوجب على كل من لديه مخطوط أن يبلغ عنه إدارة المخطوطات خلال مدة عام واحد قابل للتمديد من تاريخ نفاذ هذا القانون لتسجيلها، ويكون التمديد بقرار من الجهة المختصة.

ـ يتوجب التبليغ عن المخطوطات التي يُعثر عليها بعد انقضاء المدة المذكورة خلال ثلاثين يومًا من تاريخ العثور عليها، ويحق لإدارة المخطوطات مراعاة ظروف الأشخاص الذين يبلغون عن المخطوطات بعد انقضاء تلك الفترة في حال توافر حسن النية.

ـ على كل من لديه مخطوط أن يحافظ عليه وأن يعلم إدارة المخطوطات كتابة، بكل ما قد يتعرض له المخطوط من تلف أو تشويه، لتقوم الإدارة المسئولة باتخاذ الإجراءات المناسبة لحمايته والمحافظة عليه.

ـ لا يجوز لمن لديه مخطوط أن يتصرف فيه بأي نوع من أنواع التصرف إلا بإذن خطي من الإدارة المسئولة.

ـ لا يجوز لمن لديه مخطوط أن يخرجه خارج حدود الدولة الموجود فيها إلا بإذن خطي من الوزير المختص أو الجهة المختصة ويكون لغرض العرض أو الترميم مع اتخاذ الإجراءات التي تضمن سلامته وإعادته في الموعد الذي يحدده الوزير المختص أو تحدده الجهة المختصة.

ـ لإدارة المخطوطات حق طلب أي مخطوط في حيازة الغير لغرض الدراسة أو التصوير أو الفهرسة أو العرض، وعلى من لديه المخطوط تسليمه للإدارة لقاء إيصال على أن يعاد له في أقرب وقت ممكن، وتتحمل الإدارة المسئولة جميع النفقات المترتبة على ذلك.

ـ يحق لمن لديه مخطوط أن يطلب إلى إدارة المخطوطات عدم نشره أو تصويره للغير خلال مدة لا تزيد عن خمس سنوات إلا إذا وافق على ذلك كتابة.

المادة الرابعة:

للإدارة المسئولة عن المخطوطات وحدها حق التملك لكل ما يقدم لها من مخطوطات أو ما تضع يدها عليه منها لقاء تعويض عادل تحدده لجنة مختصة يعينها الوزير المختص اللجنة المختصة على ألا يقل عدد أعضائها عن ثلاثة، ويجوز لصاحب المخطوط الطعن في قرار اللجنة أمام الجهة القضائية المختصة خلال ثلاثين يومًا من تاريخ إعلامه به أو ثبوت علمه به علمًا يقينًا.

المادة الخامسة:

يحق للإدارة المسئولة عن المخطوطات أن تضع يدها على جميع المخطوطات المهددة بالضياع أو التلف كلها أو بعضها بسبب إهمال المالك لها، وذلك مقابل تعويض مالي تحدده اللجنة المشار إليها في المادة السابقة.

المادة السادسة:

مع عدم الإخلال بأية عقوبات أشد تنص عليها قوانين أخرى:

ـ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن سنة وبغرامة لا تزيد عن ما يعادل ألف دولار أمريكي بالعملة الوطنية أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من خالف أحكام الفقرات: ١-٢-٣ من المادة الثالثة من القانون.

ـ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين وبغرامة لا تزيد عن ما يعادل ألف دولار أمريكي بالعملة الوطنية أو بأحدي هاتين العقوبتين كل من خالف حكم الفقرة: ٣ بسوء نية أو خالف الفقرتين: ٤-٦ من المادة الثالثة من هذا القانون.

ـ يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات وبغرامة لا تزيد عن ما يعادل ثلاثة آلاف دولار أمريكي بالعملة الوطنية كل من خالف حكم الفقرة: ٥ من المادة الثالثة من هذا القانون وكل من اتلف مخطوطًا أو شوهه بصورة متعمدة.

ـ تضاعف العقوبات المنصوص عليها في هذه المادة في حالة العود.

ـ ويقضي في هذه الأحوال فضلًا عن العقوبات السابقة بمصادرة المخطوط موضوع المخالفة.

قائمة المصادر

فضلًا عن القراءة الباليوجرافية التحليلية المتأنية للنقوش الكتابية محل الدراسة بالقسم الأول من هذا الكتاب، وما تم مناقشته من قضايا تتعلق بكوديكولوجيا المخطوط العربي بالقسم الثاني منه، يحسن بالمؤلف أن يؤكد أنه قد أفاد كثيرًا من أعمال المؤلفين الكبار السابقين إلى هذه المباحث التخصصية سواء في علم الكتابة العربية أو علم المخطوط العربي، غير أنه قد أراد أن يقدم مادةً علميةً خصبةً ميسورة الشرح، تقرب الطالب المبتدئ إلى هذين الحقلين الماتعين. وعليه، فقد أفاد المؤلف من أعمال أساتذته الكبار من أمثال الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة سيما كتابه المؤلف عن الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء وكتابه الآخر عن تاريخ الكتب والمكتبات

في العصور الوسطى الإسلامية، فضلًا عن كتابه الماتع عن الببليوجرافيا أو علم الكتاب: النظرية الخاصة، كما استفاد المؤلف من الأعمال الأساسية لعالم المخطوطات المصري الشهير الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي؛ سيما كتابيه: «المخطوط العربي» في طبعته الثالثة، و«نحو علم مخطوطات عربي»، فضلًا عن أعمال غيرهما من العلماء والأساتذة الفضلاء.

كما يحسن بالمؤلف أن يؤكد أنه لم يثبت بمادة هذا الكتاب مواضع الاستشهاد أو الاقتباس الواردة بقدر ما اهتم بمعالجة الموضوع ومحاولة تقديمه إلى طلاب

العلم بصورة سهلة ميسورة، بعد إعادة قراءته ومحاولة استيعابه، وكأنه رأى أن مادة هذا الكتاب تمثل عملًا علميًا ثقافيًا بالدرجة الأولى، وليس عملًا أكاديميًا بحثيًا يقتضي الإتيان بالاستشهادات وإثباتها بمواضعها المحتملة، وإن كان هذا لا يعني عدم العناية بأهمية الاستشهاد أو الإسناد المرجعي من جانب المؤلف، إلا أنه كما ذكر أراد أن يركز هدفه حول طرح المادة العلمية بأسلوب مبسطٍ بحيث ينفع الطلاب ولا يشغلهم بمواضع الاستشهاد بالضرورة، فتقع المصلحة العلمية المرجوة من وراء ذلك.

وعلى هذا، فلا يسع المؤلف إلا أن يشير جملةً إلى تلك المصادر البحثية التي وقف عليها بصدد القراءة في أدب هذا الموضوع، حاشا أن يفيد منها من أراد أن يستفيد أو من تحمله رغبته الفكرية على طلب الاستزادة العلمية، علمًا بأن ما جمعته هنا من مصادر لا يعكس بمفرده رصيد المعرفة الإنسانية التخصصية في علمي الباليوجرافيا أو الكوديكولوجيا بحال؛ وإلا فهناك العديد من الدراسات البحثية والكتب وأعمال المؤتمرات وتقارير البحوث المتعلقة بهذا المجال وبلغات أجنبية وعربية. وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

١ ـ أحمد زكي باشا. (١٩٨٧). الترقيم وعلاماته في اللغة العربية. قدم له واعتنى بنشره عبد الفتاح أبو غُدة. بيروت، دار البشائر الإسلامية.

٢ ـ أحمد زكي باشا. (١٩١٢). الترقيم وعلاماته في اللغة العربية. قدم له واعتنى بنشره عبد الفتاح أبو غُدة. القاهرة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٣ ـ أحمد شوقي بنين، مصطفى طوبي. (٢٠٠٥). معجم مصطلحات المخطوط العربي: قاموس كوديكولوجي. ط ٣، مزيدة ومنقحة. الرباط، الخزانة الحسنية. ٤٧٧ ص.

٤ ـ أحمد شوقي بنين. (٢٠٠٤). دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي. مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية.

٥ ـ أيمن فؤاد سيد. (١٩٩٧). الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات. القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية.

٦ ـ برجرين، أولاف. (٢٠٠٥). قصة الكتابة: رموز وأبجديات جدارية مكتبة الإسكندرية؛ ترجمة أيمن منصور؛ مراجعة لؤي محمود سعيد. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية.

٧ ـ ديروش، فرنسوا. (٢٠٠٥). المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي. نقله إلى العربية وقدم له أيمن فؤاد سيد. لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

٨ ـ رمضان ششن. (١٩٩٧). أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات. (ضمن دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر)، أعمال المؤتمر الثاني لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

٩ ـ شعبان عبد العزيز خليفة. (١٩٨٩). الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء. القاهرة، العربي للنشر والتوزيع.

١٠ ـ شعبان عبد العزيز خليفة. (١٩٩٦). تاريخ الكتب والمكتبات في العصور الوسطى. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

١١ ـ شعبان عبد العزيز خليفة. (١٩٩٧). الببليوجرافيا أو علم الكتاب: دراسة في أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية الخاصة. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

١٢ ـ عبد الستار الحلوجي. (٢٠٠٤). نحو علم مخطوطات عربي. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

١٣ ـ عبد الستار الحلوجي. (٢٠٠٢). المخطوطات والتراث العربي. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

١٤ ـ عبد الستار الحلوجي. (١٩٨٩). المخطوط العربي. ط٣، الإسكندرية، دار الثقافة العلمية.

١٥ ـ علي فايز الغول. (٢٠٠٥). الجذور التاريخية والمعمارية التي أثرت على التشكيل الفني للحروف العربية منذ نشأتها حتى الآن. عمان، دار المكتبة الوطنية.

١٦ ـ قاسم السامرائي. (٢٠٠١). علم الاكتناه العربي الإسلامي Arabic Islamic Palaeography & Codicology. الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

١٧ ـ محمد بن صالح العثيمين. (٢٠٠٥). شرح مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام بن تيمية. القاهرة، دار بن الجوزي.

١٨ ـ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح. (٢٠٠٢). الكتابات العربية حتى القرن السادس الهجري. القاهرة، دار القاهرة.

١٩ ـ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح. [--١٩]. الخطوط العربية على الآثار والبرديات: منذ فجر الإسلام حتى نهاية العصر الفاطمي. القاهرة، المؤلف.

٢٠ ـ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي. (١٩٣٩). تاريخ الخط العربي وآدابه. القاهرة، مكتبة الهلال.

٢١ ـ هلال ناجي. (١٩٩٨). ابن البواب: عبقري الخط العربي عبر العصور: مجموعة نفيسة من خطوط ابن البواب. بيروت، دار الغرب الإسلامي.

٢٢ ـ يحيي وهيب الجبوري. (١٩٩٤). الخط والكتابة في الحضارة العربية. بيروت، دار الغرب الإسلامي.

23- Saad D. Abulhab. (2011). DeArabizing Arabia: Tracing Western Scholarship on the History of the Arabs and Arabic Language and Script. 240 p.

٢٤ ـ أهم مصادر الشبكة العنكبوتية حول الحروف العربية والسامية:

www.omniglot.com

http://www.ancientscripts.com/email.html

http://digilander.libero.it/ecologiaquaternario/

http://www.sakkal.com

http://www.ndukhan.com/

http://www.el-ghul.net



■ المؤلف فى سطور

- دكتور/ محمود شريف زكريا.
- مواليد القاهرة عام ١٩٨١م.
- مدرس بقسم المكتبات والمعلومات كلية الاداب جامعة عين شمس.
- حاصل على الليسانس من كلية الاداب جامعة عين شمس عام ٢٠٠٣م.
- حاصل على الماجستير بدرجة ممتازة من كلية الاداب جامعة عين شمس عام ٢٠٠٨م.
- حاصل الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى فى فلسفة علم المعلومات، كلية الآداب جامعة عين شمس عام ٢٠١١م.
- عمل مدرس بقسم المكتبات والمعلومات، بكلية الاداب جامعة عين شمس من عام ٢٠١٢م.
- يعمل أستاذ زائر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المدينة المنورة بالملكة العربية السعودية من عام ٢٠١٤ - حتى الان.
- عضو بالاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات.
- عضو بالجمعية المصرية للمكتبات والمعلومات والأرشيف.



9 789776 456211